كتاب الهلال

اعترافات الروائي جورج سيمنون .. و :

هذه المرأة لي

إعداد :

د. الطاهر مكي

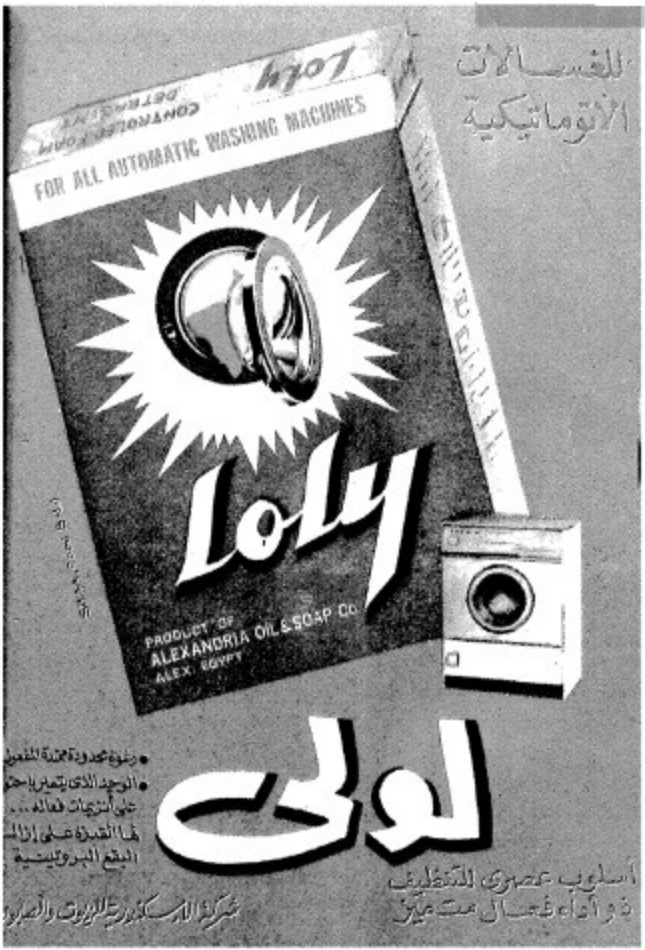

للغسالات
الأوتوماتيكية
FOR ALL AUTOMATIC WASHING MACHINES
Loly
PRODUCT OF
ALEXANDRIA OIL & SOAP Co.
ALEX. EGYPT
لولى
أسلوب عصرى للتنظيف
ذو أداء فعال متميز

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
العدد ٤٦٧ - ربيع الثانى ١٤١٠ - نوفمبر ١٩٨٩ KITAB AL-HILAL

رئيس مجلس الإدارة :
مكرم محمد احمد

رئيس التحرير :
مصطفى نبيل

مدير التحرير :
عايد عياد

أسعار البيع للعدد الممتاز فئة ٢٠٠ قرشا للقارىء فى مصر :

لبنان ٧٠٠ ليرة ، الأردن ٦٠٠ فلس ، الكويت ٥٠٠ فلس ، العراق ٢٥٠٠ فلس ، السعودية ٧ ريال ، الدوحة ٨ ريال ، البحرين ١٢٠٠ فلس ، دبى ٨ درهم ، ابو ظبى ٨ درهم ، مسقط ٨٠٠ بيزه ، غزة والضفة ١٫٢٥ دولار ، لندن ١٥٠ بنس .

اعترافات الروائى
جورج سيمنون
و..

هذه المرأة لى

إعداد
د. طاهر مكى

دار الهلال

قبل أن تقرأ ..

أثرت دار الهلال وهى تدفع برواية « هذه المرأة لى » للكاتب العالمى جورج سيمنون إلى القارىء العربى ، أن تسبقها دراسة تعرف به ، حياته وأعماله ومكانته ، لأن حياته ، فى جانبها الأدبى على الأقل ، نموذج يحتذى لمن يكتبون الرواية فى عالمنا العربى ، الشادون منهم على أول الطريق ، وحتى من بلغوا مرحلة النضج والتمكن ، فسوف يجدون فيها التجربة الواسعة العميقة بالحياة والناس ، من خلال القراءة والرحلة والممارسة ، وأن رواياته هى المجتمع منقولا على الورق ، والناس يتحركون على الصفحات وفى خيال القارىء ، بدل الشارع والبيت والعمل ..

وسيجدون فيها أيضا إراد الانتاج والتنظيم فى العمل كأوضح مايكون ، ولست أعرف بين أدبائنا وكتابنا من سلك هذا الطريق القاسى والمثمر غير اثنين : عباس العقاد فى مجال الفكر ، ونجيب محفوظ فى مجال الابداع ، وإن كانت حركتهما المادية خارج حدود مصر محدودة ، أو معدومة ، واستعاضا عنها بالرحلة قارئين ، ومع ذلك لست أشك فى أن اعتزال العالم الخارجى ، والاستقرار فى مصر كلية ، وجه انتاجهما توجيها ما ، وكان ممكنا أن يسلك طريقا ، أو حتى طرقا أخرى ، لو كان لهما من الرحلة ماكان لسيمنون ، ولو أن الامر فى جانب العقاد كان أقل ضررا ، لأنه مفكر ، والفكر عالمى ، والتعامل معه يمكن أن يتم بالمواجهة عبر الصحيفة والكتاب ..

Add to Basket

وربما كان الروائى المصرى الذى يء شيء من سيمنون هو إحسان عبد القدوس ، ومن هنا جاء إبداعه متنوعا ، لايقف به عند جانب واحد من الحياة ، ولا عند طبقة بعينها ، وتجاوز به مصر إلىٰ العالم العربى ، فالافريقى فالأوربى ، وهو فى كل هذا يعبر عن أشياء رآها ، وتعامل معها ، أو على الأقل شهدها واقعا يتحرك على مسرح الحياة ، وليست من صنع الخيال الخالص ، أو التصور المحض ..

سوف نجد أنفسنا إزاء كاتب مضطرب الحياة منذ الطفولة وأن هذه الحياة أثمرت عواطف هوجاء فى مرحلة الشباب ، وتوترا عنيفا فى سن النضج ، وقلقا مستمرا فى سنى الشيخوخة ، انتهى به إلى استسلام صوفى ، وزهد لامبالى . وفى كل هذه المراحل شغل العالم الأدبى والصحفى ، وكانت الشهرة تلهث وراءه وهو يهرب منها .

اختلطت الكتابة عند سيمنون باللحم والدم . فهو لايستطيع الابتعاد عنها حتى لو أراد ، وهى ليست عنده مهنة يلجأ اليها راغبا وبحساب ، وغاية مايرجوه من ورائها شيئا يدفعه الى الشهرة ، أو عملا يدرّ عليه بعض المال ، ومن هنا ألقيت الضوء على طريقته فى الاعداد والكتابة ، لتعين أولئك الراغبين فى كتابة الرواية أيا كان نوعها ، وأن يختاروا منها ما يناسب مواهبهم وظروفهم ، لأن الفوضى ، والهواية وحدها ، لاتنتج أدبا عظيما ، ولاتبقى على الابداع متواصلا ، والرواية الجيدة الوحيدة قد تحدث فرقعة لبعض الوقت ، ولكن سرعان ماتذهب الرياح بصداها وبكل ما لها من أثر .

يصفون سيمنون بأنه رجل غامض فى حركته ، وأنه لا أخلاقى فى حياته ، فهل جاء ميله الى الرواية البوليسية من طبيعة غامضة فى أعماقه ، وكان تحلله وليد فلسفة مستقرة فى عقله ، أم أن كثرة ماكتب من أعمال روائية تدور حول الجريمة والعنف والجنس ،

Add to Basket

اضفى عليه هذا الطابع ، ولون حياته بماسنراه فيما بعد ؟ يصعب على المرء أن يرجح احتمالا على آخر ، ولكن استطيع أن اقرر مطمئنا أن هناك علاقة جدلية بين مزاجه وهوايته ، مال إلى الغموض والتجاوز والتفرد ، وأغرم بها ، ووجدت هذه المجال مواتيا فى الرواية البوليسية لتعبر عن نفسها ، وفى الرواية التحليلية لتبرر مواقفها ، فمضت بهما ، ومعهما ، حتى النهاية .

ومن هنا كانت نظرتنا على الفن الروائى بعامة ، والبوليسى بخاصة ، ليكون القارىء واعيا بما يقرأ فيما بعد ، بناء واتجاها وفنا .

أدب جديد لمجتمع جديد

انبعثت الرواية بدءا من الملحمة ، وكانت هذه قد أدت دورها ، وأوشكت شمسها على المغيب ، ولعل الرواية فى خطاها الأولى كانت مجرد ملحمة منثورة ، إذ الأصل فى هذه أن تكتب شعرا . ومن هنا استهدفت أشكال الرواية فى طفولتها دفع خيال القارىء فى عالم الأحداث الغريبة والمفاجئة ، ومداهمته بالمغامرات المدهشة ، وتجسيم المستحيل ، وتغذية الخيال . ومع التطور والتقدم أخذت تقترب من عالم الواقع ، إلى أن جعلت منه مرآة على طريق ممتد ، ترسم بالدقة ماهو موجود ، مع نقصه وتفاهته ايضا ، وجاء ازدهارها على أطلال القصائد الملحمية ، وتطور المسرح ، فهى من ملامح العصر الحديث ، وبخاصة القرون الثلاثة الأخيرة منه ، حيث احتلت المكان الأول أهمية ونموا وتطورا واتساعا ، فأخذت تهتم بدخائل النفس ، والصراعات الاجتماعية والسياسية ، وتجرب دون توقف تقنيات جديدة ، حكيا وأسلوبا وبناء ، وأصبحت منذ مطلع القرن التاسع عشر بخاصة شكلا من التعبير الأدبى أكثر

Add to Basket

أهمية ، وأشد تعقيدا ، بين مختلف أشكال الأدب وأنواعه فى الاعصر الحديثة ، وتحولت من مجرد حكاية للوعظ أو التهذيب ، دون طموحات أبعد ، الى درس الروح الانسانى ، والعلاقات البشرية ، والفكر الفلسفى ، والاستطلاع ، ومع أنها لم تتخل تماما على العنصر الخيالى ، وهو أمر ليس ممكنا ولا مطلوبا ، إلا أنها استطاعت أن تضيق دائرته ، وأن تقترب على نحو أقوى من الواقع والحقيقة .

كان الروائى فى البدء مؤلفا غير ذى أهمية فى جمهورية الأدب ، فأصبح كاتبا مرموقا ومحترما ، يتمتع بجمهور كبير ، ويمارس تأثيرا قويا على القراء ، وبدأ يزعم لنفسه أنه قادر على التحليل الدقيق والعميق للأحاسيس والعواطف والأخلاق والعادات ، ولم يعد بطل الرواية خيالا صيغ من بخان وأوهام ، وإنما كائن حى له شعور وأحاسيس ، ولم تعد الرواية نفسها نسيجا معقدا من الأحداث يجىء هوى أو صدفة ، وانما مجموعة من الأحداث المنطقية ينشأ بعضها عن بعض ، ولم يقف الروائى عند الاحداث وحدها ، وإنما صور المواقع التى كانت مسرحا لها ، وأبرز الانسجام العجيب بين الطبيعة والانسان ، والتأثير الخفى للبيئة التى يعيش فيها ، والعادات التى كانت سائدة والأخلاق التى توجه حركة الحياة ، ومؤرخو الأدب الفرنسى يرون فيما كتبه بلزاك المجتمع الفرنسى كله بين عامى ١٨٣٠ و ١٨٥٠ ، يتحرك أمامنا ويسير : الطبقات الشعبية ، والبرجوازية ، والعمال والتجار ، والباعة المتجولين ، والممثلين والقضاة ، وأصحاب رءوس الأموال ، وكانوا أغنى الطبقات كلها ، والانتهازيين والمثقفين المنافقين ، وآخرين تزخر بهم الحياة .

والنقاد المعاصرون المعجبون بالروائى الذى نعرض له ، وننشر

Add to Basket

روايته فى هذا الكتاب : جورج سيمنون يطلقون عليه اسم : بلزاك القرن العشرين .

وشىء شبيه بهذا نجده عند نجيب محفوظ ، فنرى فى قصصه ورواياته صورة مصر من ثورة ١٩١٩ حتى أيامنا هذه ، بكل طبقاتها واتجاهاتها ، وفضائلها ومباذلها ، وأمجادها وإخفاقاتها ، ونضال ابنائها ، وساعات ضعفها ، وطغيان حكامها ، ونفاق رجال الدين فيها ، إلى آخر ماتمور به أعماقها من خير وشر .

والرواية بهذا المعنى صورة من التاريخ ، تسجل الأخلاق والعادات وحركة الحياة ، واذا تجاوزنا عن بطولات شخوصها ، وعن الصيغة الشعرية فى تعبيرها ، وأخذنا الجانب الواقعى فى الاعتبار ، وأنه تصوير الحياة فنيا بأمانة ، أدركنا أنها غدت نوعا من التاليف الأدبى الرزين ، ذى القيمة العظيمة على حين كانت الرواية البدائية خيالية ، مليئة بالمغامرات والحب ، مما يلائم الشعوب فى طفولتها فقط ، وهو لون ظل سائدا حتى القرن السابع عشر ، ووجدت فيه إقبالا وشهرة ، ولكنها مع القرن الثامن عشر بدأت تأخذ شكلا جديدا ، ظلت ترتديه حتى نهاية القرن التالى له ، ومع ذلك فبين الأعداد الهائلة من الروايات التى نشرت فيهما ، شرقا وغربا لم يقاوم الفناء ، ويفرض نفسه على ذاكرة الزمن ، غير عدد محدود .

● ● ●

وقد اختلف النقاد حول المكان الذى نشأت فيه الرواية ، ثم شرقت وغربت من بعد ، وحاولوا أن يبحثوا عن جذورها فى المزاج الانسانى ذاته ، ذلك أن المرء خلق بطريقة يحب معها أن يخرج من نفسه ، وأن يهجرها كى يرتبط باشياء أخرى ، وبخاصة فى اللحظات التى يطحنه فيها واقع الحياة ، ولديه امكاناته ، والخيال

Add to Basket

أعظمها ، وأكثرها إلحاحا ، وأطوعها استجابة ، فلجأ إليه ، ليفتح له آفاق اللانهائية ، حتى يسعد بالسياحة فيها ، ونهما إلى التصور ، وإلى ماهو رائع ، يمضى يلتقط الجمال فى حقول الخيال ، وعطور خفية ومجهولة تبعث فيه النشوة ، والشرق بطبيعته موطن الأحلام ، وهكذا يمكن القول إن الروايات الأولى ولدت فى المشرق ، ولم تكن خيالا خالصا ، ولا منتزعة من الاساطير ، وشهرزاد الغلبانة فى ألف ليلة وليلة كان عليها أن تسلى سلطانا طاغية ، وسيف مصلت على رأسها ، فتربط الحكايات الطويلة والمتعددة بخيط رفيع ، ولكنه متواصل وخلال ذلك تداعب فكر الطاغية وتهدهده ، تنسيه أولا ، ثم تدفع بالراحة فى شرايينه ، تغزوه ببطء ، حتى تستسلم روحه لنوم لذيذ .

أما الغرب فعلى النقيض .

الانسان أكثر جدية واهتماما بقدره ، ويعتقد أنه صانعه ، ويشغل الوهم فى حياته مساحة أقل ، ويتطلب فى الخيال أن يكون له صلة بالواقع ، ومن هنا جاءت الرواية عنده إما لوحة مثالية للمجتمع كما يتمناه ، أو صورة دقيقة له كما يراه ، وما يعتمل وراءه من صراعات اجتماعية واقتصادية ، وإن شئت القول : أن تجىء الرواية فنا مستقلا ، أو واقعية خالصة ، ملتزمة أو بريئة من الالتزام .

لقد استغنى الاغريق بما اخترعوا من ديانات وصنعوا من آلهة ، وصاغوا من ابطال ، عن خيال يرسمون به الواقع ، وكان الرومان شعبا يعمل ولا يحلم ، وبتأثير اغريقى حاول أن يصنع لنفسه تاريخا أسطوريا ، أما الشرق فكان مهد الحكاية والرواية والخيال البعيد .

Add to Basket

يرد النقاد إقبال القراء فى عصرنا الحديث على الرواية إقبالا شديدا ، حيث تلاشت الفروق بين الانواع الادبية أو كادت ، إلى اطارها السهل الذى يوائم كل الموضوعات ، ومختلف الوان التأليف ، وشتى الاساليب ، فمادتها تسع الفرد والمجتمع والطبيعة ، مرورا بكل الأحاسيس من ابسطها الى اعمقها ، ومن أشدها سخرية الى اعظمها نبلا ، ونحن فيها ، ومعها ، نخرج من أنفسنا ونعيش فى غيرنا ، ونهرب من قيودنا ونقرأ تاريخ شخصيات صنعها الخيال لكى نعرف أنفسنا على نحو أفضل ، ونتعلم كيف نعيش ، ولنكون كما نحن ، وليس أجمل من أن ترتد الى الماضى ، وتتبين كيف أمضيت طفولتك فى زمن ضاع الى الابد ، وأن تمد خيالك الى الغد ، وترسم بطريقة مناسبة ما تأمل ان يكون عليه مستقبلك .

تتسع الرواية لكل الاساليب ، فليس ثمة أسلوب يمكن أن نطلق عليه الأسلوب الروائى ، فهى تتسع لاسلوب الملحمة والاسلوب الغنائى والخطابى والتاريخى ، وأى منها ممكن تبعا للموضوع والمؤلف ، وفيها النثر المنمق الذى تكتب به الرسائل ، واللغة العادية البسيطة التى تستخدم فى الحديث ، والألفاظ القارصة التى تستعمل فى الهجاء ، وفيها أيضا الصور الجريئة ، والالوان الصارخة ، والفقرات الواسعة ، والجمل الطويلة ، وهى تحاول كثيرا أن يكون الشعر بلا وزن ولا قافية .

وتهتم الرواية الحديثة بكل أنواع المشكلات ، أخلاقية أو اجتماعية ، كما هو الحال عند الكاتب الايطالى المعاصر فاسكو براتوليني أو نجيب محفوظ ، وباكتشاف عوالم داخلية جديدة على نحو مانجد عند كافكا وبروست ، وقد تنخل المشاعر بطريقة رائعة لتلتقط الألوان والظلال ، كما فى روايات فرجينيا وولف ، وهنرى

Add to Basket

جيمس ، والطيب صالح ، وغادة السمان ، أو بأن تصبح وعاء لمحتوى ثقافى رفيع كما نجدها عند هيكسلى ، أو أن تبرز ماهو عبثى كقوة بدائية وحيدة كما هو الحال عند لورنس ، أو ترى فى الحب الانسانى شيئا روحيا يحملنا نحو الله ، كما هو عند مصطفى صادق الرافعى ، أو شارل مورجان ، أو مجرد دفع شهوانى وحيوانى كما هو عند هنرى ميللر واحسان عبد القدوس ، مع تفاوت فى التعبير ، صراحة زائدة عند الأول ، والمام وايحاء فحسب عند الثانى ، تبعا لضواغط البيئة التى يتحرك فيها كل واحد منهما .

ولما كانت الرواية غير محددة الاطار ، ولا ثابتة القواعد ، فقد عرف الادب منها أنواعا مختلفة ، وبداهة لن نعرض منها هنا إلا الرواية البوليسية وما يتصل بها فهى التى تعنينا .

يمكن القول إن اقدم أنواع الرواية هى رواية المغامرات ، وهى نسيج من أعمال تنطوى على كثير من المفاجآت والمباغتة ، والأحداث التى تشتمل على الأعاجيب ، وتهدف إلى أن تشبع مافينا من ذوق يميل إلى غير ما اعتدناه والى ايقاظ المخيلة والتأثير فيها ، وتغلب منها الحبكة الجيدة ، وتشابك الوقائع ، والاهتمام بالحدث ، وتتطلب نموا خياليا ملحوظا ، وقيمتها الأدبية متواضعة غالبا .

وقد تطورت رواية المغامرات إلى رواية الفرسان ، فالى الرواية الدعوية ، وهذه الى رواية الصعلكة ، ثم رواية الرعب ، ووجدت هذه اقبالا شديدا فى نهاية القرن الماضى ومطلع هذا القرن ، وفى انجليزية فى أصولها القريبة ، واسهم فى خلقها بقوة الكاتب الانجليزى هوراس ولبول (١٧١٧ ـ ١٧٩٧) حين نشر روايته « حصن أوترانت » ، وفيها توجد الأبواب المحاصرة ، والممرات الخفية ، والمداخل السرية ، واستغل الروائيون المحدثون تقنياته على أوسع نطاق ، واخذت طريقها إلى الذيوع والانتشار ، وعلى

Add to Basket

تقنية هذه الرواية قامت الرواية البوليسية ، وحديثنا عنها تفصيلا فى الفقرة التالية .

الرواية البوليسية

تعود الرواية البوليسية الى اصول بعيدة جدا ، تضرب فى أعماق الآداب المشرقية بعامة ، والادب العربى بخاصة ، وسبق أن عرضت لهذه الأصول فى مقال بمجلة « الهلال » ولكن النقاد المحدثين يعودون بها فى عصرنا الحديث الى القصاص الامريكى إدجار الن بو (١٨٠٩ ـ ١٨٤٩) ، ولو أن ماكتبه فى هذا المجال كان قصصا قصيرة وليس روايات .

وقد انتقلت الى اوربا على يد الكاتب الفرنسى إميل جابوريو (١٨٣٢ ـ ١٨٧٣) ، حين نشر روايته « القضية الحمراء » عام ١٨٦٦ ، فلاقت نجاحا واسعا ، أغراه بمواصلة الكتابة فى هذا اللون من الروايات ..

غير أن الرواية البوليسية ازدهرت فى بريطانيا ، ولاقت هوى فى نفوس الانجليز ، وأرسى قواعدها نخبة من كبار الكتاب ، أمثال آرثر كونان دويل (١٨٥٩ ـ ١٩٣٠) ، وكان هو الذى أبدع شخصية المخبر شارلوك هولمز الشهيرة ، ودفع بها الى الوجود لأول مرة فى روايته « غرفة المطالعة ذات اللون القرمزى » ونشرها عام ١٨٨٧ م ، وجاءت بعده دورثى سايوز (١٨٩٣ ـ ١٩٥٧) ، وكان مخبرها السرى هو اللورد بيتر ومزى ، ثم أجاثا كريستى ومخبرها بوادو ، وأبدع الكاتب ايان فلمنج (١٩٠٨ ـ ١٩٦٤) سلسلة روايات جيمس بوند ، ووجدت فيها السينما غايتها ، فحولت كثيرا منها إلى أفلام لاقت نجاحا كبيرا

Add to Basket

يتسع تصنيف الرواية البوليسية لألوان كثيرة متنوعة ، وقد اختلطت الى حد كبير بالجنس والسادية ، ونقلها الكاتبان الانجليزيان جيلبين شلسترون (١٨٧٤) ، والمعاصر جراهام جرين إلى عالم الميتافيزيقا ، رمزا لحالة الانسانية التى تحاول دون توقف أن تحل مشكلة أسرارها ، وأضفى سيمنون الذى نعرض له بالدراسة هنا ، أهمية أكبر على العنصر النفسى ، وبلغ فى ذلك حدا كبيرا من الاجادة والاتقان ويغلب الآن عند بيتر شينى ، وهيتشكوك ، وإيدى كونستانتين ، استخدام الفكاهة ، فى الرواية المكتوبة وفى السينما عند إخراجها فيلما ، لاضفاء مسحة من الانسانية على عقدتها ، والخروج على بعض التقاليد المعتادة ، لكسر الرتابة والجمود ، فى بناء العمل الفنى ، وفى حركة الحياة اليومية على السواء .

والرواية البوليسية ذات طابع فكرى ، وتعنى بحل مشكلة تبلغ حدا للغز أحيانا ، وتخضع لمبدأ مقرر عالميا ، وهى أن المجرم يجب أن يقبض عليه وأن يحاكم وأن ينال جزاءه ، ولو أن الاعجاب بعبقرية المجرم ينتهى بالقارىء أحيانا الى التعاطف معه .

وبنية القصة البوليسية مقننة ، وتتيح للقارىء الواعى المتمرس أن يشترك فى التحقيق ، وأن يتوصل الى الجانى ، وأن يكشف عن وسائل تنفيذ الجريمة قبل أن يكشف عنها المؤلف فى الفصل الأخير من الرواية ، وأوجز الكاتب الانجليزى أوستن فريمان (١٨٦٢ ـ ١٩٤٣) ، وكان طبيبا فى غانا ثم تفرغ لكتابة الروايات البوليسية بعد ان أصبح كسيحا ، هذه البنية فى المراحل التالية :

- الاعلان عن وقوع الجريمة ، أو طرح المشكلة .
- تقديم البيانات الضرورية اللازمة للكشف عن الجريمة .
- إجراء التحقيق والوصول إلى الحل .

Add to Basket

● مناقشة عناصر الحل ، وتوضيح كيفية وقوع الجريمة .

تعمل الرواية البوليسية ، قبل أى شىء ، على إرضاء ذكاء القارىء ، وأن تصبح لعبة عقلية ، تتيح له متعة تجريدية ، وغايتها أن تبرهن على أن تظهر ، وأن تبتعد قليلا من الفن الروائى الخالص ، وأن تقترب كثيرا من الرياضيات ، وأن تشرك القارىء مع المؤلف فى هذه المعركة الذهنية ، فهى أشبه بلعبة شطرنج ، أو حل الكلمات المتقاطعة ، القارىء لها ليس متلقيا مستمتعا فحسب ، كما هو الحال فى الرواية العادية ، فهى لعبة بين طرفين : المؤلف والقارىء ، ولكنها مع ذلك تنضح بانسانية تعانى ، وتلوذ بالرعب والقسوة والجنس .

ما الذى يبحث عنه القارىء حين تجرى عينه على صفحات رواية بوليسية ؟ يتوقع أن يجد جريمة ما ، وأن هناك غموضا يلفها : المجرم والدوافع والوسائل التى استخدمها فى تنفيذ جريمته ، وأغلب هذه الجرائم أن تكون قتلا ، وأهم شىء فى الرواية اللغز الذى يضعه الكاتب أمام القارىء ، وكل شىء فيها يخدم واقع أن القارىء فى امكانه أن يتنبأ بالمخطىء ، وفى الوقت نفسه سوف يكون الحل الأخير مفاجئا ، لأنها تهتم فى العمق بالمزج بين الغامض والواضح ، والمستحيل والممكن ، والخارق والطبيعى ، وبهذا تعرض الكفاح الخالد بين عنصرى الفوضى والنظام .

فى نطاق الرواية البوليسية نجد لونين مختلفين تقنيا ، وهما : رواية الرعب ورواية العنف ، وهذه الأخيرة يسميها الفرنسيون الرواية السوداء ، وهى تركز على العنف من المجرم والمخبر على السواء .. وأما الأولى فترمى الى تصوير الهلع الذى يسيطر على الضحية وهو إنسان برىء ، والتمييز بينها وبين القصة البوليسية

Add to Basket

العادية دقيق جدا ، لأن هذه محورها أسئلة : من ؟ ولماذا ؟ ومتى ؟ على حين تركز قصة الرعب على الطريقة التى تم بها ارتكاب الجريمة .

وترتبط الرواية البوليسية الآن ارتباطا وثيقا بنوعين أدبيين تفرعا عنها ، وهما : رواية التجسس ورواية الخيال العلمى ، والأولى أقرب الى رواية المغامرات ، وفيها يختلط الامر بين الجواسيس ومن يقاومونهم ، ويكثر عددهم ، ويحول ذلك دون الفصل المطمئن بين الطيبين والأشرار منهم ، وقد يبلغ الحال (فى الرواية طبعا) أنهم لايعرفون هم أنفسهم من هم حلفاؤهم ، ومن هم خصومهم ، ولا من يخدمون على التأكيد ، ويأخذ ذلك كله طابعا خياليا ، ذو كوابيس قاتمة ، تقترب بها من عالم كافكا الروائى ، وتتأرجح مع ذلك بين الفكاهة والعبث النهائى ، والمثل الواضح لهذا اللون رواية « رجلنا فى هافانا » للروائى العالمى جراهام جرين .

ولاتزال رواية الخيال العلمى تواصل نجاحها العلمى ، لان المرء المتوسط الثقافة ، عندما يسرح خياله عبر الانجازات التقنية المعاصرة ، مهيأ لان يصدق كل مايقص عليه ، وهذا النوع من الروايات يسرقه عادة من واقعه المؤلم ، ويمكن أن نفرق فيه بين لونين : الروايات غير الصادقة علميا ، وتلك التى تحاول ما أمكنها أن تنضبط مع الحقائق العلمية التى بلغها عصرنا ، وهى المقبولة فنيا وعلميا ، لأنها تقدم فى العمق بعضا من الحقائق العلمية وتعمل على اشاعتها .

ويمكن أن نعد من روايات الخيال العلمى تلك التى يحلم أصحابها بالمدن الفاضلة ، التى يسود فيها الأمن والعدل والنظام ، وكل شىء فيها موظف لخدمة الانسان ، وهى رسالة موجهة الى رجل عصرنا أكثر منها رواية خيالية علمية ، وربما كان أشهرها

Add to Basket

رواية جورج أورويل التى تحمل عنوان « ١٩٨٤ »و « عالم سعيد » لالدوس هيكسلى .

يجد القارىء فى الرواية البوليسية بأنواعها المختلفة ، وسيلة مناسبة للتسلية النظيفة المريحة ، ورخيصة الثمن ايضا ، يهرب اليها من هموم الحياة وأعبائها ورتابتها ، وبخاصة أولئك الذين يعملون ساعات طويلة فى مهن لايحبونها ، ولا يجدون فيها انفسهم .

وهى أكثر الكتب رواجا وترجمة فى العالم فمادام هناك إناس يسافرون ، وقطارات تتحرك ، وطائرات تقلع ، ومحاط ومطارات ينتظر فيها المسافرون ، ووقت يمر دون قدرة على الحركة ، يظل الناس دائما فى حاجة ملحة الى هذه القراءة الخفيفة والجذابة معا .. وفى إحصائية أخيرة لليونسكو عن الكتب الأكثر ترجمة الى لغات العالم المختلفة ، نجد مؤلفات الروائية البوليسية أجاثا كريستى تجىء الثالثة فى الترتيب ، بعد أعمال لينين وتولستوى مباشرة .

والحق أن النقاد يولونها ـ ظلما ـ أهمية اقل ، ولكن من المؤكد أن علماء الاجتماع سوف يولونها فى المستقبل أهمية أكبر ، حين يحاولون التعرف الى رجل القرن العشرين .

● ● ●

ازدهرت القصة البوليسية فى اللغة الانجليزية بدءا ، لأنها توافق المزاج الانجلوساكسونى من جانب ، إذ هو قادر على إخفاء عواطفه ، وكتم مشاعره ، وقد يرسم على شفتيه ابتسامة أخاذة ، وتجرى على لسانه العبارات المغسولة ، على حين يضمر فى أعماقة الأذى ، وينوى الشر والغدر ، ولأنها ـ من جانب آخر ـ جاءت لتعبر عن رغبة الطبقتين العليا والوسطى فى المجتمع

Add to Basket

البريطانى فى قيام نظام اجتماعى هرمى ثابت ، وقوة شرطة فعالة وحازمة لحراسته ، إلى جانب العوامل الاجتماعية الأخرى التى مهدت التربة للرواية بعامة .

ولكن ذلك لايعنى أن الأدب الفرنسى قد تخلف عن اللحاق بهذا النوع الأدبى الجديد ، والفرنسيون حريصون دائما على مكانتهم الثقافية فى اوربا بخاصة والعالم بأجمعه . وقد ألمحنا فى البدء الى ان الكاتب الذى جاء بالرواية البوليسية من امريكا الى اوربا ، ونقل تقنية ادجار الن بو مبدعها الأول فى عصرنا الحديث كان فرنسيا ، وهو إميل جابوريو ، ونضيف إلى ذلك أن الشاعر الفرنسى الشهير بودلير هو الذى ترجم اعمال بو إلى اللغة الفرنسية فى اسلوب أدبى رائع ، جعل فيها أصلا ثانيا ، وجذب اليها كافة من يقرأون بالفرنسية .

وبعد إميل جابوريو جاء جاستون لوجو (١٨٦٨ ـ ١٩٢٧) ، وبيير فيرى (١٩٠٠ ـ ١٩٦٠) ، وكان فى الأصل وراقا ثم تحول إلى روائى ، وبرز فى بلجيكا باللغة الفرنسية ، إ . سيتمان (١٩٠٧ ـ ١٩٧٠) ، وآخرون كثيرون ، وذاعت فى فرنسا بين الحربين العالميتين على نحو واسع ثلاث سلاسل ، اختصت بالرواية البوليسية : القناع ، وتاسست عام ١٩٢٧ ، ونشرت حتى عام ١٩٧٥ أكثر من ١٣٥٠ رواية ، تطبع من كل واحدة ، فى المرة الواحدة ، ٢٥ ألفا ، والنهر الاسود ، ثم السلسلة السوداء ، وهذه الأخيرة أوسع الثلاث انتشارا ، وتصدر عن دار جاليمار الشهيرة وكان يشرف عليها الكاتب والصحفى ، داشيل أميت (١٨٩٤ ـ ١٩٦٣) ، وسميت بالسوداء ، نسبة الى غلافها ، وإلماحا الى محتواها .

وقد أوجز الناقد مارسيل دوهاميل على غلاف رواية « القياصرة

Add to Basket

يموتون أيضا » غاية هذه السلسلة ، وخصائص أدبها ، ومنهجها فى النشر ، يقول :

« على المبتدىء أن يأخذ حذره ، فأنت لاتستطيع أن تستسلم لروايات السلسلة السوداء ، دون أى خطر ، فمن يبحث فيها عن اسرار شرلوك هولمز لن يجد دائما مايسره ، ومثله المتفائل دائما . وفى هذا اللون من الروايات مسموح بالمواقف غير الأخلاقية ، بعامة ، لغاية وحيدة : أن نضعها فى مواجهة مع الاخلاق السائدة ، وهنا نجد الأبواب مفتوحة على مصاريعها والشىء نفسه يمكن أن يقال عن الفضائل الكبرى أيضا ، وحتى الاشياء البسيطة والتى لايمكن أن تنسب الى الفضائل أو الرذائل ، وايقاع الرواية نادرا مايوافق دين الدولة ، وفيها سوف نجد رجال شرطة أكثر فسادا من العصابات التى يلاحقونها ، والمخبر اللطيف قد لايكتشف الغموض ، وأحيانا لايوجد غموض أصلا ، وفى بعض الحالات لا يكون هناك سر ما يتطلب كشفا .

« إذن ماذا ؟

« يبقى الحدث والتعاسة والعنف ، والقسوة والمذابح ، كما هو فى الأفلام الجيدة ، والمواقف الحماسية مترجم إلى واقع ، وعشاق التأمل الباطنى عليهم أن يبدأوه عكسا ، والعواطف المنفلتة ، والاحقاد العنيفة ، والمشاعر التى يعتبرها المجتمع شذوذا سوف تجدها هنا شائعة تماما ، وتعبر عن نفسها أحيانا فى لغة لاترضى عنها الأكاديمية ، ووراء الدوافع دائما ، وردية أو سوداء ، توجد الفكاهة بأجلى معانيها .

« باختصار ، غايتنا بسيطة : ألا نجعلك تنام ، ومن يبحث عن الاثارة الجادة فإنى أنصحه أن يقرأ هذه الروايات ، حتى لو وجه الىّ بعد ذلك أفذع ألوان السباب والشتائم ، فقد اختار بالصدفة

Add to Basket

أسهل طريقة لكى يقضى ليلته سهران يقظا .

ظلت الرواية الفرنسية غير قادرة على مزاحمة الرواية الانجليزية ، امريكية أو كتبها بريطانيون ، وبقيت تتحرك مثل غيرها ، فى نطاق الجريمة والعنف والسادية والجنس ، إلى أن جاء بلجيكى لغته الفرنسية ، فتقدم بها الى الأمام خطوات هائلة ، ووضعها فى مصاف ارقى ما أبدعه الأدب الانجليزى ، وخرج بها من الاطار المتعارف عليه ، وأضاف اليها التحليل النفسى ، مستفيدا الى ابعد حد مما كتب فرويد ويونج وأدلر وآخرون ، وفاق الجميع غزارة انتاج ، ووفرة قراء ، وكثرة ترجمات ، فبهر الدنيا وشغل الناس .

كان ذلك الكاتب هو جورج سيمنون ، صاحب الرواية المنشورة رفق هذه الدراسة بشرا ، وقبلها سوف نعرض له انسانا او كاتبا مبدعا ، وكيف يراه الآخرون ! ..

سيمنون إنسانا

اشهب الخيال ، له وجه طفل معاقب ، وعينان صغيرتان جدا ، ومستديرتان ، ولاتستقران على حال ،

نفى نفسه فى حياته العائلية ؛ وهو يفضلها على التردد على أوساط لم يسع اليها ولم تفكر فيه .

يحب ان يتسكع ، وان يضرب فى الشوارع على غير هدى ، ولابأس أن ينصب آلته الكاتبة فى أى مقهى ثم يأخذ فى الكتابة .

وقد أغضب الناس جميعا ، فى أى مكان أقام فيه ، الطبقة العليا والدنيا على السواء ، ببوهميته ، وإسرافه فى النساء والشراب ، وخصوبة كتابته ، ويبدو دائما منهك الأعصاب يطل من عينيه حزن نبيل .

Add to Basket

ويشعر بالسعادة فى أى مكان من العالم، لانه قادر على التجاوب مع كل الناس بلا صعوبة ـ ولايحمل لأى انسان فى العالم احتقارا أو كراهية ، لانه يرى الناس سواسية ، فى فضائلهم ورذائلهم ، يتفاوتون فيما يأخذون من جرعاتها ، وفى النهاية كلهم شركاء ، لا أحد مجرد تماما من هذه او تلك .

وهو لايقرأ السير التى تكتب عنه فى دوائر المعارف المختلفة ، لانها دائما تضفى عليه صفة العبقرى ، وهو لايرى نفسه كذلك ، ولأن الجانب الأكبر منها فى لغات لايعرفها فيما يقول . ولم يعتبر نفسه روائيا عظيما أبدا ، ولكنه رجل يكتب روايات كثيرة ، وعادة لايقرأ مايكتب غير مرة واحدة ، ليصحح ماهو ضرورى ، ومن النادر أن يقرأ النقد الذى يكتب حوله أو عن رواياته .

وهو عازف عن الشهرة ، لايعتقد فيها ، ولايسعى اليها ، وإن جاءته تحبو ، ولاتعنيه الامجاد الرسمية فى شىء ، وحين سعى الكاتب الفرنسى فرانسوا مورياك أن يحصل له على الجنسية الفرنسية ، الى جانب جنسيته البلجيكية ، حتى يستطيع دخول الاكاديمية الفرنسية لانها شرط فى عضويتها ، شكره على المحاولة ، وأدار لها ظهره .

إنه فيكتور هيجو ، أو هكذا يلقبونه ، يكتب تحت شجرة أرز ، ويتدفق كالنهر العظيم حاملا كل شىء ، الصدف ، والدر ويكون متجددا نظيفا مرة ، وراكدا آسنا مرة أخرى ، ويجمع بين اللطف والجهامة ، ورقة الشعر وعامية التعبير ، وهو أنانى واجتماعى ، وفردى ومشارك ، وكل هذه الخصال مجتمعة تصنع كاتبا عظيما ، ووراءها :

● أصول متواضعة :

رأى سيمنون الحياة لأول مرة فى مدينة ليبج ، فى الشمال

Add to Basket

الشرقى من بلجيكا ، وهى مدينة قديمة ، متوسطة السكان عددا ، تقع على مقربة من هولندا وألمانيا وتمر بها نهيرات عديدة ، وتضم عددا من المنشآت الكبرى ، جامعة ومتحفا وأوبرا ، وبعض الأديرة الاثرية ، وعددا من القصور القديمة ، وموانى تقوم على الانهار التى تخترقها ، أو تجرى قريبا منها ، وهى من مراكز صناعة الحديد والمعادن والزجاج والكيماويات .

كان ينتمى أبا وأما إلى بسطاء الناس وفقرائهم ، وظل طول حياته ، حتى بعد أن تدفق المال بين يديه وفيرا ، لايجد السعادة إلا فى لقائهم والجلوس إليهم دوما ، ويردد دائما : لقد جئت من أصول فقيرة .. أكثر من فقيرة !

ولد الابن فجر يوم ١٣ فبراير ١٩٠٣ ، ولكن أمه كانت تتشاءم ، كعادة الأوروبيين ، من هذا الرقم فقدمته يوما ، وقيدته فى سجلات البلدية على أنه من مواليد يوم ١٢ ، وهكذا عمد مجيئه إلى الحياة بعملية تزوير .

كان الأب يعمل فى سوق الدواجن ، والأم بلا مهنة ، والصبى يتردد على المدرسة الابتدائية ، ثم توقف عن التعليم بانتهاء المرحلة الابتدائية وقيام الحرب العالمية الأولى ، وقد جاعت معها بالمجاعة لكل الناس ، وكانت على الفقراء ، أشد قسوة ، وأصبحت مسئولية الأم أن تحسن توزيع القليل من الخبز والبطاطس اللذين تحصل عليهما بالبطاقة على أيام الاسبوع ، وذات يوم فاجأ الابن أباه متخفيا ، يأكل بيضة واحدة وحده ، فى غفلة من أبنائه ، فاهتزت ثقته فيه ، بعد أن كان يحبه كثيرا ، وفقد كل احترام له .

وفى تلك الفترة من حياته مراهقا ، وبلا عمل ثابت ، ولا حياة مريحة ، ولا دراسة محددة ، بدأ جورج وكان هذا اسمه ، يعمل اشياء كثيرة باليومية ، الحقته أمه بمخبز ، لأنها رأت فى المنام أنه

Add to Basket

سوف يصبح حلوانيا شهيرا ، وبقى فيه ثمانية ايام ثم فارقه ، والتحق صبيا فى مكتبة ولكنه لم يحترم مواعيد العمل فطرده صاحبها ، وهكذا ينتقل بين حرف عديدة ، وخلال ذلك كله عبث كثيرا بالفتيات ، وأسرف فى الجنس ، وكان الشىء الوحيد الممتع المتوفر له بلا مقابل ، والى جواره شىء آخر بثمن ، ولكنه ثمن رخيص للغاية ، وحتى يمكن الحصول عليه اقتراضا ، أو استعارة ، وهو القراءة ، فاقبل عليها بنهم لايقل عن ولعه بالنساء .

فى الثالثة عشرة من عمره ، وفى أتون الحرب العالمية الأولى اكتشف الروائيين الروس العظام : جوجول ودوستويفسكى وتشيخوف ، وسوف تلعب دورا كبيرا فى توجيهه ، وتظهر آثارها واضحة فى رواياته من بعد ، وكان آخر الثلاثة أعظمهم تأثيرا فيه ، ربما لأنه يعرض فى رواياته للجانب الاجرامى فى حياة البشر فى حياد وموضوعية .

ومن بين أدباء الفرنسية كان معجبا الى حد بعيد بمارسيل بروست ربما لأنه بلغ بالرواية النفسية أبعد أعماقها ، وبعد مرحلة الروايات جاء علم النفس ، وازدهر كثيرا بعد الحرب وأثناءها فأخذ يقرأ بنهم مؤلفات كبار علمائه : فرويد ، ويونج ، وأدلر ، ولم يقف بثقافته عند العلوم الانسانية وحدها ، وانما تجاوزها الى العلوم الطبية ، من سموم وتشريح وغيرها .

ولم يكن له منهج معين فى القراءة ، وانما يلتهم كل ماتقع عليه يداه ، ولو أنه كان أميل بعد الروايات الجيدة إلى قراءة المذكرات والاعترافات وكان دوستويفسكى فى رسائله أقرب الى قلبه منه فى رواياته .

وفى تلك الفترة من حياته عمل صحفيا فى جريدة جازيت دى لييج ، يتردد على اقسام الشرطة ، ويتابع أخبار الحوادث ، وذات

Add to Basket

ليلة من عام ١٩٢٢ أخذ القطار إلى باريس ، ولم يكن معه شيء من الفن أو المال أو الشهرة ، ونزل فى حى مونبرناس ، وسكن غرفة فى أحد السطوح ، تلك التى يعرفها جيدا جمهور الفنانين والطلاب والغرباء الذين يفدون على العاصمة الشهيرة ، وهى عادة منخفضة السطح ، فإذا تحرك ليلا ، قبل أن يشعل النور اصطدمت به رأسه .. وكان سعيدا بهذه الحياة ، فقد كان يعيش بين قوم حياتهم التواضع شخصا يسير على قدمين .

وخلال الثلاثينيات عمل صحفيا من مستوى جديد وجيد ، قابل تروتسكى فى منفاه ، وأجرى معه حديثا لصحيفة بارى سوار ، وكتب فى مجلة « فوالا » مجموعة من الاستطلاعات الصحفية الجادة حول افريقيا حين كانت كلها تقريبا مستعمرة أوربية ، وهى سلسلة كانت تعلوها دائما جملة شهيرة اتخذ منها شعارا : « نعم ، إن افريقيا تتحدث الينا ، وتقول لنا : ظظ ، وحسنا فعلت » .

ومع الصحافة والابداع والشهرة تدفق عليه المال من كل جانب ، فانتقل بعد ثلاث سنوات فقط ، اى فى عام ١٩٢٥ الى ميدان فوزج الشهير ، وبدأ يعيش حياة برجوازية مترفة ، فأقام فى شقته بارا ، يتوارد عليه أصحابه من كل باريس ، ويظلون يشربون ويتناقشون فى الأدب حتى الرابعة صباحا ، ثم ينامون ، ويظلون حتى منتصف النهار ، والوحيد الذى كان يستيقظ فى وقته المحدد ، ويجلس إمام ماكينة الكتابة ليكتب كان هو : سيمنون .

● رحالة لا يكل :

كان دائما مولعا بالرحلة ، ولم تكد الحياة تبتسم له حتى اشترى زورقا ، ودشنه فى حفل عظيم تولاه خورى كنيسة نوتردام أكبر وأشهر كنائس باريس ، وعلى ظهره ، وظهور قوارب أخرى بعده ،

Add to Basket

عبر كل قنوات فرنسا ، وشمال اوربا ، وفوقها كتب أوائل رواياته الكبرى ، وهو يتأمل الطبيعة ويلاحظ حياة الناس ، وبعدها اتجه الى البحر الابيض ، وبدأ الرحلات الطويلة ، فى افريقيا السوداء ، والكونغو من بينها بخاصة ، وأمريكا الجنوبية ، وتاهيتى ، واستراليا .

كان فى رحلاته عبر القنوات يبحث عن الوجه الحقيقى للمدينة او القرية بجانب الماء لا بجوار الطرق ، وفى رحلاته البعيدة لايبحث عن المغامرة أو الاشياء الغريبة ، وانما يبحث عن الانسان ، الانسان الفطرى ، او كما يقول هو : « كنت ابحث عن نفسى » .. وقد رحل على امتداد كل فصول العام ، وعاش فى باريس ، وفلوريدا ، والأريزونا ، وانقرة ، وعاش بين سكان القطب الشمالى ، وهنود البرازيل ، وزنوج خط الاستواء . ونادرا ماكان يمضى فى المكان الواحد أكثر من عام .

وبلغ به حب الرحلة حد الهوس ، وقد يبلغ به الحال أن يأخذ فى الساعة العاشرة مساء ، أو حتى بعدها ، سيارة أجرة مع زوجته ، ويذهبان الى مطار بورجيه ، ويأخذان الطائرة الى اى مكان فى العالم يقع فى خاطره .

● زوجتان وعشيقة :

لعبت المرأة انسانة وأنثى دورا مؤثرا فى حياة سيمنون ، فهو يحبها ويقدرها وظل مشدودا اليها حتى بعد أن تقدمت به السن ، وكان يرى أن اتصاله بها ، حتى لو كانت مجهولة ولو لوقت قصير ، يمنحه سعادة بلا حدود ، وعندما كان شابا ظل على الدوام يردد قول الشاعر الانجليزى بايرون : ليت للنساء جميعا فم واحد ، إذن لقبلته واسترحت .

وقد أسرف فى مغامراته شابا دون أن يفكر فى الغد ، ورأى فى

Add to Basket

هذه الحياة العاطفية المتنقلة المتقلبة بهجة عظيمة ، وهو يشعر بدونها انه سجين المجتمع ، ولم يكن يعنيه من أى طبقة هذه المراة التى يشتهيها ويلاحقها ، ويعيش معها حين تستجيب له أياما او ساعات . فقد يغازل طباخة عند اسرة او مربية أطفال ، او ساقية فى حان ، أو راقصة فى ملهى ، أو موظفة فى مؤسسة ، او طالبة فى الجامعة ، او سيدة مجتمع ، ويتعامل معهن جميعا فى رزانة ووقار واحترام ، وفى اى مكان ، فى بيته أو مكتبه او فى فندق لايهم ، كما لا يعنيه ان تكون اوربية او زنجية ، شريفة أو مومسا ، وهو يكره هذه الكلمة الأخيرة ، ويؤثر عليها كلمة « محترفة » ، والمهم فى كل الاحوال ان تكون جميلة .

وقد عرف مئات النساء غير زوجاته ، وكلمة الحب عنده بمعناها العاطفى الدقيق أقل الالفاظ ورودا فى روايته وله فى ذلك فلسفة محددة يصدر عنها ويرى من خلالها أن لحظة الاندماج بين الرجل والمراة تمثل الحياة بجانبيها ، أخذا وعطاء ، وأنه معها يرتشف سر الكون فى عنفه وفورانه ، وأن التعمق فى فهم الانسانية والاحساس بها يمر من خلالها .

ورغم هذا تزوج مبكرا ، فى سن فتية .

● ● ●

تعرف اليها وهو فى السابعة عشرة من عمره عام ١٩١٩ ، التقى بها فى حانة صغيرة ، يتردد عليها الفنانون المبتدئون ، هو يعمل صحفيا ، وهى رسامة ، فتاة من لبيج نفسها ، شقراء مبتسمة ، تقص شعرها على طريقة الرجال ، وبعد عامين من معرفتها ، او خطبتها اذا شئت ، تزوجها وسوف تصحبه فى رحلته الى باريس .

صحبت تيجى زوجها فى كل رحلاته العريضة والواسعة ، عبر العالم كله ، وبدأت تشتهر رسامة بدورها ، ثم اكتشفت انه يخونها

Add to Basket

مع امراة شبقة ، واحست متاخرة ، في عام ١٩٣٩ ، انه كان يحب أن تعطيه ابنا ، وانها ضنت عليه بهذا ، وهكذا جاء ابنهما الوحيد مارك بين الفوضى العاطفية التى تسود حياة والديه قبيل الحرب العالمية الثانية .

كانت تيجى تغفر لزوجها صلاته بنساء مغمورات لا اهمية لهن ، ولكنه خلال الحرب العالمية الثانية ارتبط بالراقصة الزنجية العالمية جوزفين بيكر ، وكانت دنيا عريضة من الشهرة والمجد والنفوذ ، فلم تصبر على هذه الصلة ، وبدأ الخلاف بينهما يتسع ويقوى ، وبعد الحرب قرر سيمنون أن يذهب الى الولايات المتحدة عام ١٩٤٥ ، ولم تذهب تيجى معه ، وانما حملت ابنها ورحلت الى مدينة فندى فى فرنسا ، وفى الولايات المتحدة نسيها تماما ، وتمزقت العلاقات بينهما كلية ، وأخذ سيمنون طريقه الى امراة أخرى ، وطلق تيجى رسميا عام ١٩٥٠ ، وقد امتدت بها الحياة طويلا ، ونشرت ذكرياتهما معا فى كتاب مصور ، تركت الصور وحدها تتحدث عن علاقتهما ، وزارها سيمنون فى بيتها عام ١٩٨٢ واستعاد معها ذكريات الايام الأجمل فى حياتهما ، وبعد ذلك بسنوات ثلاث رحلت عن الحياة .

● ● ●

فى نيويورك التقى سيمنون بزوجته الثانية ، وكانت فتاة كندية ، تتكلم الفرنسية ، لأنها أصلا من فرنسا وهاجرت أسرتها الى كندا ، واسمها دنيس كيميه ، وقد تزوجها رسميا عام ١٩٥٠ ، وعندما عاد الى فرنسا جاءت معه ، وسوف تكون حياتهما موزعة بين باريس والرحلة وسويسرا وليبيج فى أحايين قليلة ورغم انه رزق منها بأطفاله الثلاثة الأخرين مارى جو ، وجون ، وبيير ، فقد ظلت حياتهما ، واستمرت خمسة عشر عاما متوترة على الدوام ، ومع

Add to Basket

شأن معظم النساء ولم يكن هو ينتمى الى اليمين أو اليسار ، ولا الى اى حزب سياسى ، وليس اشتراكيا ، لان الاشتراكيين ثوريون فيما يقول ، ومع ذلك فمشاعره واحاسيسه كلها مع رجل الشارع البسيط ، وبتعاطف معه بلا حدود ، وهو مالم تستطع دنيس أن تفهمه ، كما لم تفهم الزواج على انه حب واندماج وعطاء بلا حدود ، ولكنها فهمته حربا متواصلة بين زوجة تريد ان تكون لها الكلمة ، وزوج فنان لايستطيع ان يخضع حياته لاى قوانين .

واصبحت حياته مع دنيس لاتطاق ، ولم تعد تتحمل مغامراته العاطفية داخل البيت وخارجه ، وبلغت حد الاتصال بخادمتها الخاصة ، وضاقت احواله معها ، وكان عليه أن يختار ، واختار الطلاق ، وسوف يبلغ الخلاف بينهما غايته حدة واسفافا ، حتى وصل المحاكم ، فى ظروف سوف نعرض لها بعد قليل ، وقد أصدرت عن حياتهما معا كتابها « طائر للصيد » قصت فيه تاريخ حياتها بجواره ، وكشفت كل اسراره ومغامراته ، ازاحت الستر عن عاداته اليومية الصغيرة والكبيرة والشاذة ، وما كان يتسم به من ولع وزهو وغرور ، وانتهى هو الى قناعة آمن بها ، وطبقها وهى أن الزواج برسومه وطقوسه المعهودة نظام فاشل ، وانه يقتل العبقرية والحرية والبهجة .

● ● ●

ولكن سيمنون لايمكن أن يبقى دون امرأة فكانت الثالثة تيريزا .

وهى ايطالية كانت تعمل خادما خاصة لزوجته دنيس ، والصلة العاطفية بينهما بدأت على التأكيد قبل ان يطلق زوجته ، ودخلت فى حياته فى ١٤ ديسمبر ١٩٦١ ، وله من العمر ثمانية وخمسون عاما ، ويكبرها بخمسة وعشرين ، ولم يشأ أن تكون علاقته بها

Add to Basket

ذات صبغة رسمية ، فلم يعقد عليها فى كنيسة . ولم يسجل زواجها فى بلدية ، وانما اتفقا على أن يعيشا معا . على نحو ماكانت عليه سيمنون بوليفار من جان بول سارتر ، ووجد معها من السعادة والحب مالم يجده عند زوجته السابقتين ، ويتحدث عنها دائما ، وفى كل ماكتب ، بحنان غامر ، لقد هيأت له الامان والثقة والسلام ، وجعلت من بيته المرفأ الهادىء الذى يطمئن اليه ، وفيه يكتب ويحلم ، ويتعاقد على نشر ابداعه ، وعرفت كيف تجعله يقنع بها وحدها . وأن يعطيها حقوق الزوجة كاملة ، وإن لم يوقعا وثيقة . ولا باركهما قسيس .

وفى إخلاص وذكاء وكفاءة قامت تيريزا بدور العشيقة وحارسة المعبد ، واتفق معها انه اذا اصيب فى قواه العقلية ، او بمرض معضل لا أمل فى الشفاء منه ، أن تريحه من الحياة بحقنة ، وأن تحرق جثمانه ، ثم تسحقه ، وتذروه على حشائش حديقته الصغيرة ، ليختلط مع رماد ابنته مارى جو .

● اخيرا فى لوزان :

وتعب من كثرة ما رأى فى العالم وحركته ، وبعد أن ملك القصور والفيللات ، وغرق فى السعادة انسحب الى بيته فى لوزان اخيرا ، واغلق ابواب بيته عليه ، ولا أحد يعرف لماذا ، وبخاصة ان المتاعب الصحية والنفسية التى ادى اليها انتحار ابنته كانت قد انتهت ولم تفعل به لحظتها مافعل بنفسه اخيرا ، وربما كان ذلك بسبب عملية جراحية فى رأسه أجراها فى ديسمبر عام ١٩٨٤ . وبعضها أثر ان يعتقل نفسه بارادته فى بيته الوردى فى لوزان .

ومنذ هذه اللحظة اختار هذا الأديب العبقرى الذى تخصص فى الادب أن يعيش حياة متواضعة ، فى عالمه الخاص ، وتخلى عن حياة الترف والبهرجة ، وأثر ان يعيش حياة بسيطة للغاية ، عادية

Add to Basket

بلا صخب ، الى جوار رفيقته تيريزا ، داخل بيت صغير ، تحوطه حديقة اكبر منه قليلا ، وتضم شجرة ارز لبنانية الاصل ، عمرها قرنان ونصف من الزمان ، وفوق هذه الشجرة العملاقة ، ذات الطابع الاثرى التاريخى ، تغرد مئات العصافير مبتهجة ، فى سرور بالغ على التأكيد ، لان رب البيت يقدم لها شهريا ما وزنه ثلاث مائة كيلو جرام من الحبوب .

وداخل البيت عادى ، وليس على جدرانه اية لوحة فنية ، رغم ان صاحبه يملك عددا منها لكبار الفنانين ، ولكنه نقلها مع التحف الاخرى التى يملكها الى المخزن ، فى الطابق الاعلى ، لانه يراها زائدة ، وليس فى حاجة اليها ، فقد شبع منها تاملا وتمثلا ، ويكفى ان يفتح عينيه لكى يراها ويستوعبها ، حتى لو لم تكن هناك على الجدران ، ولا يوجد فى بيته كتاب واحد له ، او يتصل بشخصه ، فكل كتبه ، ومعها مؤلفاته ، مخطوطة او مطبوعة ، او مترجمة ، نقلها الى جامعة ليبج فى مسقط راسه .

وفى هذا البيت الصغير اشتغل اكثر من ذى قبل ، وابدع كتابه الضخم ، المتعدد الاجزاء ، والاكثر اهمية فى تفسير حياته ومجتمعه وعصره ، من كل ماكتب .

● الحب المحرم :

رزق سيمنون بابن واحد من زوجته الاولى ، وابنين وبنت من زوجته الثانية ، وحملت البنت اسم مارى ، ثم اضافت الى اسمها كلمة « جو » لقبا ، وهو الحرف الاول من اسم ابيها « جورج » تيمنا وحبا ، فاصبحت تدعى مارى جو ..

وقد امضت الفتاة اعواما قلقة ، رغم رقتها وجمالها وذكائها ، ورفاهية الحياة التى تعيشها ، وبعد انتحارها هبت العواصف قوية حول اسرتها ومست اخلاق امها وشرف ابيها على السواء .

Add to Basket

كانت مارى جو الأبنة الوحيدة لابيها ، فدللها الى اقصى حد ممكن ، وحقق لها كل رغباتها وما تحلم به : أرادت أن تكون رسامة - فأرسلها الى أستاذ رسم ، واحبت ان تتعلم الرقص الكلاسى فجاء لها بأستاذ متخصص فيه ، وأقام لها صالة العاب خاصة بها ، ورغبت فى أن تتعلم الرقص الحديث الصاخب فكان لها ما ارادت ، وقبل كل شىء أرادت أن تكتب فكتبت ، ونشر لها جانبا من رسائلها اليه .

وأثمرت هذه الرعاية ، فكانت مارى كاتبة مسرحية ، ومخرجة ، وموسيقية ، وشاعره ، ومؤلفة اغانى .

كانت تقيم وحدها فى شقة فى ممر الليدو ، المتفرع من شارع الشانزيه ، وكلاهما ـ الشارع والممر من اشهر معالم باريس ، ففى مدخل الممر يقع ملهى الليدو المشهور عالميا ، والممر نفسه مزدحم دائما بجماهير من الطبقة البرجوازية ، فرنسية أو قادمة من بقية أنحاء العالم ، ففيه ارقى البارات والمطاعم ، واغلى المتاجر واكثرها اناقة ، وهو غارق دائما فى الاعلانات الكهربية العاشية ، للمنشآت السياحية وأماكن اللهو الليلية ، ورغم أن الممر معد للمتعة والبهجة ، ومهبط الخليون من تبعات الحياة ، فالناس فيه يتدافعون ، وقد ارتسم على وجوهم قلق غريب ، يحار المرء فى مصدره وتفسير دوافعه .. فهم عجلون دائما ، كما لو كان يسرعون وراء الحياة ليرتشفوها حتى الثمالة ، مخالفة أن تفلت من بين أيديهم قبل أن ينالوا منها مايريدون .

فى ٢٠ مايو ١٩٧٨ تلقى جورج سيمنون مكالمة هاتفية من ابنه المقيم فى باريس مؤداها أن اخته مارى جو قد انتحرت فى شقتها : اشترت مسدسا ورصاصا ، وتناولت قبل ان تصعد الى بيتها شيئا من « الكرواسان » فى أحد بارات الممر ، وعندما وصلت الى شقتها اغلقت الباب عليها ، وأطلقت الرصاص على نفسها ،

Add to Basket

ولها من العمر خمسة وعشرون عاما .

يقول سيمنون معلقا على هذا فى الجزء الأخير من « أماليه »

« أغلب الذين يقررون أن ينتحروا قتلا بالسلاح النارى يطلقون الرصاص على أنفسهم فى الصدغ أو الفم ، ومعلوماتهم جيدة عن مكان القلب بالدقة ، وهم فى مثل هذه الحالة لايحتاجون لغير رصاصة واحدة ، ومن بين هذه الطرق الثلاث يختار واحدة يموت بها ، تاركا وراءه رسالة فى أغلب الأحوال .

وفى اليوم نفسه تلقى الاب جثمان ابنته الوحيدة فى صندوق ، وعجلا أحرقه وسحق رماده ، ونثره فى تربة الحديقة ، حيث الشمس مشرقة ، والعصافير مغردة ، وذلك عملا بوصيتها ، وفيما بعد ، كتب الأب فى ذكرياته :

« نحن نراك من باب الشرفة ، ونستطيع أن نتحدث اليك ، ونعرف أنك تحررت ، وأنك أخيرا بلا تعاسات ، ولن تتعرضى لخوف أن تجدى نفسك فى مكان مغلق كما تقولين » .

وتوقع كثيرون أن تثير عملية الاحراق هذه موجة من الاحتجاج والغضب ، ولكن سيمنون كان يدرك واعيا ان مكانته كاتبا سوف تعصمه من النقد اللاذع ، وتحول دون ان يمسه امتهان أو أذى .

وقد خلفت مارى وراءها أكواما من الوثائق المؤثرة :

مئات من الصور ومن الكراسات امتلأت صفحاتها بخواطرها وتأملاتها ، وكثيرا من الكتب قرأتها وعلقت عليها فى هوامشها ، وكثيرا من الشرائط المسجلة بصوتها نفسه ، تقص مأساتها فى صراعها اليائس ، صراع ضد من ؟ لم يقل عنه أحد شيئا ، وفقدت التقدم ضد عدوها الداخلى ، واسمته « مدام تعاسة » وبانتحارها هربت الى ماتسميه الصفاء الخالد .

وخلال ايام اخذ سيمنون يقرأ الكراسات والرسائل ، ويستمع

Add to Basket

الى الشرائط حيث تتحدث مارى ، او تغنى رفقة عودها ، ويمضى فى ذكرياتها وذكرياته معها ساعات وساعات ، ثم ينهى جلسته موشوشا :

« كانت جميلة » !

وكان نثر رمادها فى حديقة بيته فى لوزان وراء قراره النهائى والقاطع الا يتركه ابدا ، ومنذ تلك اللحظة ظل فيه ولم يغادره ابدا ، وقرر أن تكون نهايته كنهايتها حين يجىء اليوم الموعود ، وأن ينثر رماد جثمانه فى الحديقة أيضا ، ليختلط برماد جثمان ابنته ، وبتربة الحديقة ، فقد كان آخر جملة لابنته ، فى آخر شريط لها جملة تقول : لن أذهب بعيدا .

من قتل ابنته ، ودفع بها الى هذه النهاية التعسة الأليمة ؟

ربما كانت معرفة هذا السر مفتاح مأساة الاب نفسها ، فقد تفجرت قضية هذه الفتاة الجميلة المثقفة بعد قليل ، وجعلت منها الصحافة الأوربية مادة تحتل منها أحيانا الصفحات الأولى ، وبخاصة الصحف التى تعيش على الاثارة .. لقد المح الأب يوما الى أن زوجته دنيس كانت على علاقة شاذة مع ابنتهما ، ولكنه لم يخجل فى الوقت نفسه أن يشير أيضا فى عبارات غامضة إلى أنه كان لها معه نفس الموقف . وقد رفض أن يرد على أسئلة الصحفيين الذين طالبوه مزيدا من التفاصيل وأكتفى بأن يقول : إن ابنته كانت قلقة ، وانها كانت تطلب حبا محرما .

ولا أود أن أفيض فى تفصيلات هذه القضية الشائكة ، ولها سوابق عند الشاعرين الانجليزيين اللورد بايرون ووردزورث ، كلاهما مع أخته ، وسأكتفى بفقرة من مقال بول جراى ، الناقد الأدبى لمجلة « تايم » الامريكية ، فى ١٨ يونيه ١٩٨٤ ، فقد وضع القضية فى حجمها الطبيعى ، دون تجوز أو مبالغة أو أطناب أو

Add to Basket

قصور ، يقول :

« ربما ماكان ينبغى أن يكون لمثل هذا الرجل ابنة ، إن سيمنون يومىء إلى أن زوجته دنيس كانت تمارس بعض الأفعال الجنسية مع ابنتهما مارى جو ، حين كانت هذه فى السابعة عشرة من عمرها ، وعندما نشر هذا الكتاب الذى تضمن هذه الالماحة فى فرنسا رفعت دنيس دعوى قضائية ناجحة لحذف فقرتين وردتا فى هذا الكتاب وتتناولان هذا الاتهام بوضوح ، ومهما تكن حقائق هذه القضية المتشابكة والمؤسفة ، فإن سيمنون نفسه يستعرض بفخر مشاعر مارى جو الجنسية نحوه ، وراقصها على انغام « قاعة تينسى » للرقص ، حيث استقر به المقام ورفاقه ، وكتب لها رسائل عاطفية حارة حين كانت فى الثانية عشرة من عمرها يقول فى إحداها :

« عمت مساء ، عمت مساء ياحبى الرقيق واللذيذ » !

ثم يضيف الى رسالته الملحوظة التالية :

« أرجو أن تشاركى امك الرائعة كل ماقلته لك هنا ، حيث هو موجه اليها ايضا ، واعرف انك لاتغارين منها » .

وكانت مارى جو تضع عصابة زواج حول شعرها ، كان الاب قد اشتراها لها حين كانت فى الثامنة ، وهى التى اكتشفت علاقة سيمنون ابيها بتيريز الخادمة الايطالية لامها . وعندما انتحرت مارى جو أوصت ان يبعثر رمادها فى الحديقة حيث تطل الحجرة التى كان أبوها وتيريزا يلتقيان فيها . وكتب سيمنون :

« أما وأنك هنا ، وقد عدت إلى بيتك الحقيقى ، فإن الكون كله تغير فى عينى ، وأحس أننى منذ الآن فصاعدا لن تستبد بى الافكار السوداء الحزينة عنك . لقد التأم شملنا أخيرا وإلى الابد » .

Add to Basket

ولما كان سيمنون والدا يحس بالشكل ، فإنه كان فى أمس الحاجة الى عزاء قد يجده ، غير أنه حين مضى يناجى مارى جو وكيف أن انتحارها أصبح وجبة صحفية ، (نشرت صحيفة فرانس سوار عنها مقالة فى الصفحة الأولى فى يوم الجمعة بعنوان كبير) ، يسيطر على المرء احساس بأنه يستعرض فيما يكتب إحدى مدائحه لنفسه ولشهرته .. إن مؤلفه « ذكريات حميمة » لايحكى قصة مشاعر حساسة رقيقة لرجل نحو أبنائه ، كما يحاول سيمنون أن يجادل فى شراسة دون يأس ، وانما هو كتاب تاريخ زمنى لحب الذات ، وهو شهادة رائعة ، ومقززة ، لذات ، أو نفس عنيدة .

● هوايات مختلفة :

وفى خطر مواز للكتابة عمل سيمنون فى كل الاشياء المادية : حدادا وبناء وبحارا ، وحصل على شهادة قبطان مرفأين ، وجرب أن يكون فلاحا ، وأن يملك مزرعة فيها ١٥٠ بقرة ، و ٥٠٠ بطة ، ويعرف كيف يحلب الابقار ، ويحصد القمح ويحرثه ويتعهد الخيل والأمهار ، والديوك البيضاء ، واقتنى فى حديقة بيته نمرا وذئبا جاء بهما من آسيا الصغرى وأعطاه طبيب بيطرى شهادة كاذبة ، مقابل مبلغ من المال ، بأنهما كلبان من فصيلة ذئبية ، وعندما وصل إلى مرسيليا قدم الشهادة للفحص ، وعرف الموظف بأنه ظل يعمل فى « سيرك » عشرين عاما ، وأنه يعرف هذا النوع من الكلاب جيدا ، ولم يصدقه الموظف ، ولم يكذبه أيضا ، وتركهما يمران .

وكان مصابا بمرض السير نائما ، ويمكن أن تجده ليلا فى الشارع ، على بعد مائتى أو ثلاث مائة متر قرب بيته ، ولهذا السبب يمر بأزمتين أو ثلاث أسبوعيا ، وقد نصح الطبيب زوجته بأن تضع المكاتب إلى جوار النوافذ فى غرفة نومه ، ومع الزمن تخلص من

Add to Basket

هذا المرض ولم يعد يخرج إلا مرة واحدة فى الشهر ، واصبح ذلك من النادر جدا ، ولكن تيريزا رفيقة حياته هى التى بدأت تعانى من مرض السير وهى نائمة .

ومن عادته حين يكتب أن تكون إلى جوار الآلة الكاتبة زجاجة من النبيذ الفرنسى الفاخر ، ويستهلك منه زجاجة يوميا ، ويرى ذلك ضرورة ، ولكنه لايسكر أبدا ، ولا شأن لهذا بإبداعه ، فحين كتب روايات المفتش مجريه ، والروايات الأخرى ، فى اول حياته ، لم يكن قد تعود شرب النبيذ بعد ، وهو يشرب القهوة قليلا ، والشاى كثيرا ، يشرب منه لترا كاملا خلال فترة مابعد الظهر ، وتقول عنه زوجته الثانية دنيس إنه يكتب والويسكى إلى جانبه ، ولكنه نفى هذا القول ، وأنها لم تره أبدا يكتب ، ولكن من الحق ايضا أنه يشرب من خمس الى ست زجاجات من الشمبانيا فى الأسبوع ، فإذا انتهى من كتابة الرواية توقف .

ومن هواياته المفضلة كثيرا المشى ، حتى لو كان فوق ظهر زورق أو سفينة ، ولا تقتصر نزهاته اليومية ماشيا على مرة أو مرتين فى اليوم ، وكل رواية من رواياته يبدأها بعد نزهة طويلة يقوم بها وحيدا ، لان ذلك ، فيما يرى ، يهيئه داخليا للابداع ، وخلال المشى يتمثل الشخصيات التى سوف يضمنها روايته ، وكذلك انطباعاته عن الآخرين .

● **النهاية :**

فى سبتمبر من هذا العام مات سيمنون فى صمت وهدوء ، وفى منزله فى لوزان ، وفى عام ١٩٧٨ كتب بمناسبة عيد ميلاده الخامس والسبعين : لا أحد يستطيع أن يتنبأ بموتى ، ولا حتى أسرتى ، وسوف أموت فى هدوء ، وسوف أختار فقط لون المرمدة التى سوف يحرق فيها جثمانى : أن يكون برتقاليا ، لاننى أحب هذا

Add to Basket

اللون كثيرا ، ووصيتى دقيقة ، وربما لهذا السبب سوف تغضب الكثيرين ، لقد اردت أن أحمى بعض الورثة من البعض الآخر ، كما أردت حماية أعمالى » .

سيمنون مبدعا

تركنا وراءنا سيمنون الانسان ، وقد وقفنا عند جوانب كثيرة من حياته الشخصية ، وفيها الصالح والطالح ، والمستقيم والمنحرف ، وماهو مباح ، ومالا ترتضيه الشرائع ولا الاخلاق ، ولكن منذ متى كان كبار المبدعين مستقيمين فى أخلاقهم على النحو الذى يرضى الجميع .

ذلك أن من خصائص العبقرية التفرد ، ولا يفصلها عن الجنون إلا خيط رفيع ، وحياة سيمنون مبدعا تقدم مادة وفيرة للنقاد ، وتفتح مجال البحث والحوار واسعا ، أمام أولئك الذين حاولوا منذ أواخر القرن الماضى وفى مطلع هذا القرن أن يبحثوا عما وراء الابداع العظيم من دوافع ، فليس كل العباقرة ، ولا كل الموهبين ، مبدعين .

رد المحدثون من علماء النفس البواعث الفنية الى نزعة التعبير عما فى النفس ، فالانسان مفطور بطبعه إلى التعبير عن أفكاره ، والتخفف من كبتها بين جوانحه ، فإذا جاء تعبيره عنها جميلا ، فى صورة أو لوحة أو قصيدة أو رواية أو قصة ، فهو الفن ، ثم اختلفوا فى تحديد هذه النزعة ، فردها العالم النمساوى فرويد الى الغريزة الجنسية ، وقال إنها العامل الفعال وراء الابداع وتنوعه ورقيه ، واستدل على رأيه بما بين الغريزة الجنسية والنبوغ من علاقة وثيقة فى مجالات الفن المختلفة .

Add to Basket

ورأى أدلر الألمانى أنها غريزة حب الظهور والسيطرة ، فهى التى تحرك النشاط الانسانى بعامة ، والفنى بخاصة ، على حين يرى يونج السويسرى أن العقل الباطن بما ينطوى عليه من عقد نفسية ، يمارس تأثيرا قويا على النزعة الفنية وتوجيهها ، وأوضح هذه العقد ، الرقعة والضعة ، فالأولى تدفع المرء الى الزهر والاعتداد ، واشاعة قدره بين الناس ، والأخرى تحمله على التعويض والتكامل ، وكلاهما يتخذ من الفن مركبا ، وفريق يرى أن غريزة حب الحياة والخلود وراء ابداع الفنان ، فهو يريد أن يرتفع عن النسيان ، وأن يظل اسمه مترددا على الدوام فى سمع الزمان .

ربما كانت نظرية فرويد أقرب النظريات جميعها إلى تفسير نشأة الابداع فى جملته ، ولايضيرها أن الشواهد عليها فى الأدب العربى قليلة ، لأن معرفتنا بهذا الجانب من حياة الشعراء معدومة ، إذ تنقصنا المذكرات الحقيقية والرسائل العاطفية والاعترافات الصادقة ، ولكن الدراسات الواعية للأدباء المحدثين فى العالم الغربى ، وكل شىء هناك بوسع الناقد والباحث معرفته ، وطوع إمكاناته ، تقف فى جانب النظرية ، وترجح دورها الأهم ، ولانعدم بعض الشواهد فى الأدب العربى تدعم هذا الاتجاه ، دون أن يعنى هذا أنها الوحيدة وراء كل ابداع ، فقد تتعاون معها غرائز أخرى ، معروفة أو مجهولة لاتناقضها فى التأثير والاتجاه .

وجد علماء النفس المحدثون ، بعد تتبع دقيق لحياة جمهرة من كبار المبدعين على امتداد تاريخ الانسانية أن كثرة منهم كانت تعانى صراعا عقليا وداخليا مريرا ، نشأ عن قوة شهواتهم الغريزية ، وانحرافها الى مسارب شاذة غير مألوفة ، أو عن مقاومتهم ظروفا غير عادية ومؤلمة ، أو معاناتهم من فقد هذه الغريزة ، فقد كان الفنان الايطالى ميكائيل أنجلو شاذا جنسيا ،

Add to Basket

شغوفا بالذكور ونعرف مثله عن أبى نواس ، والكاتب الفرنسى المعاصر أندريه جيد ، وحوكم بسببها الروائى الانجليزى أوسكار وايلد وقضى عامين فى السجن ، وكذلك كان الشاعر عبد الحميد الديب . وعلى النقيض منهم كان امرؤ القيس ، ونعرف من الروايات المتناثرة أنه كان مفركا ، مطعونا فى رجولته فجاء شعره الغزلى حادا وغير محتشم ، وابداعه قمة وروعة تعويضا عن هذا الكبت . وكان اللورد بايرون الشاعر الانجليزى الشهير ، والمناضل عن الحرية شاذ السلوك منذ كان طفلا ، وحين نشرت مذكراته بعد سنوات من وفاته تبين أنه كان على علاقة عاطفية محرمة مع أخته .

وقد لحظ النقد الانجليزى ـ مثلا ـ أن أفضل قصائد الشاعر ووردزورث كتبها فى فترة قصيرة بالنسبة إلى حياته ، وكانت بدورها قصيرة ، وأن نتاجه الأخير كان متوسطا ، وعندما ألف الناقد هربرت ريد كتابه عن الشاعر رد ازدهاره واحتضاره الى صلته مع أنيت فالون ، وهى صلة نشرت عنها بعض الوثائق أخيرا ، ثم جاء الناقد بيتسون وكتب عن الشاعر دراسة أخرى أزاح فيها الستار عن حقائق بالغة الأهمية ، وأثبت أن أنيت لم يكن لها الدور البالغ الأهمية الذى نسبه إليها هربرت ، وإنما السر الحقيقى يكمن فى أن ووردزورث كان يعشق أخته دوروثى ، وهو ما يفسر لنا بخاصة قصيدته « العشيقة » ولماذا غاضت ينابيع الالهام بعد زواجه .

وكان شعراء الرومانسية يبحثون عن الانحراف والتمرد إذا جاءوا الى الحياة عفاة منه ، فهم يدمنون المخدرات ، ويعاشرون الساقطات ، ويبحثون عن الانحطاط المادى فى ألوانه المتعددة ، ويخرجون على قواعد السلوك المألوفة ، وأظن أن بعضا على الأقل

Add to Basket

ـ من المبدعين العرب ليسوا على مسافة بعيدة من هذه الاتجاهات ..

ومن نافلة القول الاشارة الى أن عظمة الفنانين ، وخلود ابداعهم ، لايعود إلى الصراع الداخلى والغرائز المكبوتة فحسب ، وإنما تعزى أولا إلى استعدادهم الفنى والفطرى ، وإلى مواهبهم ، ومهاراتهم التى اكتسبوها مع الزمن بالممارسة والدربة والثقافة ، ومن ليست لديه الملكة الفنية ، ولم يأخذ بالوسائل المعينة على الاجادة ، لايبدع فنا جيدا ولو فاض داخله بكل العقد والغرائز .

كان سيمنون فى حياته كل ماتحدث عنه علماء النفس ، ونجد فيها الشاهد على كل الاتجاهات ، وبقى أن نشير إلى أن ثلاثتهم الكبار : فرويد ، وأدلر ، ويونج ، كانوا بين من قرأ لهم ، وظل إعجابه بهم على الدوام قويا .

● إنتاج سيمنون :

ظل سيمنون يكتبه على امتداد ثلاثة ارباع قرن تقريبا ، فقد كتب أولى رواياته « عند جسر الأعمدة » وهو فى السابعة عشرة من عمره تقريبا ، وهى رواية ليست مرعبة ، ولكنها محبطة ، وفيها يصف عائلة فى مدينة انفرس البلجيكية ، الوالد صيدلى ، ودخل فى مغامرة مع سيدة وجدها ليلا ، ولم تجد الرواية تشجيعا من أحد ، ومع ذلك واصل الكتابة ، إلى جوار عمله محررا بصحيفة جازيت دى ليج اليومية ، مندوبا فى أقسام الشرطة ، يتابع أخبار الحوادث والجرائم .

وخلال إحدى رحلاته مع زوجته تيجى ، عبر القنوات فى شمال اوربا ، فى مدينة إيمس ، وجد أعمالا فى الجسر المقام على القناة ، وحال ذلك دون مواصلته الرحلة ، فوضع زورقه فى الحوض الجاف ، وواصل عادته فى الكتابة ، وعندما أزعجه ضجيج

Add to Basket

العمال ، وأربك مخيلته ، ابتعد عنهم ، واستأجر زورقا قديما نصف جانح ومليء بالوحل والفيران والماء الآسن ، وأقام فيه ثلاث كبائن صغيرة : واحدة لآلته الكاتبة حيث يكتب والثانية لمتعلقاتهما الشخصية ، والثالثة لزجاجات النبيذ الخاصة به ، وفى هذا القارب ولدت شخصية المفتش مجريه ، واستغرقت كتابة الفصل الأول يوما كاملا ، وبعد خمسة ايام كانت الرواية كاملة ، ثم كتب روايتين أخريين وحملهما إلى ناشر ، فأخذ هامته ، وقرأها كلها ، وبعد يومين قال له :

ـ اسمع ياصغيرى سيمنون ، هذه ليست روايات بوليسية فى الحقيقة ، لأن القارىء يستطيع بعد ثلاثين صفحة أن يعرف المجرم ، ولا توجد فيها قصص حب ، ونهايتها دائما سيئة ، وإذا وافقتك على نشرها فأنت باختصار تحملنا إلى كارثة .

ـ حسنا أرجع لى مخطوطاتها .

ـ لا ، اكتب روايات أخرى من هذا النوع ، وسنرى .

وبدأ يكتب من جديد ، وخلال شهرين فحسب كتب ثمانى عشرة رواية ، وجاء النجاح مباشرة وفوريا ، وأخذت رواياته مبكرا طريقها إلى عديد من اللغات الأوروبية ، وبدأت تتدفق عليها حقوق النشر من كل جانب ، وغيرت حياته كلية ، من صحفى بائس إلى برجوازى صغير .

وظل يكتب بامضاء مستعار من عام ١٩٢٤ إلى ١٩٣٢ ، ويوقع روايات بأسماء مختلفة كريستياك برول ، وجيوم جيت ، وجورج كرمان وأسماء أخرى .

وقد كتب أكثر من ٤٠٠ رواية ، وجزأن من الاستطلاعات الصحفية : بحثا عن الرجل البدائى وفى سبيل اكتشاف فرنسا ، ثم أماليه ، وبلغ مانشر منها عشرون جزءا .

Add to Basket

وهو من أكثر الكتاب قراءة وترجمة فى العالم ، وطبقا لاحصاء اليونسكو فإن رواياته مترجمة لأكثر من مائة لغة ، من بينها كل اللغات المستخدمة فى الاتحاد السوفييتى ، وترجمت له دار الهلال إلى اللغة العربية أكثر من رواية ، وقرأ رواياته ، وطبقا لاحصاء اليونسكو أيضا ، أكثر من ٤٠٠ مليون قارىء .

● طريقة عمله :

يستيقظ فى السادسة صباحا ، يتناول فنجان القهوة وبعدها بنصف ساعة يكون جالسا إلى مكتبه ، ويظل أمامه يعمل حتى السادسة والنصف مساء ، ويتخلل هذا تناول الغداء . وفترة راحة نصف ساعة ، ويكتب مالا يقل عن ثمانين صفحة يوميا .

ولم يكن يتوقف عن الكتابة أبدا ، حتى وهو على ظهر قارب أوزورق أو سفينة ، يتحرك فوق قناة أو نهر أو يعبر المحيط ، ويبعث ماينتهى من كتابته إلى ناشريه بالبريد .

كان الناشرون يبخسونه حقه مؤلفا . فيما يرى ، فحاول أن يعوض هذا بالكتابة السريعة ، حتى انه كتب رواية من عشرة آلاف سطر فى ثلاثة ايام ، وكان يبدع فى الشهر الواحد خمس روايات ، وبهذا استطاع أن يتغلب على مشكلة الدفع القليل ، وأن يرفع من دخله ، وبذلك استطاع وهو فى الرابعة والعشرين من عمره ، أن يملك زورقا بخاريا وسيارة ماركة كريزلر ، وعندما جاءه ناشر عجل ، وعرض عليه مبلغا مضاعفا على أن يكتب له رواية فى ثلاث ليال واربعة أيام ، حجز نفسه فى شرفة تطل على « المولان روج » فى باريس ، وانتهى منها فى الموعد المحدد بلا صعوبة .

وكان يكتب فى كل مكان فى الحجرات الصغيرة حيث تتسرب الحشرات الى اعماق آلة الكتابة ، وفى الغابات الاستوائية حيث يغطى نفسه مضطرا بقماش رقيق ليحمى نفسه من الذباب ...

Add to Basket

وخلال الكتابة ينضح عرقا ، وحوله أستار تحجبه عن الاخرين ، أستار مادية فهو وحده فى مكتبه ، ومعنوية فهو لايفكر فى غير الكتابة ، والكتابة عنده ليست متعة مبهجة ، وإنما هى معاناة قاسية ومؤلمة .

وتقول عنه رفيقته تيريزا أنه يفقد فى كل فصل يكتبه مابين ستمائة إلى ثمانى مائة جرام ، ورغم رواياته العديدة وكثرة ما ألف ، لم يكن يكتب فى يسر وسهولة كما يظن ، وقبل ان يبدأ رواية جديدة ينتابه فجأة هول ورعب ، وبعد ساعتين من العمل ينتابه الغثيان والقىء ومع ذلك فهو يبدأ الكتابة دائما فى الساعة المعتادة ، ويخيل إليه أنه لو توقف عن الكتابة وسط العمل فأن شخوصه تتبخر ، وإبداعه يتوقف .

ويسبق كتابة الرواية بنزهة وحيدا ، وقد تكرر هذه عدة مرات ، وخلال سيرة يفكر فى الفصول والشخوص ، ولا تجىء هذه مرتبة ، لأنه لايرسم لرواياته تصميما مبدئيا على الاطلاق .

وقبل أن يشرع فى كتابة الرواية يعد مظروفا أصفر كبيرا ، يضع فيه اسماء شخوص الرواية وأعمارهم ، وعاداتهم المضحكة والمستهجنة ، وصفات زوجاتهم أو عشيقاتهم ، وحالتهم الصحية وغيرها ثم يضعهم فى مواقف تضطرهم الى أن يذهبوا الى مابعد انفسهم ، وبعد ذلك يتبعهم ، ليعرف ماذا يفعلون ، ويمضى معهم يوما وراء يوم ، ولايعرف أبدا كيف ستنتهى الرواية .

وعندما صعد نجاحه ، وتوالى فوزه ، وارتفع عائده ، قرر أن يخصص عدة ساعات فى يوم معين ، يمضيه فى عدد من المكتبات ، يوقع بخطه واسمه على كتبه لمن يرغب من قرائه والمعجبين به .

Add to Basket

● **التوقف :**

فى ١٩ سبتمبر ١٩٧٢ ، وكان قد بلغ السبعين من عمره ، قرر التوقف عن الكتابة تماما .

كان قد أمضى ٧٠ عاما فى حياة نشطة ومضطربة ، وكل ساعة بلا حركة خلالها كانت تبدو له ضائعة ، واعتبر شيخوخته المرحلة الاكثر سعادة وجدية فى حياته . وفوق مكتبه ظرف أصفر ، مكتوب عليه كلمة « أوسكار » ، وهى عنوان رواية لم يكملها .

لقد شعر بالسعادة عندما توقف عن كتابة الروايات ، فقد أضنى فكره ممسكا بشخوصه تحت إبطه يعيش داخل إهابها ، ويقاسمها مر الحياة وتعاستها وبلغت عدتهم ثلاثة آلاف شخصية ، فى ٤٠٠ رواية !

أى إرهاق !

وقرر بيع بيته الكبير ، وسرح الخدم ، وباع عربته الروز ليس ، وقرر الا يصنع خيالا ، ولم يعد يحمل ورقا ولا أقلاما ، ولايستهدف معرفة غير ذاته نفسها ، فى أعماقها ، واشترى آلة تسجيل ، وبدأ يملى عليها من الذاكرة كل ما براسه فى إيجاز ، كل الذى حدث له ، وهى طريقة يراها أكثر بساطة ومباشرة ، وأشبه ماتكون ، على نحوها ، ببطاقة بريد يكتبها مسافر إلى أسرته أو حبيبته ، وحاول معها أن يفهم الانسان الفرد من خلال نفسه ، بدل أن يبحث عنه فى الآخرين .

ولم يكن قرار التوقف هذا سهلا ، لأنه عمليا عزله عن التفكير فى حب أناس بسطاء جدا ، وبدا له ذلك فى البدء مستحيلا ، وأنه لايمكن أن يدوم غير عدة أيام ، وكان صعبا عليه الا يعمل ، وانتابته غصة أن من لايتعب لايستحق أن يأكل ، ومن لايفكر فهو مجرد

Add to Basket

وجود مادى فارق الحياة . ولكنه أعمل ارادته ، وابتعد عن آلة الكتابة ، وأغرق نفسه فى :

● الأمالى :

كان يجلس إلى المسجل يملى عليه ذكرياته ، وقرر أن تجىء فى واحد وعشرين مجلدا ، وتحمل عنوانا رئيسيا « أمالى » ، وآخر فرعيا : « ذكريات حميمة » ، وفيها قص حياته ، أو جانبا منها ، اذا شئنا الدقة ، فما من أحد مهما بلغت به الصراحة ، وحتى لو كان فى أوربا ، يستطيع أن يعرى نفسه أمام قرائه تماما .

وقد أهدى هذه الأمالى إلى ابنته مارى جو ، ورغم ضخامة الأمالى ، وتعدد مجلداتها ، سلسلة اللغة ، عذبة الاسلوب ، تحمل طابع العفوية ، فقد جلس الى المسجل يتحدث ، وتركه يلتقط ويختزن كل مايقول له ، وروى فيها حياته يوما بعد يوم ، وتضمنت كثيرا من الاسرار والأحداث التى اثرت فى حياته منذ وعى مسترجعا من وراء الوعى كثيرا مما حدث له ، دون أن يعود إلى أية ورقة مسجلة أو وثيقة ، وربما لهذا السبب أسماها « ذكريات »

فيها تشاهد النساء اللائى مررن به فى حياته :

زوجتيه ورفيقته الثالثة ، وعالم عريض من الخدم والسكرتيرات والأعوام ، والأطفال والرجال ، والتاكيد على حاجة الفنان إلى الحب ، والأموال تتدفق عليه بعد الفقر الشديد .

وفيها تلتقى به يغير الحياة من مدينة إلى أخرى ، ومن شعب إلى شعب ، ويستبدل البيوت والعربات ولكنك لاتستطيع فى أية لحظة أن تعرف من هو هذا التائه ، النهم إلى المرأة الشهوانى المتدفق ، الغنى المحدث ، الدقيق المنظم ، يستطيع أن يحدد ساعات عمله وأن يحرص عليها ، حتى يجلس الى الآلة الكاتبة

Add to Basket

ولايفارقها ، ومع ذلك كله ، فإن داخله ، ولحظات ابداعه ، لاتزال سرا غامضا .

إن الغامض يظل على الدوام كذلك .

نعم ، إننا نجد فيها بعض اسراره ، وشيئا من مشاعره المكبوتة ، وبعض مفاتيح حياة هذا الرجل الشيخ ، وقد بدأ يعود إلى ماضيه ذات ليلة ، ليقص علينا جانبا منه ، غير أن ذلك كله لايكفى لأن تعرف من هو تماما ، وكل ما تخرج به من قراءة هذه الذكريات ، أن مشاعره كانت مضطربة بقوة ، ولم تستقر على حال فى أية لحظة من حياته .

وقد ألحق سيمنون بذكرياته هذه مجموعة من النصوص والرسائل والأغانى والكتابات ، من إبداع ابنته مارى جو ، وتشغل الفترة مابين ١٩٦٢ إلى ١٩٧٨ ، وفيها يجد القارىء انفعالات فتاة مراهقة ، تناضل ضد آلامها لتعيش الى جانب رسائله اليها ، حتى بعد انتحارها ، ومناجاته الدائمة لها ، ويدرك القارىء معها أى رعب عاناه سيمنون على طريقته ، بذهاب الابنة التى أحبها ، وهى لاتقرأ بوصفها تكريما لفتاة رحلت شابة ، قبل أوانها ، فى ظروف مأسوية ، وأزاحت المؤلف عن مكانته ، وإنما نحن معها بإزاء بوح عجوز منهك ، يفيض بذكرياته ، ويتكلم بلا توقف ، دون أن يصل بنا الى الحقيقة كاملة ، أو إلى مايقنعنا بالصمت والاكتفاء .

كانت هذه الأمالى أحب إلى سيمنون من كل ما كتب ، ربما لانها فى الأعماق تحركه ، وتذكره بالذى مضى وكان الأجمل فى حياته على التأكيد .

● **المفتش مجريه :**

أبدع سيمنون شخصيته المفتش مجريه ، أعظم المخبرين السريين قاطبة فى القصة البوليسية بعد شرلوك هولمز ، وأصبحت

Add to Basket

الكلمة علما شائعا ومتداولا فى اوربا ، وتقع حدودها وامكاناتها وصفاتها فى ذهن القارىء الاوربى بمجرد أن يسمعها أو تقع عينه عليها ، وقد اكتشف المؤلف هذه الشخصية صدفة وهو فى السابعة عشرة من عمره عام ١٩٢٠ ، ويروى لنا بنفسه كيف اكتشفها :

« اذكر جيدا ذلك اليوم الذى عرفت فيه هذه الشخصية كان صباحا مشمسا ، ودخلت حانة صغيرة على شاطىء نهر إيمس ، وشربت كأسين أو ثلاثة ، وبعد ساعة انتشيت قليلا ، وبدأت الاحظ جمهور الحانة ، وشد انتباهى من بينهم رجل قوى ، بدا لى أنه مفتش شرطة ، وأنه مناسب لرواياتى ، فلما عدت إلى زورقى أضفت إلى هذه الصورة بعض التفاصيل :

بايب ، وقبعة مستديرة ومعطفا ونظارة سوداء .

« وكان يلف داخل الزورق هواء رطب ، ورغم ذلك حررت فى اليوم الأول فصلا كاملا من الراوية وبعد خمسة ايام كنت قد أنهيتها ، ثم كتبت روايتين أخريين ، وذهب بها كلها إلى الناشر ، وقرأها جميعها ، وكان رده : هذه ليست روايات بوليسية ، لأن القارىء يستطيع فى الصفحة الثلاثين أن يعرف الجانى ، ولاتتضمن أية قصة حب ، ونهايتها دائما سيئة ، باختصار : انت تحملنا الى كارثة »

« ثم نسيت الأمر تماما » .

فى عام ١٩٢٩ عاد سيمنون لى رواياته القديمة التى كتبها حول عام ١٩٢٠ ، وقرأها مندهشا ، ووقع فيها من جديد على شخصية مفتش شرطة اسمه مجريه ، فقرر أن يبعثه من جديد . وهكذا بدأ منذ عام ١٩٣١ يكتب سلسلة من الروايات البوليسية تلعب فيها شخصية مفتش الشرطة مجريه الدور الأول ، ولأن الروايات التى

Add to Basket

قام فيها بدور البطولة متعددة فقد أصبح معروفا ، وزاد من معرفة الناس به تقديم سيمنون له ، فهو ملتقط من الواقع ، وليس من صنع الخيال تماما ، كما هو الحال مع أرسين لوبين أو شرلوك هولمز ، أو جيمس بوند .

ويقدم لنا الفلاح كل التفصيلات عنه ، أصله القروى ، والمعاهد التى درس فيها ، ورغبته فى أن يكون شرطيا ، إلى أن انتهى به المطاف فى شرطة البلدية ثم أصبح سكرتيرا لاحدى اداراتها ، وعمل فى كل مناصب فرقة مقاومة الأجرام التى انضم اليه ، ويتجاوز عمله الى تقديم حياته الشخصية ، فيحدثنا عن ظروف زواجه ، ونوع الطباق الذى يدخنه ، وعدد أحذيته ومقهاه المفضل ، وأصدقاء المخلصين .

ويحاول سيمنون أن يثبت فى أذهاننا أن شخصية مجريه مزعجة ، ولكنها ليست كذلك فى الواقع ، وهو يتتبع مبدعه خطوة خطوة ويبقى فى ظله دائما ، دون أن يتدخل فى نشاطاته ، تاركا له الحرية كاملة كى يكتب بقية رواياته بنجاح ، وبعيدا عنه اذا اراد .

ومهما قرأ الانسان باهتمام الروايات الأولى من سلسلة مجريه فسوف يصعب عليه النفاذ الى اعماق العالم الغامض لهذا المفتش السرى ، وقد أصبح رئيس قسم وفيما بعد ضابطا متقاعدا ثم شاخ ، وعاد فيلسوفا هذرا يوزع النصائح ، وعبر الزمن تغيرت أشياء كثيرة ايضا : اختفت من باريس الحافلات ذات الطابقين ، وفاضت الشوارع بالسيارات وأصبحت عربات المترو أكثر اناقة ونظافة وجمالا وتقدمت وسائل تنفيذ الجريمة فى خط بيانى مواز لطرق اكتشافها إن لم تسبق الأولى الثانية ، وأصبح يجذب انسان العصر أكثر أن يعرف داخل الرجل نفسه ، وأن يتعمق أفعاله وما يكمن وراءها من مشاعر وأحاسيس ، اكثر من اهتمامه بغموض

Add to Basket

الجرائم نفسها ، ومحاولة ازاحة الستار عن اسرارها .

وفى الروايات الأخيرة من سلسلة مجريه أصبحت فلسفته تعبر عن حنين برجوازى صغير الى الماضى ومافيه ، دون أن تصنع شيئا يتصل بالحاضر ، وفقط توقظ فينا أسئلة محزنة عن المستقبل .

كان المفتش مجريه يمثل جانبا من عصرنا ، واكتسى واقعية لاسبيل الى انكارها ، ولكن هل هذه الروايات بوليسية حقا ؟ يجيب على هذا السؤال صاحب مكتبة نفدت عنده روايات مجريه وجاء من يسأل عنها ، فلما اعتذر له صاحب المكتبة انتابه قرف شديد ، ولما قدم له غيرها كان جوابه :

ـ إنها بوليسية ، إنها مملة ، ماذا أصنع بها .

والواقع أن سلسلة مجريه أقرب إلى رواية العادات منها إلى الرواية البوليسية ، ولو أن سيمنون أضاف إليها ظلالا اجرامية ، خرجت بها قليلا عن بناء رواية العادات ، وهو اتجاه اكثر عصرية ، ويقترب بها من روايات جراهام جرين وإدجار بو .

ومجريه ليس المفتش الوحيد فى روايات سيمنون البوليسية ، فقد كتب روايات أخرى من هذا النوع لايظهر فيها مفتشه الشهير ، الى جانب الروايات الأدبية أو رواية المغامرات .

لقد عنى سيمنون بالتحليل النفسى لشخوص رواياته البوليسية ، ذوى المشارب الفكرية المختلفة ، والمنازع الاجتماعية المتباينة ، فمنح الرواية البوليسية دما جديدا ، وأضفى عليها قيمة ادبية ، وكسر الجمود الذى انتهت اليه ، لطابع أحداثها المتقارب ، فمزجها بعنصر المغامرات ، والجريمة والحب ، وخرج بها من الدائرة المغلقة التى كانت تتحرك فيها .

ومع الزمن نسى سيمنون مجريه ونشاطه ، وأحداثه ، وأصبح

Add to Basket

بالنسبة له مجرد ذكرى غائمة ، ولم يعد يراه ولا حتى فى التليفزيون .

● ● ●

فى ٣ سبتمبر ١٩٦٦ أقامت بلدية أيمس فى المكان الذى اكتشف فيه سيمنون شخصية مجريه تمثالا تخليدا لذكراه !! ...

● فن سيمنون :

كثيرون من القراء العاديين يرون فى سيمنون مؤلف روايات بوليسية ، وخالق شخصية المفتش مجريه ، وفى الحقيقة لا يمثل الخيال البوليسى الا جانبا من اعماله الروائية ، الى جانب السيرة الذاتية ، والاستطلاعات الصحفية ، وسوف نعنى به هنا روائيا ، وربما كان ما نفيده هنا من بقية اعماله الأخرى ، فى القاء ضوء على ابداعه الروائى ، وهو موقفه الطبقى ، وعلاقته الاسرية ، وتجربته الانسانية بالمعنى الواسع العريق .

كان سيمنون خصب الابداع وفير الانتاج ، ولا يقاربه فى هذا الا قليلون ، وهو فنيا اعلى بكثير مما تتطلبه الرواية البوليسية : حدة نباهة ، وقوة استنباط ، وطرافة نوادر ، وكلها صفات تحدد شخوص رواياته ، وتضعه فى مجال الموازنة مع بلزاك ، ولو ان هناك من يرى فى هذا بعض المبالغة ، ولكن قارىء الرواية البوليسية من الفرنسيين ، والفرنسى بطبعه معجب بلغته ومغرق فى إحساسه بقوميته ، وجد فيه ما يغنيه عن الترجمة من اللغات الأخرى ، ومعه يشعر بأن ادبه ليس دون الآخرين ، ان لم يتفوق عليهم .

طموح ليس له ما يبرره ، فيما اعتقد ان يزعم ناقد او معلق انه

Add to Basket

قادر على ان يتمثل نتاج كاتب له فى عالم الرواية وحدها مايزيد على اربع مائة رواية ، وان يقول فيه كلمة النقد الفاصلة ، وبحسبه ، فيما ارى ، أن يلقى على هذه الاعمال نظرة فاحصة ، تعينه على تحديد تقنيته الفنية ، وسوف يلحظ بسهولة انها لم تعان من تغييرات جوهرية أو عميقة ، وإنما لها نفس المحتوى ، والشخوص والابنية ، وحتى نفس الظروف والمواقف يجدها القارىء ، مع كثير ما كتب المؤلف وطول ما عاش ، ومن هنا فإن اتساع اعماله لا يمثل الا عقبة صغيرة ، فى طريق هذه المحاولة المتواضعة ، ويمكن ربطها فى كثير من الحالات ، وبخاصة النفسية منها ، بتاريخ الكاتب نفسه ، وظروف عيشه ، فهى تتوالى بكثرة ، وتتشابه فى نقاط عديدة ، وتدور غالبا فى :

● نفس المكان ، وهو عاصمة اقليم ما ، فى احدى ضواحيها غالبا ، حيث كل الناس يراقب بعضهم بعضا ، والرأى العام له تأثير قوى .

● نفس الشخوص : الام القوية ، والأب الضعيف ، والزوجة المتحكمة ، والغريب الضائع ، وكل واحد منهم يدرك حالته ، ويحاول ان يحافظ عليها حين تكون ايجابية ، وان يهرب منها ، بلا نتيجة فى اغلب الاحيان ، حين تكون سلبية .

● والظروف نفسها : بناء عائلى مضطرب ، ووضع اجتماعى ضعيف وانقلاب كامل فى محيط الاسرة .

● ولشخوصها المواقف نفسها : البحث عن ترقية ، أو تعويض ، أو تحسين مستوى ، او علاقة تعين ، او اعتداء ، أو اغتصاب ، او تحايل ، وهم دائما يحاولون اظهار قدراتهم فى الاختراع والابتكار والمواجهة .

ورغم ان جورج سيمنون لايهل القول ان رواياته كلها تمثل كتابا

Add to Basket

واحد ، يمكن أن ترد ابداعه الروائى الى ثلاثة انواع :

● الرواية النفسية ، وفيها يلعب العنصر النفسى دورا بالغ الاهمية ، وبلغت القمة برواية «البحث عن الزمن الضائع» ، لمارسيل بروست (١٨٧١ ـ ١٩٢٢) وكان سيمنون من قرائه والمعجبين به ، وفيها تصدر الشخوص والملامح والنماذج عن شىء تعيشه وتراه ، ولكن سيمنون ليس مجرد مقلد ، او سائر على خطى سواه ، ربما لانه ادرك ان هذا الاتجاه فى شكله التقليدى افلس فى أيامنا هذه ، ولذلك اضاف اليه الفكاهة عنصرا مستحدثا وواضحا ، ليجعل الحبكة ، اشد عذوبة ، واكثر انسانية ، متجاوزا الكثير من العادات والتقاليد .

● الرواية البوليسية ، وفى معظمها يكون البطل وهو المفتش مجربة ، وعرضنا لخصائصها من قبل .

● القصص والروايات القصيرة ، وتتحرك فى نطاق المجالين السابقين ، والجانب البوليسى اوضح فيها .

الاحداث غالبا من صنع المؤلف ، ويلعب البطل دورا رئيسيا وسط كوكبة من الشخوص يختلفون مظهرا ومهنا ومكانتة ونفوذا ، وتجىء الرواية النفسية عادة فى لغة عالية ، دقيقة التراكيب ، بعيدة عن المستوى الشعبى ، ثمرة بلاغة برجوازية ، على حين يأتى اسلوبه فى البوليسية متوسطا ، بإرادته طبعا ، لانها موجهة للقاعدة العريضة من جمهور القارئين ، وهو فى هذا المتوسط يستجيب لمبدأين يؤمن بهما ، ويصدر فيهما عن موقف طبقى ، وضرورى لفهم اعماله ، فهو ينتمى ايديولوجيا الى صفرى الطبقة البرجوازية .

ومع ذلك ، فإن انتماء الكاتب الى الوسط البرجوازى الصغير لا يمثل الا احد عاملين اساسيين محددان سير حركته الادبية ، اما

Add to Basket

العامل الثانى ، ولا يقل قيمة ، وان كان اكثر خفاء على القارىء والناقد ايضا ، فهو حياة الكاتب نفسها : عائلية وشخصية .

وفى الروايات كلها نجد مهارة بالغة فى الحبكة والوصف والحوار ، ويمضى بها الكاتب كلها فى عفوية طبيعية سريعة ، تشعر معها دقيقة مثيرة موهجة انها ثمرة تدريب طويل ، ومعاناة حقة ، وعبقرية فذة ، وهى الدعائم التى يقوم عليها اى ابداع عبقرى .

وأبطال سيمنون جميعا ، ماعدا المفتش مجرية ، وحيدون قلقون ، ولا يدرك القارىء بسهولة هل القلق مصدره الوحدة ، أم ان هذه جاءت وليدة ذاك ، لان الكاتب لا يفسر ولا يوضح ولا يخبر ، وكل ما يفعله هو التأكيد على هذا المعنى .

وبين لحظة واخرى يستطيع القارىء الواعى ، الواسع الثقافة ، أن يرد هذا القلق عند هؤلاء الابطال الى جذوره العائلية او الاجتماعية ، أو كلاهما ، فى بيوتهم بين أهليهم او بين جماعة من الناس حيث يعملون ، أو لانهم ليسوا فى مكانهم المناسب ، أو لاحساسهم بانهم مرفوضون من المجتمع ، او لان مزاجهم متوتر ، أو اعصابهم ثائرة ، أو انفاسهم ضيقة ، او عيشهم نكد ، وهم فى كل الحالات غير مندمجين مع الجماعة التى يعيشون فيها ، فهم يعانون ومختنقون ، او قل انهم صورة للمعاناة نفسها .

وهناك صفة اخرى مشتركة بين الذين يتحركون فى روايات سيمنون ، وهو احساسهم بالذل ، ولمواجهة هذا الموقف غير المحتمل فإن الشخصية اما ان تندمج فى المجتمع الذى تعيش فيه ، راضية بوضعها مهما يكن ، وإما ان تلجأ الى مقاطعته ، وفى كلتا الحالتين يصعب عليها ، وفى اعماقها على الأقل ، أن تدع القلق ، وإن تفارق الوحدة ، وقد تلتقى بواحدة من هاتين

Add to Basket

المحاولتين ، وقد تلتقى بهما معا في الرواية الواحدة ، وفى هذه الحالة تبدو الجماعة التى تتحرك الاحداث بينها كأنها مرفأ امان من الخارج ، أما فى داخلها فهى السجن بعينه .

وفى كل رواية نلتقى ببعض الاسئلة التى تثير تفكير القارىء العادى ، وقد لا يجد لها اجابة مرضية ، لكنه سوف يهتم بها ، وقد تكون الاسئلة من جانبه ايضا ، ويظل يبحث لها عن اجابة ، ولهذا يعتبر النقاد الرواية النفسية فى إبداع سيمنون اهم من الرواية البوليسية ، لأن المفتش مجريه فى هذه الأخيرة وهو الذى يوجه الأسئلة الجيدة ، وهوالذى يجيب عليها ايضا .

فى نطاق الرواية البوليسية الغى سيمنون الحبكة المعقدة ، والذكاء الشيطانى ، والهلع والرعب ، والزخرفة اللفظية المبالغ فيها ، والسلاح ، واستعراض القوة ، والمشاهد الهستيرية ، والقضاة الاقطاعيين ، يجلسون الى المائدة ، ويقامرون بمبالغ كبيرة ، واحتفظ فيها بالتعب والروتين ، والمصابيح المضاءة نهارا ، والانفلونزا ، وسكان الضواحى ، والقلق والمقهى ، وعالم المرأة بكل الوانه وطبقاته وطعومه ، ووصف باريس حيث تصطدم بالوحشة والعزلة ، وتلتقى بكل ما تبقى فى عالم الرذيلة والفضيلة ، أو اللهو الجد على السواء .

والى جانب ما أضفاه سيمنون على شخصية مجريه من حيوية ولطف وعرف فى الوقت نفسه كيف يصوغ رواياته فى وضوح لايذهب بغموضها الذى تتطلبه رواية بوليسية ، ويحمل ظلالا شاعرية ، ويذكرنا بأفضل ما قدمته السينما الفرنسية من افلام : مصابيح الشوارع ، صوت عازف على الأوكورديون وحيدا ، الفنادق العتيقة ، صامتة ووقورة ويطل من بنائها نبل حزين ، والمطر المتواصل ، وصورة دقيقة للمناخ الذى تجرى فيه الاحداث

Add to Basket

تبلغ حد الكمال ، وشخصيات غير معتادة فى الرواية البوليسية ، ذات ردود فعل انسانية وعادية وتتسع لكثير من الحيل ، والدسائس كما هو الحال عند كبار الكتاب .

● فى مواجهة النقد :

هذه الخصوبة فى الانتاج ، وهذا التنوع الفنى ، والامتداد الزمانى ، والتعدد المكانى ، جعل اعمال سيمنون تؤلف لوحة متكاملة ، تصور كل المجتمع الفرنسى ، وفرضت اسمه على النقاد المحترفين ، وجعلتهم يضعونه فى مصاف بلزاك او فيكتور هيجو ،رغم ان وفرة الكم لاتعنى ارتفاع النوعية دائما .

ونظرة اجمالية على عالم سيمنون الروائى نجد انواعا لا حصر لها من القضايا والقراء ايضا ، وثار حوله خلاف لا حد له ، ومن اناس من كل الالوان والاجناس والاديان ، بقبوله او رفضه ، وفهمه اوالاعراض عنه ، وما أكثر مدمنى الخمور الذين تخففوا من شرب الكحول بفضل كتاباته ، والمذلولين الذين اتجهوا لمعاونة غيرهم بتاثيره ، وكان يردد دائما : «تستطيع ان تصنع مع أى إنسان ما تشاء ، وحتى تقتله ، ولكن لا تذله . وهذه الرغبة فى فهم الانسان حتى فى سقوطه جعلته يطبق فى مؤلفاته رأى الكاتب الفرنسى اندريه مالرو : «تدين عندما لا تفهم ، اذا فهمت توقفت عن الادانة» . وعند سيمنون ليس هناك مخطئون ، وإنما هناك دائما ضحايا .

ولا تجد فى كتابات سيمنون تاريخا وانما ايقاع الحياة نفسها وقد فهم الحياة فى عصرنا بعمق ، وادرك مساربها ودوربها وخفاياها وبخاصة فى فرنسا ومن هنا جاءت الموازنة بينه وبين بلزاك .

لم يكن محبوبا من الصحفيين ، وكان يبادلهم المشاعر نفسها ، ويرى انهم يضيعون وقته ، فهم لا يسألون عن عمله وادبه بقدر ما

Add to Basket

يسألونه عن اعداد «البايب» التى يملكها ، ولونها وتاريخها ، ومن اين اشتراها ، ونوع الطباق الذى يدخنه ، وعدد النساء اللائى عرفهن ، وفى اواخر حياته لم يكن يستجيب لمقابلتهم ، ويؤثر عند الالحاح ان يكون الحوار مكتوبا ، وان يسلم الى سكرتاريته التى تقيم فى بناء مستقل ، ويتعامل معها هاتفيا ، ورقم هاتفه ظل سريا لا يعرفه الا عدد محدود لا يتجاوز اصابع اليد .

ولم يكن محببا الى عالم النقد الفرنسى ، وكان هذا يضيقه بشدة عندما يشبه احد سيمنون ببلزاك او غيره من كبار الكتاب الذين هم من اصل فرنسى موطنا ، واكثر من هذا ربما ـ لانه كان يمهن كثيرا من التقاليد الفرنسية ، وبالتاكيد لانه كان يقف دوما فى الصف المقابل للمسيحية ، رغم ان اسرته فى البداية ـ ربما لعجزها عن الانفاق على تعليمه ـ فكرت فى ان تجعل منه قسيسا ، وكان هوالذى رفض بشدة . وكل ماقاله عن معجم لاروس الشهير ، انه كاتب يكتب على طريقة بلزاك ، وكتب عددا من الروايات البوليسية ، والروايات القصيرة ، وبعض المسرحيات ، وابتدع شخصية المفتش مجرية .

وكتب عنه الناقد بوردا يقول : «إنه يحتل مكانا غير مؤكد فى حقل الأدب الفرنسى .

بينما يرى فيه اخرون شيئا عظيما ، فقال عنه نيميه : إن رواياته تعبق بروائح انسانية طيبة ، وقال عنه اندريه جيد قبيل الحرب العالمية الثانية : «سيمنون روائى عظيم ، ربما كان أعظم روائى ، أو الروائى الاكبر بحق فى الأدب الفرنسى اليوم» وعندما سئل ماذا يقرأ من رواياته اجاب : كلها !

غير انّ كثيرين لا يشاركونه هذا الرأى ، يرون فيما يكتب سيمنون «ادب محطات» اشارة الى انه من لون الروايات التى تكثر فى محطات السكك الحديدية فى اوربا وامريكا ، ويرد سيمنون :

Add to Basket

اعرف هذا ، ولكن هذه المحطات ترحل منها الأميرات ، واللائى يكتبن على الآلة الكاتبة ، وكلهن ، وما بينهن يقرأون رواياتى» .

وفى عام ١٩٧٩ ، بمناسبة مرور خمسين عاما على خلق شخصية المفتش مجريه ، حاولت عدة هيئات ان ترشحه لجائزة نوبل ، ولكنه اعتذر لها ، كما رفض ذلك ثلاث مرات من قبل .

● ولم يكن يعتبر نفسه اديبا ، ويرى ان الروائى والاديب شيئان مختلفان ، ثم يضيف : «انا حرفى صنعته الرواية» ولكنه حرفى عبقرى ورغم قولته هذه فهو اديب بحق ولكنه من اشد رجال القلم تواضعا فى عصرنا ، وعندما قرر التوقف عن كتابة الرواية ذهب الى بلدية لوزان ، ورفع من بطاقته الشخصية مهنة «روائى» ووضع مكانها كلمة «بلا مهنة» ويقول ان تغيير المهنة ليس تواضعا منى ، وإنما مجرد تعبير عن الحقيقة لانى لم أعد اواصل الكتابة ، ولم يعد ثمة سبب لكى احمل صفة روائى فى الوقت الحاضر» .

ومع كل هذا التواضع كان يعرف قدر نفسه ، وتنبأ ردا على الذين كانوا يهونون من أمره غدا بعد موتى ، سوف يطلقون اسمى ، فى كل المدن التى عرفتنى وعشت فيها ، على احد شوارعها الهامة .

والحق ان التقدير العلمى جاء حتى قبل ان يموت .

فقد انشأت جامعة لييج المدينة التى رأى فيها الحياة لاول مرة ، مركزا للدراسات السيمنونية ، يقوم على تشجيع كل الابحاث التى تقوم على تحليل اعماله وتقييمها ، ومتابعة انتشارها وترجمتها ، فى اوربا وما وراء البحار ، والى هذا المركز اهدى سيمنون كل مكتبته ، ما قرأ والف وترجم من اعماله او كتب عنه . ومع موته فإن الحاجز الذى كان يحول دون ان تقال الحقيقة يتهاوى ، وحجاب المعاصرة يتمزق ، ويصبح سيمنون ، انسانا وتاريخا ومبدعا ، ملكا

Add to Basket

للتاريخ وحده ، يقول فيه كلمة الحق بلا ضغينة ولا مجاملة ولا رياء ..

● هذه المراة لى :

تعودت مسارح لندن حين تعرض تمثيلية ذات طابع بوليسى ، وللكتاب الانجليز دور اساسى فى ابداع هذا النوع الادبى وتنميته ، والاقبال عليه ، ان توصى روادها بالا يتحدثوا الى اقربائهم او اصدقائهم او معارضهم عن شىء من مضمون المسرحية حتى لا يفسدوا عليهم بهجتها اذا ما جاءوا لمشاهدتها ، ذلك لأن هذا النوع ، رواية او قصة او مسرحية ، يقوم على دفع القارىء او المشاهد ، الى التفكير والمشاركة فى البحث عن المجرم ، والتنبؤ بالنهاية .

والرواية التى بين ايدينا من خيرة ما كتب سيمنون ، وهى بالقطع ليست رواية بوليسية ، ولو ان الكاتب استخدم تقنيات هذه فى مهارة شديدة ، ففيها تحليل نفسى عميق ، وتوظيف جيد للجنس ، وواقعية دقيقة ، ومن هنا لا يتوقع القارىء منى ، أن اقدم موجزا لها ، أو أن افك له مغاليقها ، حتى لا افسد بهجته مستمتعا بها ، وبحسبى أن اقدم بين يديه بعض تقنيات الكاتب التى تعينه على ان يفهم ويحلل ويقيم ، وان يكون لنفسه رأيا مستقلا .

تقدم الرواية صورة امينة لقطاع من مجتمع برجوازى فى اوربا الغربية ويمكن ان تقع احداثها فى اى مكان من فرنسا ، وانت فيها بازاء مجتمع فاضل حقا ، يعمل وينتج ويفكر ، ويحترم مشاعر الناس وحرياتهم ومعتقداتهم ، ولكنه ليس خاليا من الرذائل ايضا .. فزوجة الطبيب تعشق رجل اعمال شديد الحيوية والنجاح ، والطبيب نفسه لا يتردد فى أن يقتل عشرة من مرضاه اذا كان هذا

Add to Basket

يؤدي الى توسعة مستشفاه أو شراء عربية جديدة اجمل ، وعلى استعداد لان يزور شهادة طبية يؤكد فيها أن زوجة رجل الأعمال التى دست له السم مصابة عقليا حتى تفلت من العقاب ، وان يجعل احد زملائه ينضم اليه فى التقرير ويوقعه معه .

وهناك ـ كما هنا ـ تتم عمليات ارساء المقاولات العامة عن طريق الرشوة ، رشوة المهندسين واعضاء مجلس الادارة ، وعبر الرواية تلتقى بالوان المخدرات منتشرة فى عالم الطبقة العليا ، وبالصلات العاطفية المنحرفة بين السيدات ، وبنساء باردات مجردات من كل رغبة ، ورجال تذلهم لقمة العيش فهم غافلون عن واجباتهم الزوجية ، فيتولاها غيرهم ، وتجد الرجل مشغولا بالعمل ، والمرأة منهكة في البيت ..

ومن شاهد تلك البيئات بعينه لا يرى اية غرابة فى الأحداث والوقائع والسادج او الجاهل وحده من يتصور ان ما يجرى فى الرواية من وحى الخيال لانه من الجمال .

وكثيرون يستطيعون ان يروا الا جديد فى ماذكرنا لانه من الواقع المعاش ، ولكن الروعة تكمن فى طريقة التعبير عنه ، فالكاتب يرعى بمقتضى اللحظة ، ويقدم لك ما يقول فى فصول قصيرة ، وايقاع متوتر ، وحدث متواصل ، فى لغة مركزة ، بعيدا عن الحشو الزائد ، والاسلوب الهابط ، وينقلك انت بنفسك الى مسرح الاحداث فتعيشها بدل ان ينقلها اليك فتقرأها ، ويمسك بك فى مهارة حتى لا تفلت او تنسحب وهى تقنية ضرورية الان فى عصر منافسة الصورة : تليفزيون او سينما او فيديو .

وقد استخدم الكاتب فى الرواية ، بوعى وفن ، وفى عفوية قادرة متمكنة ، تقنية الارتداد والذكريات والاحلام وتيار الوعى (وهذه التقنية الأخيرة استخدمها بطريقة ساذجة) ، واذا كان كل فصل :

يسلمك للذى يليه ، دون ان تمل او يغلب عليك النعاس ، فان كل فصل ايضا يوشك ان يكون قصة مستقلة لها عقدتها وحلها .

وتعرض الرواية كثيرا لقضايا عاطفية دقيقة وحساسة ،ولكن الكاتب،يعبر عنها دون ان يخدش حياء القارىء او يأتى بأى لفظ جارح ، وانما يكتفى دائما بالالماح والايماء .

واخيرا فان الالمام بحياة سيمنون نفسه يعين على فهم الكثير من تقنية واشاراته فى الرواية ، ومن هنا كان الحديث عنه انسانا وفنا ، واذا غمت عليك جوانب من الرواية بعد الانتهاء من قراءتها ، فعد الى قراءة المقدمة من جديد .

الطاهر احمد مكى

شخصيات الرواية

* فرانسوا دونج Francois Donge : رجل أعمال شديد الحيوية ناجح
* فليكس دونج Felix Donge : شقيقه الأصغر وشريكه
* چان دونج Jeanne Donge : زوجة فليكس
* بيبى دونج Bebe Donge : أختها الصغرى وزوجة فرانسوا
* مدام دونفيل Mme D'Onneville : والدة الزوجتين
* چاك Jacques Donge : ابن فرانسوا وبيبى
* كلو Clo : طاهية
* مارت Marthe : وصيفة
* جاليبر Galiber : طبيب
* بينو Pinaud : طبيب
* ليفير Levert : طبيب
* أدونى Adonie : راهبة
* جيفر Giffre : قاضيالتحقيق
* مدام فلامان Mme Flament : سكرتيرة فرانسوا الخاصة
* الاستاذ بونيفاس Mre Boniface : محام

يوم الأحد

فى بعض الاحيان قد تستطيع ذبابة تكاد لا تدركها العين أن تغضن وتعكر سطح بحيرة ساكنة ، بما لا تستطيعه حصاة كبيرة تلقى فيها .

وذلك ماحدث بالضبط بعد ظهر يوم من أيام الآحاد، ذات صيف ، فى مزرعة البلوط ، ومزرعة البلوط هو الاسم الذى أطلقه أصحاب تلك الفيلا على مقرهم الصيفى فى الريف .

وفى أيام الآحاد الاخرى كانت الامور تمضى هناك على وتيرة واحدة ، اللهم الا مرات معدودات اعتبرتها اسرة دونج أياما تاريخية ، مثل ذلك اليوم من أيام الاحد الذى هبت فيه عاصفة من الصواعق فسقطت شجرة بعد قيام الوالدة من تحتها بثلاث دقائق . أو ذلك اليوم الآخر من أيام الاحد الذى نشب فيه الخلاف واشتد بين فرعى الأسرة فدبت النفرة بينهما عدة أشهر .

أما هذا اليوم المعين من أيام الآحاد فيمكن أن نسميه يوم المأساة الكبرى : مع أن ذلك اليوم بدا وانساب هادئا هدوءا أشبه بانسياب جدول من الماء الرقراق على مهاد مستو من الأرض .

ففى نحو الساعة السادسة صباحا استيقظ فرانسوا دونج ، وذلك هو الموعد الذى كان من عادته أن يستيقظ

فيه حين يكون فى الريف ؛ وعلى الأثر غادر حجرة النوم على أطراف أصابعه . وربما لم تسمعه زوجته وهو يغادر الحجرة وان كانت قد سمعته ، فلم يظهر عليها ما يدل على ذلك ، ولو باختلاجة من أهدابها .

وان شئت تاريخ ذلك اليوم بالضبط فهو العشرون من شهر اغسطس . وكانت الشمس فى تلك الساعة قد برزت بقرصها فوق الأفق . أما لون السماء فكان أزرق خفيف الزرقة ، أشبه ما يكون بلون الماء . وكانت الأعشاب والحشائش فى الحديقة مبللة ينتشر منها عبق فواح .

والم فرانسوا بالحمام الملحق بحجرة النوم ، فلم يزد هناك على أن تخلل شعر رأسه بمشط ، ونزل وهو بالمنامة والخف الى المطبخ حيث كانت « كلو » الطاهية فى قميص نومها تصنع القهوة : وما أن رأته كلو العجوز حتى كشفت عن فخذيها الشاحبتين فاذا فيهما بقع وبثور حمراء ، وقالت :

ـ لقد أكلتنى لدغات البعوض مرة أخرى هذه الليلة!

فطيب خاطرها بعبارة موجزة ، ومن عينيه أطلت نظرته الساخرة المعهودة ، ومضى يشرب قهوته ثم خرج الى الحديقة . حيث مكث بها الى الساعة العاشرة . فماذا صنع طيلة ذلك الوقت بالضبط ؟

انه فى الواقع لم يصنع شيئا مذكورا : ألم بحديقة الخضراوات فلاحظ أن شجيرات الطماطم بحاجة الى أعواد من البوص تتعلق بها . ووضع فى ذهنه أن يخاطب فى ذلك الشأن البستانى العجوز « بابو » عندما يحضر فى الصباح . وأضاف الى هذه الملاحظة ملاحظات أخرى تتعلق بالباذلاء وغيرها من النباتات التى تحفل بها حديقته .

Add to Basket

وبعد قليل انفتحت المصاريع الخشبية فى احـدى حجرات الطابق العلوى واطل من النافذة راس طفل . وكان هذا الطفل هو ابنه « جاك » .

وحيا فرانسوا ابنه الوحيد بتلويح يده . فلوح الطفل بيده لأبيه .

وكان جاك مرتديا ازار الاستحمام الابيض ، ويبدو وجهه تحت هالة شعره الغزير نحيلا ، وقد أحاطت بعينيه دائرتان قاتمتان .

وكان أنف جاك طويلا مدببا كانف ابيه . وكان الشبه بين الأنفين صارخا . وبسبب هذا التشابه وحده لم يكن فى وسع فرانسوا ان ينكره ، أما من جميع النواحى الأخرى فكان الفتى شبيها بامه ، ولاسيما فى تلك الدقة والرهافة التى توحى اليك انك امام دمية من الخزف الهش ، بل ان زرقة عينيه كانت تلك الزرقة المعهودة فى الخزف !

وكانت « مارت » الوصيفة بسبيل الباس الصبى ثيابه بعد الحمام .

والحق ان الحجرات كانت تغمرها اشعة الشمس، والبيت فى جملته بهيج . بل انه يعتبر حقا البيت الريفى النموذجى كما يحلم به سكان المدن . فلم يعد هناك أى اثر لذلك الكوخ القروى الذى كان المرحلة الابتدائية فى انشاء هذا المصيف العائلى ، بل قام بناء رشـيق له شرفات واسعة ، ويحف به بستان من اشجار الفاكهة يغدو فى ايام الربيع فتنة للانف والعين . ومن وراء ذلك غابة خاصة صغيرة يخترقها جدول نمير رقراق .

واخذت النواقيس تدق . وكان البرج المربع العالى

القائم فوق كنيسة قرية أوراني يبدو بقمته من فوق أشجار التفاح فى الحديقة . اما من وراء سور الاعشاب فهناك طريق صخرية صاعدة . وفوق صخور ذلك الطريق سمع فرانسوا وقع اقدام جيرانه الريفيين وهم فى سبيلهم لحضور القداس . بل كان يستطيع أن يسمع ايضا انفاس الفلاحات وهن يلهثن صاعدات . وكان من الطريف حقا أن تسمع الناس من غير ان تراهم . فاذا حديثهم ثرثرة متصلة الى ان يصلوا الى بداية السفح . ثم تتباعد الكلمات حين يشرعون فى الصعود . حتى اذا صاروا فى منتصف المرتفع توقفوا فى وسط عباراتهم ليستأنفوا الكلام حينما يبلغون قمة التل

وظل فرانسوا يتتبع هذه الظاهرة برهة ، ثم ذهب الى ملعب التنس واخذ يعده اعداد الهاوى الخبير . ولعل الساعة كانت قد بلغت التاسعة عندما شاهد ابنه قادما نحوه فى ملعب التنس ، حاملا فى احدى يديه قصبة صيد السمك . وقال لابيه :

ـ اربط لى الشص جيدا

وكان جاك فى الثامنة من عمره ؛ ذا ساقين طويلتين نحيفتين ، وله فم صغير ملىء احمر كأنه برعم وردة . اليق مايكون بثغور الفتيات

وسأله ابوه :

ـ هل استيقظت امك ؟

ـ لا ادرى ؟

واسرع الصبى يجرى فى اتجاه الجدول فى الغابة الصغيرة . ولم يكن قد وفق الى صيد شىء من قبل . ولكن الحظ حالفه فى هذا اليوم وبالذات من أيام الأحد ،

Add to Basket

فتعلقت بشصه سمكة صغيرة . وخاف الصبى ان يلمسها بيده . ووقف مبهور الأنفاس كالمرتاع ثم صاح :

ـ أبى ! سمكة ! ... تعال بسرعة !

واسرع فرانسوا دونج لنجدة ابنه ، وبعد قليل عاد متجها نحو (الصوبة) . واذا بالطباخة كلو قادمة من الطرف الآخر للممر وهى فى حالة من الانفعال شديدة . فسالها فرانسوا :

ـ ماذا بك ياكلو ؟

فقالت بلهجة تفيض اسى :

ـ لقد نسيت عيش الغراب هذه المرة ايضا . ولا يمكننى ان اطهو الدجاج على الطريقة الجبلية بدون عيش الغراب .

وكان هذا النسيان يتكرر كل يوم احد ! لان فرانسوا كان يقوم بالتسويق لكل أيام الاسبوع فى صباح السبت . فيكدس فى سيارته جميع الاشياء المطلوب منه أن يشتريها. وذلك من قوائم يعطيها اياه كل فرد فى البيت . وكانت اهمها قائمة كلو الطباخة ، التى تكتب دائما بخط كبير على قصاصة من الورق البنى الذى يستعمل فى التغليف .

وسالها فرانسوا :

ـ أواثقة أنت انك ذكرت عيش الغراب فى قائمتك

ـ كل الثقة

ـ ولم تجديه فى السيارة

فهزت الطاهية العجوز راسها وكتفيها بصبر نافد ، وقالت :

ـ ولماذا اتيت اليك ان كنت قد وجدته فى السيارة ! فذهب فرانسوا ليرتدى ثيابه . واصاغ السمع قليلا

Add to Basket

عند باب حجرة النوم . فلم يسمع اقل صوت يدل على يقظة زوجته .

ولم يكن فرانسوا دونج طويل القامة . وكان نحيفا بيد انه صلب العود ، له ملامح رقيقة وانف طويل مدبب لا يختلط بغيره من الانوف ، فهو اشبه بالعلامة المميزة . وله عينان ساخرتان النظرة . حتى ان زوجته بيبى دونج كثيرا ما كانت تقول له :

ــ لا تنظر الى على هذا النحو كانك تسخر من العالم اجمع !

وبيبى معناها الطفلة ! وياله من اسم عجيب ! وهاقد مضت عشر سنوات على زواجهما ولم يتغير هذا الاسم بعد . ولكن يقال له دائما ، كلما اعترض على غرابة الاسم :

ــ وماذا فى ذلك ؟ بهذا الاسم يناديها الجميع منذ ولادتها .

واخرج فرانسوا السيارة من الجراج على عجل . ثم نزل ليفتح البوابة البيضاء ، وخرج بالسيارة ثم اغلقها مرة ثانية ، وليس فى الذهاب والعودة كبير مشقة ، فالمدينة لاتبعد أكثر من خمسة عشر كيلو مترا .

وكانت الطريق مزدحمة بالدراجات . ولا سيما فى منطقة جبل النسيم العليل ، حيث يضطر الناس الى حمل دراجاتهم عند الصعود . وعلى حفافى الخمائل سلال صغيرة ولفافات بها أطعمة مما يحمله المتنزهون فى الخلاء .

ولما رأى فرانسوا ذلك المنظر ، تذكر وهو الذى يحرز رخصة للصيد انه عندما يأتى الشتاء ويبدأ موسم الصيد ،

Add to Basket

سيكون حطام الزجاجات متناثرا بين الشجر يتعثر به الصيادون .

واخترق القنطرة ودخل شـــارع المدينة الرئيسى المستقيم وكان شبه مقفر لأن معظم الحوانيت مغلقـة . فكان ذلك الاغلاق سببا فى استلفات النظر الى لافتـــات الحوانيت . ولفتت نظر فرانسوا على الخصـــوص تلك البيبة الكبيرة الحمراء البارزة فوق حانوت بائع الطباق . ثم رأس الخنزير المعلق فوق حانوت الجزار .

وكان محل البقالة الكبير من المحلات القليلة المفتوحة يوم الاحد . وفغمت انف فرانسوا الطويل رائحة الجبن. ودخل فرانسوا وطلب كمية من عيش الغراب . ثم لفتت نظره اكياس الحلوى ، فقال :

ـ واعطنى ايضا كيسا صغيرا من الحلوى لابنى

ـ وكيف حال السيد جاك ؟ لا شك فى ان هواء الريف قد أجدى عليه كثيرا . وكيف حال مدام دونج ؟ الا تضجر من الاقامة وحدها ؟

وهذا الكيس من الحلوى بالذات نسى فرانسوا امره بعد أن وضعه فى جيبه فلم يعطه لابنه فى ذلك اليـوم . ولم يكتشفه فرانسوا الا عنـدما راى بدلته هـذه مرة أخرى بعد ثلاثة اسابيع . وكانت الحلوى قد تلاصـــقت وتماسكت بفعل الحرارة . ثلاثة اسابيع ...

كلمة يقولها الناس عادة من غير أن يلقوا اليها بالا . كان يقولوا :

ـ بعد ثلاثة اسابيع

او يقولوا :

Add to Basket

ـ منذ ثلاثة أسابيع

ولا يتصورون أى تغير يمكن أن تحدثه فى حياتهم برمتها ثلاثة أسابيع ، أو ربما بضع ساعات من الزمن !

فمن ذا الذى كان يتصور أن بيبى دونج ستكون بعد ثلاثة أسابيع نزيلة السجن ! ... وهى المراة الرقيقة الجميلة الرشيقة ، الى غاية ماتوصف به امراة من الجمال والرقة والرشاقة !

وبحسبك أن تعلم ان الناس لم يكن من عادتهم أن يتحدثوا عنها كمايتحدثون عن سائر النساء أو كمايتحدثون مثلا عن اختها جان . فحينما يقول اى انسان :

ـ لقد قابلت جان فى حانوت صانعة القبعات بالأمس

يقول ذلك بحالة طبيعية للغاية وبسيطة للغاية . لانه قابل جان دونج، المراة القصيرة المليئة القد الكثيرة الحركة، زوجة فليكس دونج . فالشقيقتان تزوجتا الشقيقين . وليست مقابلة جان حدثا فى حياة اى شخص

أما اذا قال انسان :

ـ لقد ذهبت الى مزرعة البلوط ورايت بيبى دونج..

فهذا الانسان سيشعر انه لم يتم عبارته بهذا القول . بل يجب أن يضيف الى ذلك الخبر تعليقا من قبيل :

ـ يالها من امراة رائعة !

ـ انها جميلة جدا كالعهد بها !

ـ ما من امراة فى العالم تعرف كيف تختار ثيابها مثل بيبى دونج !

بيبى دونج ! لوحة فنية ! كائن اثيرى خرج لتوه من

Add to Basket

بين صفحات ديوان شعر ! كائن لا يوحى بان له جسدا !
فمن ذا الذى يتصور بيبى دونج نزيلة فى سجن ؟!

ولكن لنترك حوادث المستقبل القريب للمستقبل القريب . ولنعد الى فرانسوا وهو يقود سيارته آفلا الى بيته الريفى ...

لقد فكر فى ان يتريث قليلا عند المقهى الكبير ليشرب كاسا بمثابة فاتح للشهية . ولكنه قاوم هذه الرغبة حتى لا يتأخر على كلو الطاهية التى تنتظر عيش الغراب لاعداد الغداء .

وفيما هو يصعد التل ادرك سيارة شقيقه فليكس وتجاوزها . وكان فليكس امام عجلة القيادة . والى جانبه جلست مدام دونفيل البدينة الوقور حماة الشقيقين ، وقد ارتدت ثوبا كثير التهاويل كعادتها . وفى المقعد الخلفى جلست زوجته جان مع طفليها . وكان برتران القصير النحيف البالغ من العمر عشر سنوات مطلا من نافذة السيارة فلوح لعمه بيده

ووصلت السيارتان ، الواحدة وراء الاخرى الى بوابة الحديقة البيضاء . وعندئذ قالت الحماة :

ـ لا ادرى ماذا جنيت يافرانسوا من تجاوزنا ؟

ولم تنتظر جوابا ، بل نظرت الى النوافذ المفتوحة فى الطابق العلوى وقالت على الفور :

ـ هل استيقظت بيبى ؟

ولكن الثلاثة انتظروا ببيبى دونج نصف ساعة كاملا ،

Add to Basket

لان بيبى قضت كعادتها ساعتين فى التجميل . ثم اقبلت كالحلم الجميل :

ـ مرحبا ياماه . مرحبا يا فليكس . هل نسيت هذه المرة ايضا يافرانسوا ؟

ـ عيش الغراب

ـ آه ! ارجو ان يكون الغداء قد تم اعداده ... يا مارت ! هل اعددت المائدة فى الشرفة ؟ ترى اين ذهب جاك ؟ .. يا مارت ! أين جاك من فضلك ؟

ـ لم أره ياسيدتى

وعندئذ قال فرانسوا :

ـ لابد انه عند الجدول . كاد يجن هذا الصباح فرحا لانه تمكن اخيرا من صيد سمكة

ـ ولو بلل قدميه بالماء للزم الفراش اسبوعين !
واقبلت مارى تقول :

ـ هاقد اقبل السيد جاك ... والمائدة تم اعدادها

ونهض الجميع للغداء ، وكانت حرارة الشمس على أشدها والجراد قد لزم اطراف العشب .

Add to Basket

الفصل الثانى :

لا أدرى

وعلى المائدة . علام دار الحديث بين هؤلاء ؟

دار اولا وقبل كل شىء حول الدكتور جاليبر ، وحول مستشفاه الخاص الجديد الذى شرع فى بنائه بالمدينة . وبالطبع كانت السيدة دونفيل هى التى فتحت موضوع الدكتور جاليبر . ولم يفتها بالطبع ايضا ان تسترق نظرة الى ابنتها بيبى دونج ثم الى فرانسوا . ولم يكن بالبعيد عليها البتة ان تقول لابنتها :

ـ خيبك الله ! الا تعلمين ان زوجك بينه وبين مدام جاليبر الحسناء علاقة غرامية وطيدة ؟ ان المدينة كلها لا حديث لها الا عن هذا الموضوع ... بل ان البعض يقولون ان الدكتور جاليبر على علم تام بذلك ، ولكنه يؤثر ان يغمض عينيه .

ومهما يكن من شىء فان بيبى دونج لم تظهر اى انفعال او تاثر عندما ذكر اسم جاليبر . بل استمرت تاكل باناقة تامة وقد ارتفع خنصرها فى الهواء بعض الشىء . والحقيقة ان يديها كانتا آيتين من آيات الفن البديعة .

اتراها كانت مصغية لما يقال ؟ أم تراها كانت تفكر فى شىء آخر ، ان كل ما قالته على كل حال خلال الوجبة بطولها هو :

Add to Basket

ـ كل كما يليق . واحترز يا جاك ...

فهاهنا شقيقان وشقيقتان شاء القدر أن يجعل منهم ازواجا بعضهم لبعض . وكان من عادة الناس فى المدينة اذا ذكروهم أن يقولوا :

ـ الاخوة دونج ...

فليس من المهم أى الشقيقين قابل الواحد منهم ، ومع ايهما عقد الصفقة . فليس من فارق بين الشقيقين فى السن سوى عامين . وكان الناظر اليهما يحسبهما لفرط الشبه بينهما توامين . فذلك الانف المشهور ، انف آل دونج المميز ، يبرز من وجه فليكس . أما قامتهما ووزنهما فواحد . فكان فى استطاعة كل منهما أن يرتدى ثياب اخيه . كان ذوقهما فى الالوان واحدا . ومعظم حللهما من درجات متفاوتة من اللون الرمادى .

بل ان التشابه بينهما يتجاوز السحنة الى الذهن . فلم تكن بهما حاجة الى التفاهم بالكلام . وحين يلتقيان كاليوم على المائدة بعد فراق اسبوع كامل قضاه فرانسوا بالمصيف وقضاه فليكس بالمصنع ، فكانهما لم يفترقا ساعة .

وقد لا يكون فليكس صلب العود مثل اخيه فرانسوا . ولكن فرانسوا هو صاحب الكلمة العليا . وذلك امر يشعر به المرء فى كل شىء . بيد أن فليكس هو الذى تزوج جان المتميزة بين الشقيقتين بالنشاط الجم والحيوية الدافقة ، واستقلال الراى والسلوك . فهى تشعل سيجارة فى فترة ما فيما بين طبقين من الطعام ، متجاهلة نظرة التقريع التى ترميها بها امها ، حتى تضطر الام الى أن تقول :

Add to Basket

ـ ياله من مثل يحتذيه أطفالك !
فقالت جان بغير مبالاة :

ـ اتظنين برتران لا يدخن سرا ؟ لقد ضبطته أول أمس يختلس السجائر من صندوقي !

فتدخل برتران في الحديث قائلا :

ـ ذلك لاني لو كنت طلبت منك سيجارة لما اعطيتنيها !
فنظرت جان الى أمها نظرة ذات مغزى وقالت :
ـ ها قد سمعت بأذنيك !

ولم يسع مدام دونفيل سوى أن تتنهد .
وليس بين مدام دونفيل وبين الشقيقين دونج اية صفة مشتركة . فهي قضت الجانب الاكبر من حياتها في الاستانة . حيث كان زوجها مديرا لترسانة الميناء . وفي تلك المدينة العريقة كانت تعيش في مجتمع مثقف معظم اعضائه من الدبلوماسيين ومن اليهم . ولذا تراها الآن مرتدية ثوبا يصلح للاستقبال في احدى السفارات .
وانتهت وجبة الغداء ، فقالت بيبي :
ـ يامارت ! قدمي القهوة والاشربة في الحديقة .
وقال برتران :

ـ اتلعب التنس معي يا جاك ؟ أنستطيع ان نلعب معا، يا خالتي ؟

ـ بعد أن يتم هضم غذائه . تنزها بالسير في الغابة أولا ، ثم ان الجو حار للغاية .

وكانت مائدة الحديقة قائمة في ظل احدى المظلات التي تستخدم للشواطىء ، ذات لون برتقالي ، واسعة المحيط. أما الحصباء من تحتها فحمراء داكنة . وعلى مسافة

قريبة منها صف من الكراسى الطويلة ، شبيه بما يكون على ظهور السفن .

وتخيرت جان لنفسها مقعدا تمددت فيه بطولها . واشعلت سيجارة اخرى اخذت تنفث دخانها نحو السماء التى اخذ لونها الآن يضرب الى اللون البنفسجى . وقالت لزوجها :

ـ صبّ لى كاسا من البراندى يا فليكس

فقد كان من عادتها ان تشرب كاسين او ثلاثا بعد الغداء

وكانت بيبى تصب اقداح القهوة ، وتقدم لكل شخص منهم فنجانه . فاخذت تسأل :

ـ قطعة واحدة من السكر يا امى ؟ ... وانت يا فرانسوا ؟ قطعتين ؟ اتريد شيئا من الكونياك يا فليكس؟

فكان هذا اليوم من ايام الاحد كسائر ايام الاحد فى ذلك الموضع . وقد سكن الهواء وارتفع طنين الذباب . وتقاذف الجميع عبارات متراخية فى كسل . وكانت مدام دونفيل تتحدث عن الاسهم التى توظف فيها ثروتها . وبعد قليل قالت بيبى دونج :

ـ واين الاطفال ؟ .... يامارت ! اذهبى وانظرى ماذا يصنعون .

وبين الحين والحين ، كانت تبرز من فوق سور الحشائش رءوس راكبى الدراجات . اما السائرون على الاقدام فلم يكن يظهر منهم شىء ، وان كانت اصواتهم تصل الى السمع .

وبعد ذلك كان الشقيقان يسيران جنبا الى جنب نحو

Add to Basket

ملعب التنس ، ويظل صوت تقاذف الكرات بالمضارب متواترا الى نهاية فترة بعد الظهر .

كان ذلك هو الذى يحدث كل يوم من ايام الآحاد . ولكن الأمر لم يسر على ذلك النهج فى هذا اليوم بالذات . فبعد اقل من ساعة على اثر الانتهاء من تناول القهوة ، نهض فرانسوا واتجه نحو البيت . وسالته بيبى دونج من غير أن تلتفت الى ناحيته :

ـ الى اين انت ذاهب ؟

ـ سأعود حالا

ولما اقترب من البيت بدا يسرع فى السير . وسمع الموجودون فى الحديقة على اثر ذلك صوت ابواب تصفق، وضجة صادرة من حجرة الحمام . فتساءلت مدام دونفيل :

ـ هل اصيب بعسر هضم ؟

فاجابت بيبى قائلة :

ـ لا ادرى ... انه فى العادة يستطيع ان يهضم اى شىء .

وسكتت الأم هنيهة ، ثم قالت :

ـ خيل الى أن وجهه كان شاحبا منذ قليل .

فقالت الزوجة مرة اخرى :

ـ مع أنه لم يأكل شيئا عسر الهضم على مائدة الغداء.

وكان الاطفال يجرون غادين رائحين . وبعد دقائق قليلة انقضت فى صمت ، سمعوا فجأة فرانسوا ينادى من البيت قائلا :

ـ فليكس !

وكان صوته ذا رنة غريبة جدا ، حتى ان فليكس وثب

Add to Basket

واقفا على قدميه واخذ يجرى نحو البيت . وجعلت مدام دونفيل تدقق النظر الى جهة النوافذ المفتوحة ، ثم قالت :

ـ ليت شعرى ما الذى حدث له ؟

، فغمغمت ابنتها جان قائلة ، وهى مستلقية على المقعد الطويل غارقة فى تأمل الدخان المتصاعد من سيجارتها :

ـ وما الذى يمكن أن يصيبه ؟

فقطبت مدام دونفيل حاجبيها وقالت :

ـ اظن ان هناك من يتكلم فى التليفون !.

وكانت الأصوات تصل فى سكون الحديقة الى السيدات بوضوح . فسمعن صوت دوران يد التليفون ثم صوت فليكس :

ـ آلو ... انا اعلم أن المكتب مغلق اليوم ولكن هذه اشارة اسعاف ! اعطنى من فضلك رقم ١ فى أورانى . نعم الدكتور بينو . اتظن انه خرج لصيد السمك ؟ ... اطلبه فى هذا الرقم على كل حال ... اهذا هو الدكتور بينو ؟ ... هنا مزرعة البلوط .. اتقول انه وصل فى هذه اللحظة ؟ ... قل له يحضر الى هنا باسرع ما يمكن .. هذا لا يهم ! ... نعم حالة عاجلة جدا .. كلا كلا.. قل له يأتى كما هو على الفور !

وتبادلت السيدات الثلاث النظرات ... ثم قالت مدام دونفيل وهى تلتفت نحو ابنتهـا بيبى دونج فى استغراب :

ـ الا تنوين الذهاب لترى ماذا حدث ؟

فنهضت بيبى ومشت نحو البيت . ولم يطل غيابها

Add to Basket

اكثر من بضع دقائق . فلما عادت كانت هادئة جدا كالمعتاد ، وقالت :

ـ لقد اغلقا على انفسهما باب الحمام وهما بداخله معا . ولم يسمحا لى بالدخول . ولكن فليكس يؤكد ان الأمر غير خطر .

فرفعت أمها حاجبيها ، وقالت :

ـ الامر خطر او غير خطر ... ولكن ما هو ؟

ـ لست ادرى .

ووصل الدكتور بينو راكبا دراجته ومرتديا ثوبا رماديا مما يستخدم لصيد السمك . وابصرت السيدات الثلاث على وجهه حين مر بهن علائم الدهشة ، اذ رآهن مستلقيات فى استرخاء وهدوء تحت مظلة الحديقة البرتقالية اللون ، وسالهن :

ـ هل وقع حادث لأحد ؟

فاجابت بيبى قائلة بهدوء :

ـ لا ادرى يا دكتور ... فزوجى فى الحمام ... ساريك الطريق .

وانفرج باب الحمام بقدر ما سمح للطبيب بالمرور ثم اغلق دون بيبى دونج التى ظلت واقفة لا تتحرك فى البهو .

وفى الحديقة استبد القلق بمدام دونفيل فنهضت وجعلت تتمشى جيئة وذهابا تحت الشمس الشديدة الوطأة وهى تقول :

ـ لا ادرى ما الذى حدا بالاثنين الى تكتم كل شىء عنا ... وبيبى ؟ ماذا تصنع بيبى ... انها هى الاخرى لم تعد الينا !.

Add to Basket

فقالت جان لأمها :
ـ هدئى روعك يا امى . والا أصابتك نوبة من نوباتك المعهودة . وما جدوى الانفعال ؟.

وانفتح باب الحمام مرة اخرى وخرج منه الطبيب بدون سترته ، وقد شمر كمى قميصه ، وأمر بيبى دونج التى رآها واقفة فى عتمة البهو قائلا :
ـ أعطينى ماء فى درجة الغليان .
ـ كم تريد منه ؟
ـ أكثر ما يمكن .

فنزلت بيبى الى المطبخ . وكانت مرتدية ثوبا قطنيا لونه اخضر فاتح ، وشعرها ذهبى باهت . وقالت للطاهية بكل هدوء :
ـ كلو ! ... احملى الى الحمام من فضلك جانبا من الماء الساخن فى درجة الغليان .
فقالت الطاهية بلهفة :
ـ لقد رأيت الطبيب داخلا ... هل السيد دونج مريض ؟.

وبهدوء تام أجابتها بيبى قائلة :
ـ لا أدرى يا كلو ... خذى على كل حال الى الطبيب شيئا من الماء الساخن فى درجة الغليان .
ـ كم لترا ؟.

ـ اوه . قال انه يريد اكبر كمية ممكنة .
ولما صعدت الطاهية «بسطلين» كبيرين من الماء الساخن انفرج باب الحمام قليلا ولكن لم يسمح لها بالدخول . بيد انها لمحت ساقين وقدمين على الارض فى حالة تشنج . فكأنما رأت جثة !

Add to Basket

وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر . والاطفال ليس لديهم علم بما جرى . فاندفعوا الى ملعب التنس ، وكان صوت جاك يتردد فى البيت وهو يصيح فى وجه جان بنت عمه فى الملعب :

ـ انت لا تعرفين كيف تلعبين ... انت صغيرة جدا .

وكانت جان فى السادسة من عمرها . فانفجرت باكية واسرعت نحو امها التى قالت لها كالعادة :

ـ هذه مسالتك انت يا عزيزتى ... ولا شأن لى بها.

وكانت مدام دونفيل واقفة تحملق نحو نوافذ الحمام ، فقالت لها جان :

ـ هل لك ان تناوليني سجائرى يا أماه ؟.

وفى غير هذا الظرف كانت مدام دونفيل حرية ان تستنكر من ابنتها أن تسترخى فى مقعد هزاز ، ثم تطلب من امها أن تحضر لها سجائرها من فوق المنضدة . اما هذه المرة فتناولت جان السجائر من غير تفكير . لانها كانت ترقب بيبى التى ظهرت خارجة من الباب وقادمة نحوهما فى هدوئها المعتاد .

ـ ما الخبر ؟.

ـ لا ادرى ... كانوا اثنين فاصبحوا ثلاثة يقلقون على انفسهم باب الحمام باصرار .

فرفعت أمها حاجبيها ، وسألتها :

ـ الا ترين ذلك غريبا ؟

وعندئذ فقط اظهرت بيبى دونج شيئا يسيرا من توتر الحدة :

ـ وماذا تنتظرين منى ان اقول يا أماه ؟ انا لا ادرى شيئا أكثر مما تعلمينه انت عن هذا الموضوع .

Add to Basket

فاستدارت جان وهى مستلقية فوق مقعدها محاولة ان ترى شقيقتها بوضوح . اذ ادهشها ان تسمع بيبى ترفع صوتها . ولكن اختها كانت قد اختفت عن نظرها . واطلقت مدام دونفيل زفرة عميقة تدل على ضيقها الشديد .

ترى لماذا يغلقون الآن نوافذ الحمام ايضا ؟ وكان فليكس هو الذى اغلقها . وعندئذ سمع صوت فليكس يقول :

ـ أريد ذلك يا دكتور .

وفى ذلك الوقت اخذت نواقيس الكنيسة تدق ايذانا بصلاة بعد الظهر .

Add to Basket

الهام

انه الآن يعلم انه لم يكن مخطئا . ولم يكن الأمر يعدو بطبيعة الحال بارقة من بوارق الالهام . بيد أن ذلك الالهام كان أرسخ عنده وأيقن من كل دليل . ولكنه لم يعر ذلك الالهام التفاتا فى حينه ، بل ظل جالسا فى مقعده الهزاز ، وعيناه نصف مغلقتين ، وقد تراخى جسده بفعل حرارة الغذاء وحرارة الشمس معا !.

وان وضوح تذكره لهذا الالهام لعجيب حقا . كانه راى بعين الغيب خطر تلك اللحظة فسجل المنظر فى واعيته تسجيلا فوتوغرافيا .

وكانت حماته جالسة بجواره ، عن يساره ، متجهة اليه نصف اتجاه . وكان انعكاس الضوء على الحصباء الداكنة يلقى وهجا دافئا على كل شىء حوله . فلم يكن وشاحها القطنى يبدو له وهو غير ناظر اليه الا كبقعة بنفسجية اللون على شبكية عينيه . وعلى قيد خطوة كانت جان مستلقية فى ثوبها الابيض فوق مقعدها الطويل .

وكانت المنضدة بمظلتها البرتقالية ذات الطنف فى مواجهة فرانسوا تماما على مسافة يسيرة . وكانت مارت قد فرغت لتوها من وضع خوان القهوة فوق المنضدة ، واتجهت عائدة الى مبنى البيت . ووقع قدميها الثقيل يصل خافتا الى أذنيه .

Add to Basket

اما بيبى فكانت واقفة امام المائدة وظهرها اليهم . وكانت هي هدف نظرات فرانسوا بعينيه الصغيرتين اللتين تفيضان سخرية وتهكما ، حتى أن بعض الناس كانوا يرون فيها قسوة شديدة . فهل كانت هذه حال نظرته دوما لأنه حريص على ان يرى الاشياء كما هي ؟.

هاهو مثلا يرى زوجته وظهرها الي جهته بحيث يخفى جسمها كل ما يوجد أمامها على المائدة . ولكنها بما يبدو من وضع ذراعها كانت تصب القهوة . وما من شك فى أنها كانت رشيقة جدا فى تلك اللحظة ، ووجها الساهم غير المكترث يبدو فى أحسن حالاته بفضل ذلك الثوب الاخضر الشاحب الذى صنعته خير دور الازياء فى باريس .

والحق أن فرانسوا لم يكن موجها كل انظاره الى زوجته فى تلك اللحظة الا بسبب ذلك الثوب . وهو يذكر جيدا انه لاحظ على الثوب شفافية واضحة . « كان الضوء ساقطا عليها . فقد استطاع ان يرى فى وضوح ساقيها الطويلتين النحيلتين وفخذيها ، واستطاع كذلك أن يحدد بالضبط اين تنتهى ملابسها الداخلية !

واسلمته رشاقة ساقيها الطويلتين الى التفكير فى ذلك النوع الفاخر الشفاف من الجوارب ، الذى تصر بيبى دائما على ارتدائه ، حتى وهى مقيمة فى الريف .

وزاد وميض السخرية فى عينيه حين تذكر أن تلك المرأة التى لم تتح لها الفرصة منذ اشهر ، واشهر أن تنضو ثيابها أمام رجل ، تحرص دائما على ارتداء ثياب داخلية أرق وأبذخ واشهى مما ترتديه اية غانية كل همها اغواء الرجال واثارتهم .

ولا يخطرن ببال احد انه اداز تلك الامور فى ذهنه

Add to Basket

وهو ينظر الى زوجته متسخطا عليها أو متبرما بها بل هى ملاحظات عملية لابد أن تخطر لرجل عملى الذهن مثل فرانسوا .

بل ان واجب الانصاف يقتضى أن نقول عنه انه لم يكن شحيحا عليها ضنينا بما تنفقه على ثيابها .

وكان الخاطر الثانى الذى نجم عن تفكيره فى رشاقتها وأناقة ثيابها ، كما نجم عن منظر جسمها شبه العارى ، هو أن بيبى قد تكون رشيقة ، وقد تكون ذات وجه جميل ، بيد أن جسمها كان خاليا من التماسك والحيوية ، ولون بشرتها الناصع ليس اللون الذى يستثير الرغبة أن تنطلق منه الدعوة .

وسمعها تسأل امها :

ـ قطعة واحدة من السكر ياأمى ؟

كلا ! بل قبل هذا قالت شيئا كان ينبغى أن يثير انتباهه . فان جان التى كانت مستلقية على مقعدها الطويل ، وقد اشعلت لتوها سيجارة تتأرجح فى فمها ، كانت قد قالت لزوجها :

ـ صب لى كأسا من البرانديا فليكس .

ولم يكن فى وسع فرانسوا أن يرى فيلكس ، لأنه كان جالسا خلفه ، وكان فليكس خليقا أن ينهض الى المائدة ليلبى طلبها . لولا أن بيبى ابتدرته قائلة بلهفة بادية :

ـ لا تتجشم القيام يافليكس . سأصب لها أنا

ولكن لماذا قالت ذلك ؟ انها كانت تفضل دائما أن يخدمها الآخرون لا أن تقوم هى بخدمتهم . فلماذا هذا

Add to Basket

الحرص على الخدمة ؟ ربما لكيلا يرى احد ما كان يجرى فوق المنضدة ! ولما كانت المقاعد مصفوفة فى اتجاه واحد ، لم يكن أمام بيبى احد يمكن أن يرى ما تصنع!

وبعد هذا بقليل القت سؤالها :

ـ قطعة واحدة من السكر يا امى !

ولم يجفل فرانسوا . ولم يقطب حاجبيه . بل كان اثر السؤال لديه اهون من ذلك بكثير ، لا يكاد يدرك . وكل ماهناك ان عينيه تحركتا حركة جانبية يسيرة ، حركة كافية لرؤية مدام دونفيل . وانه ليذكر انهـا فتحت فمها قليلا ، شأن من يريد ان يقول شيئا ثم عدل عن رايه بعد ان راى المسالة لا تستحق عناء التعليق .

ولو كانت مدام دونفيل نطقت بما همت ان تقوله ، لقالت :

ـ الا تعلمين حتى الآن ، وقد سلخت فى بنوتى سبعة وعشرين عاما كاملا ، كم قطعة من السكر اضع فى فنجان قهوتى ؟!

انها لم تقل ذلك طبعا . ولكن ذلك كان اخلق بهـا ان تقوله والارجح ان بيبى كانت قد ابتدات بصب القهوة فى الفناجين الخمسة . وكان من عادتهم فى ضيعة البلوط أن يستخدموا قطعا من السكر كل قطعة منهـا ملفوفة فى ورقة .

ولعل هذا هو السبب فى ان بيبى استشعرت الحاجة الى ان تقول شيئا كى تملأ فراغ الصمت ، ولكى تشتت الاذهان وتبدد الانتباه ، كما يبدد الحاوى الانتباه بضجته فلا يفطن المشاهدون الى حركات يديه .

Add to Basket

اتراها كانت تشعر بارتجاف يديها بعض الشيء ؟ وهل جف حلقها ؟

ان فرانسوا الذى كان يراها من الخلف فقط لم يستطع أن يصل الى جواب عن هذين السؤالين . وعلى أى الأحوال ، لابد أن راحة تلك اليد الجميلة التى كانت موضع اعجاب الجميع ، كانت تكمن فيها قطعة صغيرة من الورق فيها مسحوق ابيض .

وسمعها تسأله هو ايضا :

ـ وانت يافرانسوا ؟ .. قطعتين ؟

وكانت تعلم بغير أدنى شك كم قطعة من السكر تعود زوجها أن يضعها فى فنجان القهوة ، ولكن وجودهم وراء ظهرها بحيث لا تراهم فرض عليها أن تجد وسيلة تتعرف بها الى أوضاعهم وتطمئن الى اثباتهم فى اماكنهم . فكان لابد لها أن تجعلهم يتكلمون وهى تنزع الورق عن قطعتى السكر وتصب المسحوق الأبيض من الورقة الصغيرة المختفية فى راحة يدها الصغيرة الجميلة ..

والدليل على صدق هذا الاستنتاج أنها لم توجه ذلك السؤال بعينه الى شقيقتها أو الى فليكس !

ودليل اقوى من هذا، انها نسيت أن تصب البراندى لشقيقتها جان بعد أن حالت بين فليكس وبين القيام بذلك .

والآن .. مع ان فرانسوا لم يكن قد القى باله الى تلك الأمور الدقيقة ابان حدوثها بوجه خاص ، أو ادرك مغزاها ، الا انه كان فى الواقع يشعر شعورا غامضا بوجود شيء غير طبيعى ، شيء مريب بل يبعث على التوجس !

Add to Basket

فلماذا لم يفعل شيئا ؟

ربما لأن الناس دائما يقفون جامدين كالمنومين امام الخطر من ذلك القبيل الخفي .

بل انه بعد ان شرب قهوته ولحظ لها طعمـــا غير مألوف ، اوشك ان يشير الى ذلك . فلماذا احجم عن تلك الاشارة ؟

السبب فى ذلك انه تعود ان يحتفظ بافكاره لنفسه. والسبب كذلك انه لم يكن بين الحاضرين انسان — فيما عدا شقيقه فليكس — يشعر بأدنى ارتباط بينه وبينه أو ايسر قسط مشترك .

ولم يكن من دأبه ان يخدع نفسه ، فهو رجل عملى بالسليقة ، مجرد من الخيال . كان يعلم تمام العلم ان ضيعة البلوط ليست له دارا بمعنى الكلمة ، ولم تكن اكثر من حجرة فى فندق . فليس هاهنا من شىء على شاكلته سوى انف ابنه .. بل ان هذا الابن نفسه غير عليه الزمن الأخير وهو يتجنب اباه ما استطاع . فلما شرب القهوة ولم يقل شيئا ، جلست بيبى آخر الأمر وهى تشعر ولاشك بالارتياح ..

لم يظهر فى الجو اى شىء يوحى بجريمة التسميم ، بل كانت الجلسة هى الجلسة العائلية المألوفة بعد ظهر أى يوم من أيام الأحد فى فصل الصيف بكل ما توحيه من فراغ وخلو بال وفترات من الصمت طويلة لا يشتجر فيها الحديث ، بل ينتهز كل شخص منهم فرصـــة السكون وهو مستلق باسترخاء فوق مقعده الطويل كى يحلق فى افقه الخاص ، ويقوم برحـــلة مســـتقلة على سجيته . وهكذا يكون أول من يفتح فمه بعد فترة صمت

Add to Basket

هو أول عائد من رحلته الذهنية .

ولم يكن فرانسوا مستسلما للنعاس ، ولكنه في الوقت نفسه لم يكن متنبها كل التنبه عندما بدأ يشعر بتوعك غامض راح يتتبع مسراه في جسمه وهو يتعجب . وظن أول الأمر أنه أصيب بعسر هضم . ورجح أن ذلك من القهوة التي شربها وفكر في النهوض ليتقيأ .

وضايقه أن يضطر الى ذلك . وحاول أن يؤجل المسألة .. واذا بنوع من القشعريرة ينتاب قفاه . وفي الوقت نفسه بدأت العروق في عارضيه وصدغيه تنبض نبضا شديدا .

ولم يكن قد جرب المرض في حياته من قبل ، فخطر له أنه ربما مكث في الشمس مدة أطول مما ينبغي ذلك الصباح وهو يمهد أرض ملعب التنس بالعجلة الثقيلة . ولكن الأمر زاد سوءا . وخيل اليه لأول مرة في حياته أنه يشعر شعورا متميزا بالنخاع الشوكي داخل عموده الفقري .

وكان بطبيعته يكره أن يزعجه أحد . ولم يحدث منه أنه أزعج في يوم من الأيام أحدا من الناس بمحض ارادته . فنهض من غير أن يقول شيئا . وكل خوفه الا يتمكن من الوصول الى البيت في الوقت المناسب .

وفي طريقه فوق الممر المشمس المرصوف بالحصباء الحمراء الداكنة ، خيل اليه أن ذلك اللون الأحمر قد ازداد حدة من ذي قبل وبدأت الفكرة تلح على ذهنه ، فجعل يقول لنفسه :

— ولكن هذا لا يمكن أن يكون

Add to Basket

فقد عرف بوضوح أعراض التسمم بالزرنيخ . فقد كان كيماليا وبحكم مهنته لا يمكن أن يخطىء فى ذلك .

وفى قاعة المائدة كاد يصطدم بمارت التى كانت ترفع أطباق الغداء . ولم يحدثها ، ولكنه فطن الى دهشتها عندما مر بها مسرعا وكان لابد له أن يزيد من سرعته حتى يصل فى الوقت المناسب . وفى حجرة الحمام أفلح أن يضع اصبعه فى حلقه قبل فوات الأوان . وتقيأ قليلا وشعر بحرقان . واستمر يتقيأ على الأرض غير مبال . حتى اذا روعه الشعور بالتخشب والبرودة صاح من النافذة :

ـ فليكس !

فقد خشى أن يموت . وكانت آلامه حادة . ولم يكن جاهلا بالمجهود الفظيع الذى يجب عليه أن يبذله للتخلص من السم . ومع ذلك لم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير فى نقطة واحدة :

ـ أذن ، هى قد فعلتها حقا !

ولم تكن بيبى قد توعدت من قبل بقتله اطلاقا . ولم يكن حدث نفسه فى يوم من الايام أنها يمكن أن تدس له السم . ومع ذلك لم يدهشه أن يكتشف ذلك . بل ولم يشعر بالاستنكار . والواقع أنه لم يحس فى تلك اللحظة بشعور عدائى تجاه زوجته !

وجاءه فليكس على عجل يسأله بلهفة :

ـ ماذا جرى يافرانسوا ؟

ـ اطلب الطبيب بالتليفون ... أسرع !

يالفليكس المسكين ! انه كان يفضل أن يعانى ذلك الألم فى نفسه على أن يرى شقيقه يعانيه !

ولما عاد فليكس من التليفون سأله فرانسوا وهو يتقيأ عنوة :

ـ اهو قادم ؟ .. حسنا ! .. اذهب الآن واحضر من الثلاجة الكهربائية شيئا من اللبن .. لا تقل اى شيء للخدم !

ووجد متسعا فى خواطره للشعور بالرضى عن نفسه! أليس قديرا على التفكير فى كل شيء فى أحرج الظروف ؟ أليس يحسن التصرف من غير أن يطيش صوابه ؟

كل هذا والنسوة الثلاث مازلن جالسات فى الخارج حول المظلة ذات اللون البرتقالى ، فوق الحصـــــباء الحمراء !

وماذا كانت بيبى تظن وهى تنظر بتطلع الى النوافذ المفتوحة ؟

هذه هى الحقيقة اذن .. بلّ هكذا كانت منذ سنوات .. ولم يخطر ببال أحد اى ريب ، حتى هو ! .. لقد خدع هو ايضا كالآخرين .

ولكن ليس صحيحا انه لم ير شيئا يريبه . ألم يشعر فى بعض الأحيان بشيء من قبيل النذير الخفى ، كذلك النذير الذى جاءه عند سؤالها عن عدد قطع السكر التى تضعها فى فنجانه وفنجان أمها ؟ .. ولكنه فضل على الدوام الا يفهم .

ولم يفقد وعيه تماما ، ولكن كلّ شيء غدا مختلطا فى وجدانه : الطبيب ، وفليكس المرتاع ، والقيء ، وبرودة الأرض المبلطة . وذراعاه اللتان تتحركان بانتظام ـ بفعل فاعل ـ الى أعلى وأسفل وخيل اليه أن هذا الفـاعل جاثم فوق صدره .

Add to Basket

وسمع الطبيب يقول لفليكس :

ـ لقد تسمم شقيقك بجرعة قوية جدا من الزرنيخ. وانه لسعيد الحظ جداً ان هذه الجرعة من الزرنيخ .

فقاطعه فليكس صائحا :

ـ هذا مستحيل ! ومن عساه يفعل ذلك ؟ .. لقد قضينا اليوم بطوله فيما بيننا .. ولم يكن معنا احد من الغرباء .

وخيل الى فرانسوا انه افلح فى رسم ابتسامة ساخرة على شفتيه وسمع بعد ذلك الطبيب يقول :

ـ يجب ان نطلب سيارة اسعاف بالتليفون .. ماهو المستشفى الخاص الذى تفضلونه ؟

واحس بتقلصات شنيعة . وبالنيران تخترق احشاءه .. ومع ذلك تماسك واستجمع قوته ليعارض قائلا :

ـ لا اريد مستشفى خاصا

وكان ذلك طبعـــا لاجل خاطر الدكتور جاليبر ، فمستشفاه الخاص لم يتم بناؤه بعد ، وان ذهب فرانسوا الى مستشفى آخر سيشعر جاليبر بالاستياء والاهانة ، لأن فرانسوا سيضع نفسه عندئذ بين يدى احد منافسى جاليبر ، وسوف يسىء الناس فى المدينة فهم ذلك .

ـ اذهبوا بى الى مستشفى البلدية ... مستشفى القديس يوحنا

وعندئذ سمع مرة اخرى صوت الطبيب ، الـذى كان من اولئك النفر المتمسكين بأهداب اللمة ، يقول :

ـ فى هذه الحالة يجب ان ابلغ السلطات المختصـة

بالحادث .. واليوم يوم الأحد ، والنيابة ودون القضاء مغلقة .. ولكنى أعرف وكيل النائب ، وسوف اطلبه تليفونيا وأتدبر الأمر .. أن رقمه هو ١٨٨٠ فيما أظن ... فهل لك ياسيد دونج أن تطلب لى من فضلك رقم ١٨٨٠ ؟

وعندئذ قال فرانسوا ، أو خيل اليه انه قال :

ـ كلا يادكتور ! انى أعترض كل الاعتراض على ذلك

Add to Basket

الفصل الرابع :

لماذا لا يكون صحيحا ؟

وكانت الاجراس تدق مرة أخرى من برج الكنيسة معلنة انتهاء صلاة العصر ، وعندما أقبلت سيارة المستشفى البيضاء المرسوم عليها الصليب الاحمر ، ووقفت أمام بوابة الحديقة . ولما فتحت البوابة اندفعت السيارة غير مبالية بالنسوة الثلاث الجالسات عن كثب ، الى ان وقفت عند باب المبنى ووثب منها طبيب امتياز شاب فى ثياب بيضاء

ولم يكن المنظر فى حد ذاته شيئا مذكورا ، ولكنه بعث غصة فى الحلق . فهاهى المأساة تدخل على حين غرة ذلك البيت . وقد بلغت المأساة قمتها الشكلية فى تلك الثياب البيضاء وذلك الصليب الأحمر وخفق صدر مدام دونفيل الضخم . ورمقت الام ابنتها فى حدة . عندما رأتها لا تهتز للمشهد ، وقالت لها :

ـ لا يبدو عليك الاهتمام البالغ بما جرى !

وكان هدوء ببى يزعج أمها . ونظرت ببى اليها بعينين مفتوحتين على سعتهما كأنها لم ترها من قبل ، وقالت :

ـ لقد انقضى زمن طويل جدا لم تكن فيه بينى وبين فرانسوا أدنى مشاركة

Add to Basket

وعندئذ التفتت جان الى شقيقتها تتفحصها . وكانت نظرتها الثقب من نظرة امها ، فاحست بيبى ببعـــض الامتعاض . وفجاة نهضت جان واقفة ، واسرعت نحو المبنى ، وهى تقول :

ـ ساذهب وارى بنفسى ماذا حدث

وكان طبيب الامتياز ، والدكتور بينو يحمـــلان فرانسوا فيما بينهما وكان وجهه شاحبا شحوب الموتى ورأسه ساقطا فوق كتفه . فصاحت جان وهى تقبض على ذراع زوجها :

جان وهى تقبض على ذراع زوجها :

ـ فليكس !

فصرخ فى وجهها :

ـ دعينى !

فزاد عجبها وصرخت به :

ـ ماذا جرى ؟

فصاح كالمجنون :

ـ اتريدين ان تعرفى ماذا جرى ؟ اليس كذلك ؟ اذن ...

وتوقف عن الكلام وهو يبذل مجهودا عنيفـــا كى لا ينفجر باكيا ، وكى لا يصفع زوجته ، ولكى يساعد الطبيبين فى حمل فرانسوا الى داخل السيارة البيضاء . واخيرا قالها :

ـ العاهرة اختك سقته السم ..

Add to Basket

ولم يكن قد نطق فى حياته كلها من قبل بذلك اللفظ النابى . فقد كان شخصا دمثا يفزع من جميع ضروب العنف والفظاظة .

وارتاعت جان لما سمعت فعادت تقول له :

ـ فليكس .. ما هذا الذى تقول ؟ .. اسمع

وظهرت بيبى دونج على مسافة لا تتجاوز خمس خطوات .. منتصبة القامة للغاية فى وقفتها، وقد سقطت أشعة الشمس على شعرها الذهبى ، فبدت مخلوقا اثيريا فى ثوبها الاخضر الفاتح . وقد وضعت احدى يديها فوق صدرها الصغير ، وراحت ترقب مايدور أمامها

ونظرت اليها جان فى ارتياعها ، وصاحت :

ـ بيبى ! .. اسمعت ما قال فليكس ؟

وصاحت عندئذ مدام دونفيل ـ التى كانت قد سمعت أيضا ما قيل :

ـ جان ... بيبى ..

ذلك أن جثتها الضخمة بدأت تترنح ، وأشرفت على الاقماء متداعية على الأرض . بيد أنها قاومت الاغماء ما استطاعت ، لأنها احست أن احدا لن يعيرها ادنى التفات

وهتفت جان بزوجها :

ـ فليكس ! .. دعنى أذهب معك

فنظر اليها فليكس نظرة قاسية تفيض بالكراهية ، كأنما هى بيبى ، أو كأنما هى المحرضة لشقيقتها أن تسقيه السم .

Add to Basket

وبدأت السيارة تتحرك ، وكان الدكتور بينو قد جلس بجوار السائق . فأومأ اليه ان يقف لحظة ، وأحنى رأسه فوق جان ، وقال لها :

ـ يحسن بك أن ترقبى شقيقتك عن كثب الى حين ..

وضاعت بقية عبارته فى الهواء ، لان السائق توهم انه ختم كلامه فأدار المحرك مرة أخرى ، واستعد للدوران نحو البوابة .

واقبل الأطفال يجرون من ملعب التنس ، ووقف جاك على قيد خطوات من والدته . فهل سمع شيئا مما قيل ؟ أم أن منظر سيارة المستشفى البيضاء هو الذى سمره فى مكانه على تلك الصورة ؟

وبصوت رفيع سأل برتران أمه :

ـ أماه . ماذا حدث لعمى فرانسوا ؟

ولما لم تجبه جذبها من طرف ثوبها . فتهاوت جان جالسة على العشب .

أما بيبى دونج فارتفع صوتها هادئا كالعادة :

ـ مارت ! .. مارت .. أين أنت ؟

واقبلت مارت تمسح عينيها بطرف مريلتها ، وقالت :

ـ ها أنا ذى ياسيدتى

وربما كانت مارت تجهل كل شىء . ولكنها وجدت مبررا كافيا للبكاء فى مجرد خروج سيارة الاسعاف من بوابة البيت !

وقالت بيبى لمارت بكل هدوء

Add to Basket

ـ التفتى من فضلك لجان .. خذيه للنزهة فى الغابة

فصاح الصبى محتجا :

ـ لا اريد ان اتنزه

فتجاهلت بيبى كلامه . وقالت :

ـ هل سمعتنى يامارت ؟

ـ أجل ياسيدتى

وبهدوئها المعتاد ، اتجهت بيبى نحو المبنى . فنادتها اختها :

ـ اوجينى !

وكانت هذه اول مرة منذ سنوات ، وسنوات تنادى فيها جان شقيقتها باسم العماد . ذلك أن بيبى سميت رسميا على اسم امها اوجينى

وتوقفت بيبى . وقالت من غير أن تلتفت :

ـ ماذا تريدين ؟

ـ يجب أن اتحدث أليك ..

ـ ليس عندى ما اقوله لك !

ومضت تصعد السلالم ببطء . فهل كانت فى الواقع تشعر بانفعال داخلى تقاوم ظهوره على وجهها ؟ وهل كانت ساقاها ترتجفان تحت ثوبها الأخضر ؟

وتبعتها جان فادركتها فى حجرة المائدة . وكانت المصاريع الخشبية لنوافذها قد أبقيت مغلقة بسبب حرارة النهار . فقالت جان لأختها :

ـ اجيبينى على الاقل

فالتفتت بيبى نحوها بضجر . وبدا فى عينيها ذلك الهدوء الفظيع الذى ينتاب من يدركون فى لحظة

Add to Basket

الماساة ، انه ما من انسان يمكنه ان يفهمهم بعد الآن ، وسألتها بفتور :

ـ وماذا تريدين ان تعرفى ؟

فحملقت فيها جان وسألتها :

ـ اصحيح ذلك ؟

ـ اننى اردت ان اسممه ؟

ونطقت بالكلمة فى بساطة تامة ، بغير تقزز او هلع

ـ اصحيح هذا ؟

ـ هو الذى قال ذلك . اليس كذلك ؟

ولم يظهر عليها الاستياء من اتهامه لها . بل على العكس بدا على بيبى الارتياح لان فرانسوا اتهمها بمحاولة قتله بالسم . ووقفت صامته تعبث باحدى قدميها فى الأرض . وكان حذاؤها اخضر اللون كثوبها .

ـ اصحيح ؟

ـ ولماذا لا يكون صحيحا ؟

واعتبرت الحديث منتهيا فبدات تصعد الى الطابق العلوى على مهل . وقد رفعت فى رشاقة ذيل ثوبها الطويل امامها

وصاحت جان :

ـ بيبى !

ولما لم ترد واستمرت فى الصعود ، استطردت جان :

ـ بيبى . ارجو الا تكونى مقدمة على ...

وكانت بيبى قد وصلت الى قمة السلم فوقفت برهة ثم التفتت وقالت :

Add to Basket

ـ لا حاجة بك الى القلق ياعزيزتى ... واذا سأل عنى أحد ستجدينني فى حجرتى !

وكانت تلك الحجرة مبطنة بالحرير . وكل شيء فيها دقيق انيق كانها صندوق ضخم من صناديق الحلوى الفاخرة . وبحركة آلية نظرت بيبى الى نفسها فى المرآة الكبيرة . وبحركتها المألوفة رفعت شعرها قليلا، فكشفت بتلك الحركة عن ابطها الحليق . وكانت الساعة الصغيرة تدل على الرابعة وعشر دقائق ، ومن فرجة صغيرة فى النافذة سقط شعاع واحد فوق مكتبها الصغير الأبيض اللون .

وجلست بيبى دونج الى مكتبها وفتحت درجا استخرجت منه فى حركة تدل على التعب والسأم كراسة ذات لون أزرق باهت . وبدا عليها انها مقدمة على كتابة خطاب عسير . واخيرا شرعت تكتب ما يلى :

١ ـ لا تنسى اعطاءه دواءه كلّ صباح . وزيادى عدد النقط مع ازدياد برودة الجو .

٢ ـ اعطيه الكاكاو مرة كل ثلاثة أيام بدلا من الشوفان فى الافطار ، ولكن لا تفرطى فى السكر . ثلاث قطع تكفى .

٣ ـ لا تسمحى له بلبس الحذاء المخرم . ولا بالمشى فى العشب المبتل صباحا أو مساء . ولا سيما فى شهر سبتمبر .

٤ ـ تأكدى من تخير الثياب الملائمة للجو .

ولما وصلت الى هذا الحد سمعت اختها من وراء الباب تقول بخجل :

ـ هل أنت بالداخل ؟

ـ لا تعطليني . فاني مشغولة

وانتظرت جان لحظة طويلة سمعت فيها صوت انسياب القلم على الورق ثم هبطت السلم . ووصلت بيبي فى وصاياها الى رقم ١٢ .

وفى ذلك الوقت كانت جان تتنافس مع أمها حول مسلك بيبي . وتلقى على أمها اللوم لافراطها فى تدليلها . ومدام دونفيل تكاد تجن من الدهشة وترفض أن تصدق ما حدث من ابنتها .

وبعد قليل وصلت سيارة أجرة بداخلها الدكتور بينو وآخرون .

Add to Basket

الفصل الخامس :

بدء التحقيق

وكان المستشفى بناء عتيقا جميلا من ابنية القرن السادس عشر ، ذا سقوف عالية مدببة ، وقد تغيرت الوان تلك السقوف الفخارية بفعل الزمن ، أما الجدران فبيضاء ، وأما النوافذ فضخمة ، والفناء الداخلى للمستشفى تبسط عليه الأشجار العالية ظلها الوريف . وفى ذلك الفناء كان الرجال المسنون فى اكسيتهم الزرقاء يتنقلون من مقعد الى مقعد ، وقد ربطوا أرجلهم بالضمادات ، وتوكئوا على العصى ، ومنهم من تحيط العصائب برأسه وتسنده الراهبة الممرضة .

وحمل فرانسوا الى قاعة العمليات . وكان الدكتور ليفير قد دعى تليفونيا ، فحضر على عجل الى المستشفى قبل وصول المريض ، واستعد للعملية فعقم يديه ولبس القفازين . واعد كل شىء لغسيل المعدة وما الى ذلك من اجراءات العلاج .

وكان فرانسوا قد عاهد نفسه على الا يئن او يتوجع . وحقنه الطبيب بحقنتين من المورفين لم تسلباه كل قدرته على التفكير . فشعر بشىء من الخجل لرقاده عاريا كما ولدته أمه أمام ممرضة حسناء . وكان يتمنى لو استطاع أن يطمئن فليكس الذى كاد يخرجه الفزع عن رشده ،

Add to Basket

حتى أن الطبيب هدده جديا باخراجه من الحجرة

وكانت عيناه مغلقتين عندما رأى فجأة أمام باصرة مخيلته قصاصة الورق . فكأنه لم يعد راقدا فى مستشفى القديس يوحنا بالقرب من القناة ، بل هو مستلق على مقعد طويل فى حديقة مزرعة البلوط ، بحيث شعاع الشمس ينعكس بوهج شديد على الحصباء الحمراء ، فكأنها بركة من الدم ، تتخللها الظلال التى تلقيها قوائم المنضدة الأربع .

وهناك ، بين ظلين من تلك الظلال القيت قصاصة الورق البيضاء المتكورة . نعم لقد رآها وقتئذ . والدليل على ذلك أنه يراها الآن مرة أخرى ، مع أنه ليس فى حالة هذيان ..

وأين كانت بيبى تستطيع أن تخفى الورقة بعد أن افرغت المسحوق السام فى فنجان القهوة ؟ لم يكن لها فى ذلك الثوب جيب . ولم تكن معها حقيبة يدها . فلم يكن أمامها الا أن تكور الورقة فى راحة يدها الرطبة ، وظنا منها أن قصاصة ورق صغيرة لا يمكن أن تفطن اليها العين ، القت بها ، أو تركتها تسقط من يدها على الأرض

ترى هذه الورقة لم تزل ملقاة هناك ؟ أم تراها عادت اليها فالتقطتها لتحرقها ؟

وعندما وصل بخواطره الى هذا السؤال سمع الطبيب يقول له :

ـ اجتهد أن تستلقى فى ثبات تام برهة من الوقت

فكر على أسنانه . ولكن للأسف الشديد نفذت منه صرخة . وفى الوقت نفسه أطلق فليكس زفرة عميقة

Add to Basket

ونعود الى خيمة البلوط ، فنجد الرجل الذى جاء مع الدكتور بينو فى سيارة الأجرة يتقدم ، ويسأل جان :

ـ هل مدام دونج موجودة هنا ؟

وكان الرجل طويل القامة جدا ونحيلا جدا . يرتدى بدلة رمادية من الصوف الرخيص ، رديئة التفصيل ، مما يقطع بأنها مشتراة من احدى محال الملبوسات الجاهزة ، وقد امسك بقبعته فى يده ، فى حين أبقى الدكتور بينو قبعته فوق راسه

واجابته جان قائلة :

ـ انت تريد مقابلة شقيقتى . أليس كذلك ؟ انها فى حجرتها . سأذهب لاناديها ان شئت

ـ أخبريها بقدوم الجاويش جانفييه ، من مكتب جرائم القتل

ولما كان اليوم يوم احد ، ومفتش المباحث مشغول بحضور مباراة فى البلياردو تقام فى مدينة قريبة . وكان وكيل النيابة ملازما البيت بسبب اشراف زوجته على الوضع ، لذا تعين على هذا الجاويش أن يقوم بالتحقيق الاول فى جريمة هامة كهذه

وعند الباب سألت جان بصوت مرتفع

ـ هل اغلقت الباب بالمفتاح يابيبى ؟

ـ كلا بالطبع ... ادبرى المقبض وادخلى

وكان هذا اللبس طبيعيا للغاية لأن جان كانت لفرط اضطرابها تدير المقبض فى الاتجاه المضاد . وكانت بيبى لم تزل جالسة الى مكتبها مشغولة بتلاوة ما سطرته .

Add to Basket

ووقرت على شقيقتها انباء المفاتحة ، فبادرتها تسالها بهدوء :

ـ كم عددهم ؟

ـ واحد فقط

ـ هل يريد ان ينطلق بى على الفور ؟

ـ لا ادرى

ـ اخبرى مارت انى اريد ان اراها

وهبطت جان لتقول للجاويش :

ـ ستنزل شقيقتى بعد لحظة قصيرة

وكان الطبيب مشغولا بالحديث مع الجاويش ، والجاويش مذهول لشدة لمعان أرض قاعة المائدة . ولاحظت جان رقعة صغيرة فى حذائه

وفى الطابق العلوى دخلت مارت على سيدتها . فبادرتها بيبى تقول بثبات كامل :

ـ اخرجى حقيبة ثيابى المصنوعة من جلد الحلوف يا مارت ... كلا ! بل افضل أن آخذ حقيبة الطيارة لأنها اخف ... وضعى فيها ثيابا داخلية تكفينى مدة شهر ، وثوبين للخروج ... و ... لماذا تبكين هكذا ؟

ـ لا شىء ياسيدتى

ـ اى الثوبين آخذ ؟ دعينى ارى

وفتحت دولاب لتختار ما ستكون بحاجة اليه ، ثم قالت :

ـ لقد تركت لك تعليمات مفصلة عن كل شىء ... واكتبى لى يوميا لتحيطينى علما بكل ما يحدث ..

Add to Basket

ولا تخافى أو ترددى فى تسجيل أتفه التفاصيل مهما كانت .. واين تركت جاك ؟

ـ مع ابنى عمه

ـ وماذا قلت له ؟

ـ قلت له أن السيد دونج وقع له حادث ، ولكنه غير خطر .

ـ وماذا يصنعون الآن ؟.

ـ جاك يريهما كيف صاد سمكة هذا الصباح .

ـ سأنزل الآن ... ومتى فرغت من اعداد الحقيبة انزليها .

ولمحت فى هذه اللحظة فراشها فتملكتها الرغبة فى الرقاد عليه ولو لحظة واحدة ، ولكنها قاومت رغبتها ، وقالت:

ـ يا مارت ... بهذه المناسبة ... كدت انسى ... اذا عاد السيد دونج قبل أن اعود انا .

فانفجرت الوصيفة باكية ، فقالت بيبى :

ـ يا للسماء ! الا استطيع ان اقول كلمتين متتاليتين لك من غير أن تبكى ؟ ... انى أريد منك أن تهتمى بجاك، ولا تغيرى شيئا من نظامه ... اتبعى تعليماتى بدقة . أفهمت ؟ ... فهناك اشياء صغيرة لا يعتبرها السيد دونج ذات اهمية . ولكنها فى الواقع مهمة .

ونزلت على مهل ، وبادرت الرجل الطويل النحيل بقولها :

ـ ارجوك المعذرة لانى جعلتك تنتظر يا سيادة المفتش.

ـ انا الجاويش ... جئت بسرعة ، وسيحضر المفتش والآخرون بعد قليل .

Add to Basket

واخرج من جيبه ساعة فضية كبيرة نظر فيها ، واستطرد قائلا :

ـ وفى مدة انتظارهم ارجو أن تسمحى لى بتوجيه بضعة أسئلة تمهيدية ، بحيث يجدون كل شىء معداً .

وعندئذ قال الدكتور بينو :

ـ هل انتظر فى الخارج ؟.

ـ ان سمحت ... وسيأخذون أقوالك وشهادتك عند حضورهم .

ثم أخرج الجاويش من جيبه كراسة مذكرات صغيرة مضحكة الشكل ، وبعد ذلك ظهر عليه الارتباك كأنه لا يدرك ماذا يصنع بها ، فقالت بيبى :

ـ سيكون من الاسهل عليك أن تكتب فى مكتب زوجى .. تفضل من هنا ان سمحت .

وأية امرأة فى مكانها كانت حرية أن تتهاوى وتسقط على الأرض ، ولكن لو فعلت بيبى دونج شيئا من ذلك ، لما كانت بيبى دونج .

Add to Basket

القبض على الزوجة

وشيئاً فشيئاً انقضت المخاوف ، وخفتت اصداء الاصوات ، وجف العرق الذى تصبب طول الليل ، وتلاشت الروائح المنفرة التى تنتشر فى المستشفى عند بكور الصباح . وثاب المريض الى هدوء مطمئن ، وصمت ونظافة لا تشوبها شائبة . فالمفارش والأغطية بيضاء ناصعة ، والارض نظيفة لامعة ، وزجاجات العقاقير قد صفت بأناقة ونظام فوق خوان من الزجاج الابيض .

وبدلا من ضجيج الممرضات المدنيات ، وصراخ المرضى الذين يجرى تضميد جروحهم ، لم يعد يسمع فى الدهاليز صوتا اللهم الا وقع الخطوات الخافتة للراهبات الممرضات، ووسوسة مسابحهن .

وأحس فرانسوا بخواء كامل لم يشعر بمثله من قبل. حتى لكأنه دابة ذبيح نزع منها القصاب أحشائها ، وغسل جوفها وعجيزتها فى عناية فائقة ، ليعرضها لامعة شائقة على المشترين .

وسمع طرقا خافتا على الباب ، وتلاه صوت يقول :
– هل لى أن أدخل ؟ ... لقد قابلت الآن الدكتور

Add to Basket

ليغير ، واخبرنى انك تجاوزت مرحلة الخطر .

ودخلت الاخت آدونى الحجرة ، وكل ما فيها مشرق بالابتسام ، لترى كيف أصبح ذلك المريض . والاخت آدونى قصيرة القامة ، تميل الى البدانة ، وتتكلم الفرنسية بلهجة اقليمية واضحة . ونظر اليها فرانسوا كما ينظر الى كل شيء فى الدنيا ، من غير أن يتكلف التلطف او الابتسام . ولابد أن الاخت آدونى كونت عنه فكرة اولى خاطئة ، شأن الكثيرين سواها ممن يرون فرانسوا لأول مرة .

فهل أرجعت تباعده هذا الى حزنه الشديد بسبب فعلة زوجته ، أم اعتقدت انه يبغض الراهبات ؟.

مهما يكن من شيء فقد حملت نفسها على ترويضه فورا . فقالت له :

ـ اتحب أن افتح لك نافذتك ؟ ... ستستطيع ان ترى من فراشك جانبا صغيرا من الحديقة ... لقد اعطوك أفضل حجرة فى المستشفى ، رقم ٦ . وهذا يجعلك عندنا السيد ستة ! فنحن لا نستخدم اسماء المرضى ، بل نناديهم بأرقام الحجرات . فتصور أن رقم ثلاثة الذى غادرنا بالأمس فقط بعد أن قضى معنا بضعة اشهر ، ذهب من غير ان نفكر فى معرفة اسمه !

على رسلك ايتها الاخت آدونى ! ووفرى بعض جهدك، فانت تفعلين كل ما فى وسعك ، ولا يخطر ببالك ان فرانسوا اذا كان ينظر اليك هذه النظرة ، فذلك لانه على الرغم منه يراك مجردة من ثوبك الرمادى الذى ينسبك الى رهبنة القديس يوسف !.

Add to Basket

وكان هذا السلوك منه لا اراديا حقا . ففى لحظة دخولها راح يتساءل بينه وبين نفسه ، كيف يمكن ان تبدو هذه المرأة فى غير ثياب الرهبنة التى تكاد تجعلها مخلوقا مثاليا مجردا . فتخيلها على الفور فلاحة ضفرت شعرها النحيل ، وبرزت عضلاتها ، وتكورت معدتها من تحت مريلتها الزرقاء ، وقد ارتدت ثوبا قصيرا للعمل وجوربا قطنيا اسود ، وقد وقفت واضعة يديها على حقويها فى مدخل كوخ ريفى ، ومن حولها كتيبة كاملة من الدجاج والأوز .

ولم تفهم الأخت آدونى سر نظراته الحائرة وعدم اهتمامه بما تحدثه عنه ، فخيل اليها أنه مشغول بمأساة امرأته ، فانشأت تقول له :

ــ يالك من رجل مسكين ! لا ينبغى ان تتسرع فى الحكم عليها ، ولا ينبغى ان تكون قاسيا متحاملا ... وليتك تعلم ما يدور أحيانا داخل رءوس النساء ! ولماذا نذهب بعيدا ؟ لقد كانت لدينا فى الحجرة المجاورة امرأة حاولت أن تقتل نفسها بالقفز من النافذة .. وظلت مصرة على انها مجرمة ، وجريمتها تنحصر فى قتل طفلها ذات ليلة لأنه كان يكثر من البكاء . ولك أن تصدق أو لا تصدق أن ابنها فى الحقيقة ولد ميتا . وان عينيها لم تقع عليه اطلاقا . وبعد تلك الولادة ببضعة اشهر استيقظت ذات صباح وهى معتقدة انها اقترفت تلك الجريمة ، اعتقادا لم تسبقه مقدمات .

فسألها فرانسوا بهدوء :

ــ وهل شفيت تلك السيدة ؟

ــ بل وانجبت طفلا آخر .. وتأتى لزيارتنا احيانا فى

Add to Basket

المستشفى زيارة ودية عندما تخرج بطفلها للنزهة فى هذه الناحية . . ! اعتقد أنى سمعت أحداً فى الدهليز . . . لابد انه زائر لك .

فقال فرانسوا بغير تردد :

ــ انه أخى .

ــ يا للمسكين ! لقد قضى الليلة بطولها فى دهاليز المستشفى . وذلك مخالف للتعليمات ، بيد ان الطبيب اخذته الرحمة به . . ولم ينصرف الا فى الساعة السادسة صباحا ، بعد ان اكدوا له انك تجاوزت مرحلة الخطر . . والآن اعطنى معصمك .

وتناولت معصمه لتحصى نبضه ، وبدا عليها الارتياح ثم قالت :

ــ سادعوه للدخول . ولكن يجب الا يمكث معك اكثر من بضع دقائق . ويجب أن تعدنى بالتزام الهدوء .

فابتسم أخيرا ، وقال لها :

ــ اعدك بذلك .

ولم يكن فليكس اغمض جفنيه لحظة واحدة . ففى الساعة السادسة صباحا كما قالت الأخت آدونى اخرجوه من المستشفى عنوة تقريبا ، فذهب الى البيت ليستحم ويحلق ذقنه ويغير ثيابه . وها هو ذا قد رجع ووقف فى نهاية الدهليز قد عيل صبره لانه اصبح ملزما كاى غريب أن ينتظر الاذن بمقابلة أخيه .

واقبلت عليه الأخت آدونى ، وقالت له :

ــ تستطيع أن تدخل . ولكن لا تمكث أكثر من خمس دقائق ، تذكر ذلك ! ولا تقل له شيئا يمكن أن يثيره .

Add to Basket

ـ وهل هو هادىء ؟.
ـ لا أدرى ... فهو ليس كسائر المرضى .
ولم يتصافح الشقيقان باليد . وسأل فليكس أخاه :
ـ كيف تشعر الآن ؟.
وأجابه فرانسوا باختلاجة من جفنيه للدلالة على ان كل شيء على ما يرام ، ثم أردف ذلك بالسؤال الذى كان يتوقعه فليكس :
ـ هل قبضوا عليها ؟.
ـ أمس مساء ... حضر فاشو الى مزرعة البلوط بنفسه .. وكنت اخشى ان تحدث متاعب أو مضايقات محرجة ... ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، لانها تصرفت على خير وجه .

وفاشو وكيل النيابة صديق للشقيقين . ولا يمضى اسبوع من غير ان يلتقيا به فى احدى حفلات البريدج .
واستطرد فليكس يقول لأخيه :
ـ ان فاشو هو الذى كان يشعر بالحرج ... فجعل يتلعثم ... وانت تعرف احواله ... لا يدرى ماذا يصنع بذراعيه الطويلتين ولا اين يضع قبعته .
ـ وجاك ؟.
ـ ابقوه بعيدا ... وجان موجودة فى الوقت الحاضر مع الأطفال فى مزرعة البلوط .

وشعر فرانسو ان فليكس يكذب . بيد انه ترفق به وتصنع التصديق . فما الذى يخفونه عنه ؟.

وشعر فرانسوا ان فليكس يكذب . بيد انه ترفق به شيء مر على ما يرام . وكان تدخل القانون شكليا للغاية . فحضر فاشو فى سيارته ومعه سكرتير التحقيق ، أما

Add to Basket

الطبيب الشرعى الذى عين حديثا فلا يملك سيارة خاصة ولذا جاء فى سيارة أجرة !.

وتجمع الثلاثة عند البوابة للتشاور فيما يفعلون . وكانت بيبى دونج قد لبست قبعتها فاتجهت نحوهم على الفور ، وقالت ببساطة :

ـ كيف حالك يا سيد فاشو ... آسفة لازعاجك فى يوم عطلتك .. والدتى وشقيقتى مع الاطفال . ولذا اظن أنه من الأوفق أن نرحل فورا . لن انكر شيئا .. لقد حاولت أن اسم فرانسوا بالزرنيخ .. انظر ! تستطيع ان ترى الورقة التى بها المسحوق ملقاة هناك !.

وبهدوء تام اتجهت نحو المنضدة ، ومن فوق الحصباء الحمراء الداكنة التقطت الورقة ، وعادت لتقول للمحقق :

ـ اظنك تستطيع أن تؤجل سؤال امى واختى والخدم حتى الغد ؟.

وتداول الرجال فيما بينهم . وعندئذ قال الجاويش :

ـ لقد اخذت اقوال مدام دونج . وساعد تقريرى عن ذلك هذا المساء .

فسأله فاشو :

ـ لديك سيارة الاجرة التى حضرت بها ؟ اذن تستطيع أن تصحب معك مدام دونج .

وكان المارة فى الطريق العام يرون السيارات المصطفة امام البوابة ، فيحسبون أن هناك كوكتيل مقامة فى مزرعة البلوط !.

ولم يعد امام الرجال الرسميين سوى ركوب السيارات ، ومن غير أن يشعر أحد من سكان أورانى أن هناك شيئا غير عادى ، وعندئذ قالت بيبى دونج :

Add to Basket

ـ احضرى حقيبتى يا مارت !.
وفى هذه اللحظة أقبل جاك يجرى نحوها ، وقد تهدلت فوق جبينه خصلة من شعره . وكان من المفروض الا يخبره أحد بشىء . ومع ذلك تطلع الصبى الى امه فى دهشة ، وسألها :

ـ أصحيح انك ذاهبة الى السجن ؟.
وكان الاستطلاع طافيا لديه على الفزع . فابتسمت وهى تنحنى فوقه كى تقبله من غير أن تقول شيئا . فسألها :

ـ وهل استطيع ان آتى لزيارتك ؟.
ـ طبعا يا جاك ! اذا كنت عاقلا !
وسمع صوت جان تنادى فى ارتياع :
ـ جاك جاك !

فقالت ببيى فى هدوء تام :
ـ والآن عد الى خالتك جان . وعدنى انك سوف لا تذهب لصيد السمك بعد الآن .

وكان ذلك كل ما قالته ثم ركبت سيارة أجرة وتقدم ممثلو القانون قبل ركوب سياراتهم فخلعوا قبعاتهم وانحنوا لها .

ثم وصل فليكس بعد ذلك بقليل فى سيارته . وكان فى عجلة محمومة ، لان حالة فرانسوا كانت لم تزل دقيقة. فوجد زوجته وحماته فى البيت وقد احمرت اعينهما ، فسأل بخشونة :

ـ أين هى ؟

وكان الاطفال ياكلون . فنهضت جان وقالت له :
ـ هيا الى الحديقة أ.

Add to Basket

وكانت تعرف ما يدل عليه تغير سحنته واختلاج شفتيه ، وهناك قالت له :

ـ اسمع يا فليكس ... من الخير لنا الا نتكلم فى هذا الموضوع الآن .. فانا لا اعرف ماذا دار براس اختي .. ولا استبعد ان يكون اصابها مس من الخبل فجاة .. وبيبى لم تكن فى يوم من الايام مثل سائر الناس .. وانت تعلم تعلقى بفرانسوا فارجع اليه ، ولازمه ، واقم فى بيتنا بضعة أيام . اما انا فمن الخير ان ابقى هنا مع الاطفال . اليس هذا هو رايك ايضا ؟ وقل لفرانسوا انى ساهتم كل الاهتمام بجاك وستعاوننى فى ذلك مارت .. طابت ليلتك يا فليكس .

وبعد ساعة أو نحوها طلبت مدام دونفيل سيارة اجرة بالتليفون . وراحت تؤكد ان مزرعة البلوط تكاد تخنقها. فهى لا تستطيع ان تبعد عن ذهنها فكرة السم . وسيحول ذلك دون نومها . وأردفت بعد ذلك قولها :

ـ وفضلا عن ذلك ، ليس معى هنا شىء من ادوات زينتى .

وهكذا ذهبت مدام دونفيل الى شقتها بالمدينة ، وهى طبقة كاملة من بيت كبير فخم ، تتكون من ثمانى حجرات. وبمجرد وصولها قالت لوصيفتها الشابة :

ـ اسمعى يا نيكول .. سنسافر غدا الى نيس .

ـ وهو كذلك يا سيدتى !.

ومع ان الوصيفة لم تجاوز التاسعة عشرة من عمرها ، فان المشاجرات بينهما كانت لا تنقضى .

ـ والآن هيا ساعدينى فى اعداد الحقائب يانيكول .

ـ اليست سيدتى خائفة من الحر الشديد فى نيس فى هذا الفصل من السنة ؟.

Add to Basket

فرمقتها مدام دونفيل بنظرة قاسية ، وقالت :

ـ انا فاهمة لماذا تحاولين اقناعى بعدم السفر الى نيس . من أجل خاطر عينى صبى الجزار . أليس كذلك؟ ولكنك ستسافرين معى الى نيس سواء رضيت أو كرهت !.

وفى اليوم التالى أرسلت برقية الى صاحبة الخان الذى تقضى فيه مدام دونفيل بضعة أسابيع من السنة بمدينة نيس .

Add to Basket

الفصل السابع :

ليس لى اسم

وكانت اعصاب فليكس متوترة غاية التوتر لحرمانه من النوم طول الليل ، فجعل يدرع الحجرة جيئة وذهابا وهو يقول :

ـ لا ادرى لماذا فعلتها .. الا اذا كانت ..

وتوقف عن الكلام ، فنظر اليه فرانسوا بهدوئه المعتاد، كنظرته الى الاخت آدونى منذ برهة ، وسأله :

ـ الا اذا كانت ماذا ؟.

ـ انت تعلم ماذا اعنى .. الا اذا كانت قد عرفت ما يتصل بلولو جاليبر !.

واحمر وجه فليكس . وكان الشقيقان يتقاسمان كل شيء على الشيوع . فهما يعملان معا . وقد شيدا معا تلك المؤسسات المختلفة التى عرفت فى الاقليم باسم مؤسسات دونج . وتزوجا معا ، ومن شقيقتين . ومن ثروتهما المشتركة أعادا تجديد الدار الريفية فى البلوط ، لتسكنها الاسرتان على التبادل خلال اشهر الصيف . ومع ذلك كان لابد من وقوع كارثة اذ تجاسر فليكس على ذكر اسم لولو جاليبر بتلك اللهجة الخاصة . وهى كما يعلم الجميع فى المدينة عشيقة فرانسوا .

Add to Basket

ولم يظهر فرانسوا ادنى علامة على الانفعال ، وهو يقول :

ـ ولكن بيبى لا تغار من لولو جاليبر !.

فاجفل فليكس . والتفت نحو اخيه فى دهشة اعظم مما كان ينوى ان يبدى . فقد اثار عجبه صوت فرانسوا بما فيه من هدوء وثقة وساله :

ـ وهل كانت تعلم ؟

وبنفس الثبات والهدوء اجابه فرانسوا :

ـ منذ زمن طويل .

وزادت حملقة فليكس اتساعا ، وساله :

ـ انت اخبرتها ؟

وعندئذ تلقصت عضلات وجه فرانسوا من شدة الالم . واحس مرة اخرى بالسهام النارية الموجعة تخترق احشاءه نذيرا بنزف جديد . ثم استطاع ان يغمغم متلعثما :

ـ هذه قصة معقدة للغاية .. انى آسف . الك ان تدعو الممرضة ؟.

ـ وهل ابقى معها ؟.

فهز فرانسوا راسه فى اعياء . واسرع فرانسوا بالخروج ليدعو الممرضة التى دعت الطبيب فحقنه بمادة مهدئة . حتى اذا شعر بالراحة قال له الدكتور ليغير بلهجة من يحار كيف يبدأ الحديث :

ـ اريد أن انتهز فرصة عدم شعورك بالالم كى اخبرك بشىء . وهو فى الواقع موضوع دقيق حساس كنت افضل الا اخوض فيه اطلاقا ... فقد زارنى اليوم الزميل جاليبر .. وقد علم بما حدث لك .. وهو يضع نفسه تحت تصرفك كلية . وعرض أن يساعدنى اذا لزم الامر

Add to Basket

.. فاذا كنت تفضل الانتقال الى مستشفى خاص .
وقاطعه فرانسوا قائلا :

ـ كلا وشكرا لك ..

وكان هذا هو كل تعليقه على الموقف ، لانه فى الواقع لم يكن مكترثا فى الوقت الحاضر بالسيد جاليبر وعواطفه الشخصية . ففرانسوا شخص عملى الى أقصى حد . وكل انسان فى المدينة يعرف عنه هذا . حتى ان بعضهم ينتقدونه لتجرده من الخيال والحساسية .

وبفضل هذه الطبيعة العملية استطاع فرانسوا فى سنوات قليلة ان ينمو بتركة ابيه التى كانت عبارة عن مدبغة جلود صغيرة مقامة على أرض مترامية على شاطىء النهر ، ولا فائدة لتلك الارض الا ان يرتادها صيادو السمك . فأصبحت للاخوين دونج عشرة أعمال صناعية مختلفة ، يشتغل فيها المئات من الرجال والنساء وهى اعمال تبدو متباينة فى الظاهر ، ولكن الارتباط المنطقى فيما بينها لم يكن يدركه فيما عداه غير فليكس . فالمدبغة يقتضى تشغيلها شراء الجلود من الريف . وشراء الجلود وجه انتباههما الى تربية الحيوانات والماشية . وذلك أدى الى انشاء مصنع للالبان . وبعض مستخرجات اللبن التى تعتبر نفاية لا قيمة لها تصلح أساسا لصناعة العجائن (البلاستيك) . وهكذا أدهش فرانسوا الناس بالاكواب وأدوات المائدة وأدوات الزينة التى اخرجها مصنعه الجديد .. ووجد فى هذا المصنع ربحا وفيرا فوسع مصنع الالبان للحصول على المادة الاولية لتلك الصناعة . واستقدم خبيرا من هولندا ، ومنذ عام اقام خارج المدينة مصنعا جديدا لانتاج الجبن الهولندى (الفلمنك) .

وذلك كله تم فى هدوء واناة ، وبغير لهفة أو اجهاد .

Add to Basket

مع الاستمرار فى ادخال التحسينات على المقر الريفى ومع الاستمرار فى التمتع بالحياة .

ومع ذلك ، هاهو ذا يشرد بذهنه بعيدا عن الامور الجدية التى يحدثه فيها الطبيب كى يشغل نفسه بأمور بعيدة كل البعد عن الطابع العملى فى الظاهر . ولم يكن ذلك هروبا شاعريا من الواقع لانه ظل منطقيا حتى فى مسلكه الهروبى .

وكان فليكس قد قال عند حديثه عن وكيل النيابة فاشو الذى كان ظاهر الارتباك والحرج عند قيامه بمهمته القاسية .

ـ لقد استطاعت أن ترده الى سجيته على الفور .

والحقيقة أن هذا المشهد كان أوضح لديه مما هو لدى فليكس لانه يعرف جيدا جميع تفاصيل الظل والضوء فى كل ساعة من ساعات النهار فى مزرعة البلوط . أما قدرتها على رفع الحرج ورد المرء الى سجيته ، فهو يعرف تلك القدرة جيدا . واليها يرجع السر فى تعارفهما .

وتراءت لمخيلته مدينة رويان ، وفيما ذلك الكازينو الكبير الابيض والفيلات البيضاء ، والرمل الابيض الذى تتناثر فوقه ثياب الاستحمام البراقة ومظلات الشاطىء المتعددة الالوان . والى مائدة البكاراه جلست مدام دونفيل ، ولم تكن أقل بدانة مما هى الآن ، فى ثوب أبيض كثير التهاويل ، من قماش شفاف . ولم يكن فرانسوا يعرف عنها شيئا سوى أنها مقيمة معه فى نفس الفندق ، فندق رويال . وأنها عندما تخسر فى لعبة البكاراه تنظر بارتياب الى المشرفين على اللعبة كأنهم قد تآمروا ضدها شخصيا .

Add to Basket

وكانت فى صحبة فرانسوا غانية من النوع المبتذل . ترى ماذا كان اسمها ؟ بيتى ام ديزى ؟ انها على كل حال راقصة رخيصة من باريس كانت تظهر كل ليلة فى احد النوادى الليلية بمدينة رويان . وتعرف بها فرانسوا هناك . وارادت ان تجرب حظها ، فكان فرانسوا يعطيها مبالغ صغيرة من النقود لتلعب . فلما خسرت صاحت :

ـ لقد سئمت من الخسارة . فهيا نذهب لنشرب كأسا فى البار .

وكان البار مزدحما جدا ، لان منتصف شهر اغسطس هو قمة الموسم فى رويان . وكانت بيتى او ديزى ذات صوت اجش وبيجامة شاطىء صارخة الالوان . وبصوتها المبحوح صاحت فى الزحام :

ـ قليلا من البطاطس المحمر أيها الساقى ، وكأسا من الكوكتيل !.

وكان فليكس فى تلك اللحظة موجودا فى البار ايضا مع فتاتين صغيرتى السن خيل الى فرانسوا أنه يعرفهما. وبعد قليل تذكر أنهما ابنتا السيدة لاعبة البكاراه ذات الثوب الشفاف .

وشعر فليكس بالخجل لانه ليس متأكدا ان كان يجوز له ان يقوم بالتقديم او لا . واخيرا تشجع ، وقال :

ـ اتسمحان لى بتقديم شقيقى ؟ ... الآنسة جان دونفيل . وشقيقتها الآنسة .. آسف .. أخشى أننى نسيت اسمك الاول .

وببساطة قالت :

ـ ليس لى إسم .. الكل ينادوننى ببيبى (الطفلة) .

وكانت هذه اول كلمات سمعها فرانسوا من فمها .

Add to Basket

واستولت على انتباهه اكثر من صياح الصوت المبحوح :
ـ الا تنوى ان تقدمنى ؟.. يالك من مهذب !
ـ صديقة لى . الآنسة ديزى (او بيتى) .
واشتد ضغط الزحام من خلفهم . واستطاع فليكس بنظرة واحدة ان يجعل شقيقه يفهم الموقف ... فهو مفتون بجان دونفيل الفتاة المرحة واقترح فرانسوا التخلص من الحر والزحام فى البار :
ـ ماذا لو خرجنا الى الكورنيش ؟ ان الحر شديد هنا !
ومشى فليكس فى المقدمة ومعه جان كبرى الفتاتين . وتبعه فرانسوا ومعه ديزى والفتاة الاخرى بيبى ، التى لم تتجاوز الثامنة عشرة . وبدات ديزى تشعر بالضجر . فكأنها تسير فى نزهة عائلية . وقالت بضيق :
ـ اليست هذه النزهة ممتعة بشكل قاتل ياحبيبى ؟.
فقال لها فرانسوا بهدوء وبرود :
ـ انظرى الى الشمس وهى تجنح للمغيب . اليس منظرها مسليا ؟.
ـ ان النوم عندى اكثر تسلية من هذا المنظر . ولكن اذا كان هذا يروق لك ...
وسارت بضع مئات من الخطوات ساكتة متجهمة . واخيرا صاحت :
ـ الى الجحيم بهذه النزهة ! .. وداعا !.
ثم اختفت وسط الزحام . فقال فرانسوا لبيبى :
ـ لا تلقى اليها بالا يا آنسة .
ـ ولماذا تعتذر ؟ الموقف طبيعى للغاية .
وادرك انها فهمت . ورفعت عنه الحرج وردته الى سجيته . فسره ذلك . وفجاة سالته ببساطة :

Add to Basket

ـ وهل شقيقك له صاحبة من هذا النوع أيضا ؟.
فادهشه سؤالها واستوضحها قائلا :

ـ ولماذا تسالين هذا السؤال ؟
وبالبساطة عينها اجابته فى وضوح :

ـ لانى ارى اخاك يخطب ود اختى بصفة جدية .
وكانت فى تلك الايام انحف مما هى الآن حتى أن ساقيها كانتا تبدوان اطول . ولكن نظرتها كانت صريحة مستقيمة. وما من قوة تجعلها تغض الطرف . بل كانت تنظر فى عينيك من غير أن تبتسم ، الى أن تشعر بالحرج والارتباك .

وقالت له ايضا :

ـ ان صاحبتك ستتشاجر معك الليلة . فارجو ان تغفر لى ما سببته لك من كدر . ولكنى مضطرة لمصاحبة اختى واخيك . فانى ان لم الازم اختى تعرضت لغضب والدتى الشديد .

Add to Basket

الفصل الثامن :

وراء العذارى

وقد أصابت حين قدرت تلك المشاجرة . وربما كانت هذه المشاجرة هى المسئولة عما حدث بعد ذلك من اتجاه عواطفه . لان ديزى قالت له فيما قالت :

ـ اذا كنت يا صاحبى ستتحول الآن الى الجرى وراء العذارى ، فلن يصلح كل منا لصحبة الآخر !

وبسبب هذه الجملة الساخرة شرع فرانسوا منذ اليوم ينظر الى بيبى بعين مختلفة اختلافا كبيرا عن ذى قبل ، وبشىء كثير من الخجل وهو شعور لم يعهده فى نفسه . وزاد من ارتباكه أنها لاحظت ذلك التغير فى نظرته ، فظهر عليها شىء من السخرية والرضى . وبدأت تستجيب لضغط يده وهو يصافحها فى الصباح ، وأردفت ذلك على الفور بسؤال مباشر :

ـ هل غضبت صاحبتك غضبا شديدا ؟

ـ ليس لهذا أهمية على الاطلاق

وضحكت وقالت :

ـ أتعلم أن العلاقة بين أختى وأخيك وصلت الى مدى بعيد ؟

Add to Basket

ـ ماذا تعنين ؟

ـ انهما لا يكتفيان الان بالمقابلة اليومية ، بل يتبادلان الرسائل كل يوم ! هل تعيشان فى باريس ؟

ـ كلا بل فى الاقاليم ..

ـ آه ! .. لقد عشنا طول عمرنا فى الاستانة ، الى أن مات والدى . فعدنا الى فرنسا ، ووالدتى تملك دارا فى مقاطعة أوب ، دارا منعزلة عن كل شىء ، دارا قديمة توارثتها أسرتها ، وتحتاج الى اصلاحات وتعديلات ضخمة .

ـ فى أية بقعة من مقاطعة أوب ؟

ـ قرب موفران

ـ انها لا تبعد عن بلدنا اكثر من خمسة عشر كيلو مترا وكان صوته ينم عن الارتياح لاكتشافه ذلك التقارب .

وبعد ثلاثة أشهر ، فى كنيسة موفران الصغيرة ، تزوج الشقيقان من الشقيقتين . وسئمت مدام دونفيل الاقامة فى بيتها الريفى الكبير ، فرحلت الى المدينة فى منتصف الشتاء ، وخصصت يوما فى كل أسبوع تقضيه عند كل واحدة من بنتيها .

ولم يكن شىء من ذلك كله يحدث لولا أن بيبى استطاع منذ أول لحظة أن ترده الى سجيته . ولم تفعل ذلك اعتباطا . بل انها كانت منذ لحظة اللقاء فى البار تدرى تماما ماذا تريد بسبيله . وكان فرانسوا موقنا من ذلك . فانه يذكر جيدا أنها بمجرد انصراف ديزى ، اتخذت فى مشيتها بجواره طريقة تدعو الى الالفة ، فهى تحول عينيها نحوه عندما تتكلم . وتثبت نظراتها فى عينيه . وهناك اسلوب خاص لارتخاء الجسم حتى عندما تسير الفتاة وسط الزحام .

Add to Basket

لقد وضعت بيبى الخطة · الم يظهر عليها شيء من خيبة الامل عندما قال لها انهما لا يقيمان فى باريس ؟

كانت تريد أن تتزوج مثل شـــقيقتها التى اقتنصت خاطبا · كانت تريد بيتا خاصـــا بها ، فيه خدم يأتمرون بأمرها وهذا ما رسخ فى اعتقـــاد فرانســـوا طيلة هذه السنوات العشر · فهل كان يكرهها ؟

ان ذلك قد يكون مبالغا فيه · وكل ما هناك أنه ينظـر اليها أحيانا بعين النقد · ومنذ ليلة الزفاف وهو موقن بأنها ليست جسدا ممتعا · فلم يكن له فى يوم من الايام بجسدها التذاذ · ولم يحب بشرتها ناصعة البياض ، ولا ســـلبيتها التامة وتحديقها بعينين لا تطرفان ، ولا يجول فيهمـــا أى اضطراب وهى بين ذراعيه !

لقد ارادت أن تكون بيبى دونج · ولم يخالجه شك فى تلك الحقيقة مدى عشر سنوات · وكان سلوكه معها دائما نتيجة ذلك الاعتقاد · فهـو رجل من خلقه أن يواجه الواقع ويتحمل جميع نتائجه المنطقية ·

وعندما وصل فى ذكرياته الى هذا الحد سمع صـــوتا يقول :

ـ ان قاضى التحقيق اتصل بى تليفونيا هذا الصـــباح ليسأل ان كان فى استطاعته ان يستجوبك اليوم ··

واكتشف فرانسوا أن الطبيب واقف بجوار فراشه يهز مقياس الحرارة · ثم سمعه على الاثر يستطرد :

ـواعتقد أننى كنت محقا حين ذكرت له أنك بحاجة الى التزام الراحة التامة بضعة أيام · فالواقع أن غسيل المعـدة سبب لك اعياء شـــديدا ·· وعلى كل حـال لم يلح قاضى

Add to Basket

التحقيق ، بل قال ان المسـألة ليست ذات أهمية بالغة ، مادامت « هى » معترفة بجريمتها ٠

وانزعج الطبيب انزعاجا شديدا لنظرة الدهشة البالغة التى رماه بها فرانسوا عندما سمع منه لفظ « جريمتها » ٠ ولذا بادر يقول :

ـ لعل من الواجب أن اعتذر لاشارتى الى ذلك الموضوع ، ولكنى قدرت أن المودة التى بيننا تجيز لى ٠٠

ـ أصبت يا دكتور فى هذا التقدير

ـ ساعود بعد الظهر لفحصك ٠ وأعتقد أن الحقنة التى أعطيتك اياها الان ستجعلك تنام بضع ساعات ٠

وأغمض فرانسوا عينيه قبل أن يغادر الطبيب الحجرة ٠ وشعر شعورا غامضا بدخول الاخت آدونى لاغلاق المصاريع الخشبية للنافذة ٠ ثم استطاع أن يسمع زقزقة العصافير وحديث المرضى فى الحديقة بصورة غير واضحة ٠ وقرب الظهر سمع صوت جرس الغداء بصورة أوضح ٠

ولما تنبه من نومه تماما ، بذل مجهودا فى تركيز ذهنه ٠ لانه سيعود بافكاره الى ماض بعيد جدا ٠ وهو لا يريد أن ينسى شيئا ، حتى أتفه التفاصيل ٠

وذكره جر المستشفى بجو مستشفى آخر وضعت فيه بيبى ابنهما جاك ٠ وكان الوقت صباحا وقد جعلوه ينتظر فى الحديقة التى كانت حافلة بالزنابق ، لان الوقت كان فى شهر ابريل ٠ ومن الحديقة استطاع أن يسمع الاصـوات الصادرة من الحجرات والدهاليز ٠ الى أن دعى للدخول ، كما دعى شقيقه فليكس للدخول عليه بعد طول انتظار فى الدهليز ٠

وكانت بيبى تبتسم ابتسامة تنم عن القلق ٠ فخيل اليه

Add to Basket

انها آسفة لان زوجها رجل ، ولا يمكن ان يقاسى ما قاسته من آلام المخاض • وربما حنقت عليه لان الحيـاة لا تفرض عليه تغيير نسق معيشته بعد ان أصبح أبا • ومن يدرى ؟ ربما كان أيضـــا قد استفاد من رقادها فى المستشفى واستمتع باللهو هنا وهناك ••

وكانت أولى كلماتها اليه :

ـ لقد حضرت والدتى أمس • وهى مصرة على أن الطفل ليس فيه شىء من ملامح أسرتنا • بل من آل دونج مائة فى المائة •

وبعد قليل سالته عن أحواله فى غيابها وعن قيام الطاهية كلو بخدمته وبنظافة البيت وترتيبه •

وكان البيت وقتئذ هو بيت أبيه القديم ، بجوار مصـنع الدبغ على ضفة النهر • وكان قد أدخـــل على ذلك البيت تعديلات عصرية كثيرة ، بيد أنه ظل محتفظا بطابعه العتيق، فهناك دهاليز كثيرة وجدران لا معنى لها ، وحجرات أرضها منخفضة عن مستوى سائر البيت • وكانت مدام دونفيـل دائمة الشكوى من ذلك التيه كمـا تســـميه وتســتحث فرانسوا على بناء بيت جديد •

أما فليكس وجان فكانا يعيشان على مسافة غير بعيـدة فى بيت أقرب الى الطراز الحديث • ولكن جان كانت غير مولعة بالتدبير المنزلى أو رعاية شئون الاطفال • فأحب شىء اليها أن تقرأ وتدخن فى الفراش ، أو تلعب البريدج ، أو تشترك فى الجمعيات الخيرية لما فيها من تسلية ونشاط وثرثرة • ولم يكن من المستغرب أن تقول لزوجها :

ـ اذا لم أعد حتى الثامنة يا فليكس ، فضع الطفلين فى فراشيهما •

Add to Basket

ويضع فليكس الطفلين فى فراشيهما !

ولكن ما هذه الضجة المفاجئة كأنها ضجة خروج الناس من القداس يوم الاحد ؟ آه ! انه يوم الزيارة الاسبوعية وقد فتحت الابواب الآن وتدفقت عائلات المرضى حاملة عناقيد العنب والبرتقال والحلوى ولكن الاخت آدونى واقفة كالديدبان الساهر أمام باب الحجرة ، وقد سمع صوتها تقول :

ـ الهدوء من فضلكم ! هنا حالة خطرة فى هذه الحجرة !

ولا يدرى بعد ذلك هل غفا قليلا أم لا . فقد تراءت له حجرة مكتب قاضى التحقيق ، وفى ركن منها حوض لغسيل الوجه واليدين من الصينى . لم يفهم الحكمة من وجوده فى مكتب قاضى التحقيق .

ولم يكن زار مكتبه من قبل . وان كان قد رأى قاضى التحقيق شخصيا منذ شهر تقريبا ، وهو رجل أقرب الى البدانة أصلع الرأس ، وله زوجة يشبه وجهها وجه فرس !

ورجح لديه أن بيبى لابد قد عنيت بانتقاء الثوب الذى ترتديه أثناء التحقيق ولا يمكن أن يكون من قبيل الثوب الذى كانت ترتديه يوم الاحد . كلا ! لابد أنها اختارت تاييرا محتشما ، فهى ذات ذوق حسن . ولكن ما جدوى كل هذه الاسئلة والتحقيقات ، انها لن تذكر لهم شيئا . لانها عاجزة عن الحديث عن نفسها ..

هل ذلك عن حياء ؟ أو عن كبرياء ؟

لقد رماها ذات يوم فى لحظة غضب بان اسرتها كلها يكاد ياكلها الكبر . فقد نشأت فى الاستانة فى جو

Add to Basket

الدبلوماسيين المترف على ضفاف البسفور · وأين ذلك من جو المدبغة الذى نشأ فيه الشقيقان دونيج اللذان ينحدران من صلب أب كان صـــانعا ماهرا ، وظل الى ختام حيـاته نموذجا لطبقة الاسطوات ؟

وعندما وصل بخواطره الى ذلك الحد انتابته الآلام مرة أخرى ، وعاوده النزف · ودخلت عليه الاخت آدونى جزعة لتسعفه بالعلاج ·

Add to Basket

الفصل التاسع :

قاضى التحقيق

فى هذا اليوم قامت خادمتان لا خادمة واحدة بتنظيف الحجرة وتلميعها ، وساعدتهما فى ذلك الممرضة . أما الاخت آدونى فكانت مهتمة كأنما الزائر هو أسقف الاقليم ، فتأكدت بنفسها من كل شىء :

ـ ضعى المنضدة بجوار النافذة ... كلا . يجب أن يكون الكرسى فى الناحية الاخرى والا لم يجد نورا كافيا للكتابة ..

وكان ذلك كله خصيصا من أجل رجل بدين أصلع ، وصل فى النهاية بخطوات مسرعة ، واخترق الدهاليز فى حيرة وارتباك ومن ورائه شاب متأنق فى هندامه ، مثل آلاف الجماهير من صغار الناس الذين تكتظ بهم الشوارع فى أيام الآحاد .

وظل قاضى التحقيق السيد جيفر يقول ردا على عناية الراهبة :

ـ نعم أيتها الاخت .. شكرا أيتها الاخت .. لا تتعبى نفسك أيتها الاخت .

وكان هذا القاضى قد انتقل الى المدينة الصغيرة من مدينة

Add to Basket

شارتر • فلم يكن في هذا التنقل أى معنى من معاني الترقية • ومعتقداته السياسية تميل به الى اليمين المتطرف • وكان الناس يسخرون منه لارتدائه البيريه وركوبه الدراجة ، وبسبب أطفاله الستة الذين يخرج بهم للنزهة سيرا على الاقدام في وقار وزهو كأنما هم في عرض رسمى !

وظل السيد جيفر بعد وصوله الى المدينة شهرا كاملا ، وهو عاجز عن العثور على مسكن مناسب • وأخيرا سمح له طبيب يقيم في الضواحي أن يسكن بيته القديم الذى لم تدخله الكهرباء أو المياه بعد . فاستقر فيه مع أسرته العديدة •

فهل رأى السيد جيفر فرانسوا دونج في الشارع ذات يوم ؟ ربما • ولكنه على كل حال لابد أنه قد سمع عنه • بيد أن الرجلين لم تسنح لهما فرصة التلاقي قبل اليوم • فاكتفى قاضي التحقيق عند دخول حجرة المريض بالانحناء ، ثم قطع الخطوات الاربع نحو المنضدة الصغيرة التي كانت معدة لاستقباله بالقرب من النافذة •

وفتح السيد جيفر حافظة أوراقه ، ثم قال :

ـ لقد أخبرنى الدكتور ليفير أني أستطيع أن أمكث معك نحو نصف الساعة • ولكن هذا لا يمنع بطبيعة الحال من أن تشعرني عند أول بادرة تعب فأغادرك على الفور • والآن سأبدأ بعد اذنك ••• ما اسمك ؟

ـ فرانسوا شارل اميل دونج • ابن شارل ايبير كرتيان دونج الدباغ ، واميل أورتنس فيلاتر ، ولم تكن لها مهنة ، وكلاهما قد توفى •

Add to Basket

ـ هل صدرت ضدك أحكام من قبل ؟

وأسرع قاضى التحقيق بعد ذلك السؤال فلوح بيده كمن يهش ذبابة ، وتنحنح . ولم يكن حتى هذه اللحظة قد نظر الى جهة الفراش حيث كان فرانسوا دونج مضطجعا ، ومن خلف ظهره عدة وسائد . ومن خلال النافذة كانت تصل أصداء خطوات المرضى الناقهين فوق حصباء الحديقة وهم يتنزهون .

واستطرد قاضى التحقيق فى الاسئلة :

ـ فى يوم الاحد العشرين من أغسطس ، أثناء وجودك فى مقرك الريفى المعروف باسم مزرعة البلوط ، فى ناحية أورانى ، وقعت محاولة لتسميمك .

وساد الصمت . فرفع قاضى التحقيق عينيه ورأى فرانسوا دونج ينظر اليه باهتمام ، ولما طال النظر والصمت ساله :

ـ أتوافق على هذه العبارة ؟

ـ لا أدرى ...

فتنحنح قاضى التحقيق مرة أخرى ، وقال :

ـ ان الدكتور بينو الذى استدعى على الفور قرر لنا أنه لا محل للشك فى ذلك ، وأنك فى نحو الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم المذكور قد تجرعت كمية ضخمة من الزرنيخ ، ومن المحتمل أنك تجرعتها مذابة فى قهوتك .

وساد الصمت مرة أخرى

ـ أتنكر هذه الوقائع ؟

وبصوت هادى للغاية قال فرانسوا دونج :

ـ كل ما أقر به أننى كنت مريضا جدا

Add to Basket

فتنحنح قاضي التحقيق ، وقال :

ـ وبعبارة أخرى أنت ترفض أن تميط اللثام ؟

ومرة أخرى ساد الصمت ، فاضطر قاضي التحقيق أن يستأنف الكلام من جانب واحد :

ـ وفي هذه الحالة يجب أن أبصرك بحقيقة الموقف . وفحواه أننا على ضوء الظروف التي اكتنفت الحادث سنكون مضطرين لاقامة الدعوى ، حتى ولو لم ينشط المجني عليه لتوجيه الاتهام مباشرة .

ولم يفتح فرانسوا فمه . بل ظل ينظر الى قاضي التحقيق نظرته الى جميع الناس ، في ثبات وجمود . وكان مادار براس فرانسوا في هذه اللحظة هو التساؤل حول شخصية ذلك القاضي وكيف يستطيع القيام بأعباء وظيفته الدقيقة وهو مشغول الذهن باطفاله الستة ، وعليه أن يقطع راكبا دراجته ثمانية كيلو مترات من البيت الى المدينة ، ومثلها حين العودة . وكيف يتسنى لمثله بمجرد فتح ملف من الاوراق أن يكتشف أدنى ذرة من الحقيقة عن بيبي دونج مع أن زوجها الذي عاش معها عشر سنوات عاجز عن ذلك ؟

وكأنما ثقل الصمت على قاضي التحقيق فرأى أن يبذل محاولة جديدة لاخراج فرانسوا دونج :

ـ والان ، ساتجاوز قليلا الحدود الرسمية واسمح لنفسي بأن أقرأ تقرير مدام دونج كما ورد في التحقيق الابتدائي . أو بعبارة أدق أقوالها التي أفضت بها الى الجاويش جانفيية في يوم الاحد الموافق ٢٠ اغسطس في الساعة الخامسة مساء ...

Add to Basket

ـ انا أوجيني بلانش كليمانتين • وعمـــري ســبعة وعشرون عاما ، زوجة فرانسوا دونج ، أقــرر تحت اليمين ما يأتي : انني اليوم أثناء وجودي في مزرعة البلوط وهي المقر الريفي المملوك لزوجي وشقيقه على الشـــيوع ، قد حاولت ان اسم زوجي فرانســـوا دونج ، بدس كمية من الزرنيخ في قهوته • وليست لدى أقوال أخرى !

ورفع قاضي التحقيق عينيه عن الورقة ليلمح ابتســامة تلوح على شفتي فرانسوا ، فقال وهو يغالب عجبه :
ـ ها أنت ترى أن زوجتك تعترف بالواقعة !

وأحس السيد جيف احســاسا قلما خامره ، وهو أنه يتدخل فيما لا يعنيه وهو جالس في مواجهة ذلك المريض • وغالب ذلك الشعور أيضا ، وقال :

ـ والآن سأتلو عليك تسجيلا حرفيا لأقوال المتهمة التي وردت في التحقيق الذي أجريته شخصيا بالامس •••
وقعت كلمة المتهمة على أذن فرانسوا وقعا غريبا حقا ، فلم يتمالك نفسه من الاجفـــال • وأدرك قاضي التحقيـق الموقف فندم على تسرعه في اختيار اللفظ ، ولكن الســهم كان قد نفذ •

وركز فرانسوا ذهنه ليتخيل بيبي أثناء ذلك التحقيق • وتســاءل هل كانت ترتدي ثوبا عاديا أم تاييرا ؟ • لانه شعر قبل سماع أقوال بيبي بضرورة تجسيم صـــورتها الدقيقة امام ذلك القاضي ، ونبهه صوت القاضي وهو يقول له :

ـ سأوفر عليك عناء سماع المقدمات الشكلية ، وسأتلو عليك الاسئله والاجابات الجوهريه في الموضوع •

Add to Basket

فأومأ فرانسوا برأسه علامة على استعداده للسماع :

س : متى بالضبط قررت الاعتداء على حياة زوجك ؟

ج : لا أدرى بالضبط

س : هل كان ذلك قبل الاعتداء ببضعة أيام ؟

ج : كلا

س : ببضعة أسابيع ؟

ج : كلا

س : ببضعة أشهر ؟

ج : ربما ببضعة أشهر

س : لماذا تقولين ربما ؟

ج : لانها كانت عندئذ فكرة غامضة جدا

س : ماذا تعنين بفكرة غامضة جدا ؟

ج : ذلك أنى شعرت شعورا مبهما أننا لابد أن نصل حتما الى هذه النتيجة فى النهاية ، ولكنى لم أكن واثقة وقتئذ .

وعندئذ تنهد فرانسوا ، فرفع قاضى التحقيق عينيه ونظر اليه مستطلعا ، ولكن تلك النظرة جاءت بعد فوات الاوان ، فلم يقرأ على سحنة فرانسوا شيئا سوى الانتباه التام لما يسمع .

وتنحنح قاضى التحقيق ، وسأله :

ـ هل أستمر فى القراءة ؟

وأومأ فرانسوا برأسه ولم يتكلم . فسأله القاضى :

ـ ألم تشعر بالتعب ؟

ـ اطلاقا

Add to Basket

فتنحنح القاضي مرة اخرى ، وقال :
ـ اذن ساستأنف القراءة
وثبت نظره على الورقة :
س : ماذا تعنين بقولك اننا لابد أن نصل حتما الى هذه النتيجة ؟
انك تستعملين هنا ضمير الجمع بصورة لا افهمها
ج : ولا أنا !
س : هل ظل سوء التفاهم فيما بينكما قائما منذ زمن طويل ؟
ج : لم يحدث اطلاقا فى أى وقت من الاوقات أن قام سوء تفاهم فيما بين زوجي وبيني !
س : اذن ما الذى يحنقك عليه ؟
ج : لست حانقة عليه
س : هل لديك دواع للغيرة ؟
ج : ليست لدي فكرة عن هذه الدواعى . ولكنى لست غيرى
س : اذا لم نستطيع أن نعزو فعلتك الى الغيرة ، فما هو الباعث لك على ارتكابها ؟
ج : لا أدرى !
س : ألا توجد فى أسرتك أية حالة من حالات المرض العقلى ؟
ج : كلا
س : بأى مرض مات والدك ؟
ج : بالدوسنتاريا الاميبية
س : ووالدتك ؟

Add to Basket

ج : لم تزل على قيد الحياة
س : هل هى سليمة البدن والعقل ؟
ج : أجل
س : ان الدكتور بولنجيه الطبيب الشرعى الذى فحصك من هذه الناحية قدر مسئوليتك الكاملة عن أفعالك . والان ما هى طبيعة العلاقات التى كانت قائمة بينك وبين زوجك ؟
ج :كنا نعيش معا تحت سقف واحد ، ولنا ابن
س : وهل كان من المألوف أن ينشب بينكما شجار ؟
ج : لم يحدث اطلاقا أن نشب بيننا شجار فى أى يوم من الايام
س : هل لديك معلومات مستقاة من بعض الدلائل تحملك على الاعتقاد أو الظن بأن زوجك له علاقات خارجية ؟
ج : لم أفكر اطلاقا فى شىء من هذا
س : وبفرض أنك علمت شيئا من ذلك أو ظننته ، هل كنت تعملين على الانتقام لنفسك منه بأية صورة من الصور ؟
ج : ماكنت لاتأثر بشىء من ذلك
س : انك بالاختصار تصرين على أنك ظللت مدى بضعة أشهر تخامرك فكرة الاقدام على قتل زوجك بصورة غير واضحة . ولكنك لا تعلمين السبب الذى حدا بك الى ذلك التصميم ؟
ج : بالضبط
س : أين ومتى حصلت على السم ؟
ج : لا أستطيع أن أخبرك بالتاريخ على وجه التحديد
س : وعلى وجه التقريب ؟
ج : كان ذلك فى يوم من أيام شهر مايو

Add to Basket

س : أى قبل الجريمة بثلاثة أشهر ؟
ج : تماما
س : وكيف حصلت عليه ؟ من أين ؟
ج : نزلت الى المدينة لشراء أشياء متباينة • أذكر من بينها على الخصوص أنواعا من العطر كنت بحاجة اليها ••
س : لحظة واحدة من فضلك • قلت انك فى مايو نزلت الى المدينة فهل افهم من ذلك أنك تعيشين فى مزرعة البلوط معظم أيام السنة ؟

ج : الواقع أننى فى الثلاث سنوات الاخيرة أقيم بصفة عامة هناك طول الوقت ، لاسباب تتعلق بحالة ابنى الصحية

س : هل يشكو ابنك من مرض معين ؟
ج : انه وان لم يكن مريضا بصفة فعلية ، الا أن صحته ضعيفة وتكوينه الدقيق يحتاج الى الهواء الطلق النقى باستمرار

س : وهل يعيش زوجك معكما فى مزرعة البلوط ؟
ج : ليس كل الوقت • فهو يحضر الى هناك لقضاء يومين أو ثلاثة أيام فى الاسبوع أحيانا • واحيانا أخرى يأتى فى المساء ليعود فى الصباح التالى
س : شكرا لك • استمرى
ج : أين وقفنا ؟

س : وقفنا عند نزولك الى المدينة فى يوم من أيام شهر مايو لشراء أشياء متباينة ، منها على الخصوص أنواع من العطر
ج : تذكرت ، كان ذلك نحو منتصف الشهر • وفى

Add to Basket

المدينة اكتشفت أننى لم أحضر معى مبلغا كافيا من النقود . فتوجهت الى المصنع ..

س : الى مصنع زوجك ؟ وهل تذهبين الى هناك كثيرا ؟

ج : كلا . بل قلما أذهب الى هناك . فشئون عمله لا تعنينى . ولم أجده فى مكتبه ، فتوجهت الى المعمل الكيماوى الخاص به ، ظنا منى أنه قد يكون هناك . فزوجى كيمائى ، وهو يهتم أحيانا بأجراء بعض التجارب بنفسه ... وفى دولاب زجاجى صغير رأيت مجموعة من القوارير عليها بطاقات ..

س : لحظة واحدة من فضلك . ألم تفكرى فى استخدام السم قبل ذلك اليوم ؟

ج : لا أظن هذا . فان كلمة الزرنيخ التى قرأتها على احدى القوارير استرعت انتباهى ، فأخذت القارورة بما فيها من مسحوق أبيض يميل الى اللون الرمادى ووضعتها فى حقيبة يدى بسرعة

س : وفى هذه اللحظة ، هل نبتت لديك فكرة استخدام الزرنيخ ؟

ج : ربما . من الصعب الجزم على كل حال . وبعد ذلك مباشرة حضر زوجى وأعطانى النقود التى أريدها

س : وهل كان من المحتم أن تقدمى اليه حسابا عما تنفقين من النقود ؟

ج : لقد كان دائما يعطينى كل ما احتاج اليه من المال

س : وهكذا ظللت تخبئين السم مدى ثلاثة أشهر فى انتظار اللحظة المناسبة لاستخدامه ؟

ج : أجل

Add to Basket

س : وما الذى جعلك تختارين ذلك اليـــوم للتنفيذ ، دون سواه من الايام ؟

ج : لا أدرى . وأشعر الان بالتعب ، فاذا لم يكن لديك مانع ..

ورفع السيد جيفر رأسه ، وقد ارتســـمت على ملامحه امارات الجد والحرج . فلو كان فى رأسه الاصلع شـــعر لتخلله باصابعه !

ــ وهذا ياسيد دونج هو كل ما وفقت الى الحصول عليه من فمها . وكنت آمل أن تزودنى أنت بما يلقى مزيدا من الضوء على القضية

ونسى السيد جيفر وضعه الرسمى فنظر الى فرانســوا دونج نظرة رجل الى رجل ، ووقف وأخذ يذرع الحجـــرة البيضاء النظيفة الواسعة جيئة وذهابا ، وقد دس يديه فى جيبى بنطلونه الواسع ، واستأنف الكلام :

ــ ليست بى حاجة الى ان أقول لك ياســـيد دونج أن جميع الناس فى المدينة يلغطون بالكلام حول هذه القضية . وكل منهم يعتقد أنها جريمة عاطفية . ولا أكتمك أن الالسنة لاكت أسماء معينة . وأنا لا أجهل أن مثـــل تلك الشرثرة لا يمكن أن يكون لها تاثير على العدالة وعلى القضاء .

وتنحنح قاضى التحقيق وسكت برهة ، ثم قال :

ــ والان ، هل لاحظت اية علامة يمكن أن تؤدى الى الظن بان زوجتك كانت تعلم أى شىء بخصوص أية علاقة غرامية لك بامرأة أخرى ؟

وكان قاضى التحقيق يتكلم عن هذه المســـالة بسرعة خاطفة كمن يريد أن يفرغ من موضوع محرج لسامعه غاية

Add to Basket

الحرج . بيد أن سامعه أدهشه غاية الدهشة حين أجابه بهدوء تام قائلا :

– ان زوجتى تعلم كل شىء عن علاقاتى النسائية

فحملق قاضى التحقيق المسكين فى وجه فرانسوا برهة طويلة كالمصعوق ، ثم سأله بصوت يحمل كل آثار الارتياع:

– أتعنى أنك كنت تخبرها ؟

وبنفس الهدوء قال فرانسوا :

– اذا ما سألتنى !

فمال قاضى التحقيق برأسه الى الإمام ، وقال ببطء :

– لا تؤاخذنى على الحاحى الشديد فى هذه النقطة بالذات . فانا فى غاية الدهشة ولذا أرانى بحاجة الى مزيد من الايضاح

فأومأ فرانسوا برأسه كمن يشجعه على السؤال ، فقال القاضى :

– أتريد أن تقول ياسيد دونج أنه لم تكن لك علاقة غرامية واحدة بل جملة علاقات ؟

– ان عددها ليس كبيرا جداً . انها علاقات قليلة فى الواقع ، ومعظمها غير ذات أهمية . وهى فى الغالب خالية من العقبات

وازداد تحديق السيد جيفر ، وهو يسأل :

– وعندما تعود الى البيت فى كل مرة تخبر زوجتك بما حدث ؟

– كنت أنظر اليها كصديقة . وكانت ترفع عنى الضيق والحرج وتردنى الى سجيتى

ونطق بهذه الكلمة الاخيرة بصورة آلية تلقائية ، لم

Add to Basket

بلبث أن لفتت نظره فكف عن الكلام ، واستغرق فى التفكير الى أن سأله القاضى :

ـ وهل استمرت هذه الاعترافات تجرى بينك وبينها منذ أمد طويل ؟

ـ منذ بضع سنوات

ـ كم سنة ؟

ـ لا أستطيع أن أحدد بالضبط

ـ ومع ذلك ظللتما زوجين ؟

ـ كما ترى

ـ ليس هذا ما أعنيه . بل أعنى هل ظلت العلاقات الزوجية مستمرة رغم هذه الاعتراضات بصورة عادية ؟

ـ ليست بصورة متواترة

ـ هل أفهم من هذا ... ؟

ـ ليس بالضبط . بل ان صحة زوجتى ولا سيما بعد الوضع ..

ـ آه . فهمت . لقد سمحت لك أن تنشد عند سواها ما أصبحت عاجزة عن تيسيره لك بنفسها

ـ هو شىء من ذلك . وان لم يكن هكذا تماما

ـ ألم تلمح لديها أدنى علامة على الغيرة ؟

ـ اطلاقا

ـ الى النهاية ؟ أى حتى يوم الاحد الذى وقع فيه الحادث، ظللتما صديقين كسابق عهدكما ؟

فأجال فرانسوا عينيه ببطء فى قاضى التحقيق من أعلى رأسه الى أخمص قدميه . فرآه فى وسط عائلته الكبيرة ، فى ذلك البيت العتيق الواسع الارجاء الذى يعرفه جيدا .

Add to Basket

ثم رآه على الطريق الزراعى راكبا دراجته وقد حزم كاحليه لتسهيل حركه الركوب . ثم تراءى له فى يوم الاحد خارجا من الفداس الكبير مع أطفاله الستة وحرمه المصون !

وبعد فترة صمت طويلة فتح فرانسوا فمه ، وقال :

ـ أجـل

وكان كاتب التحقيق يسجل المناقشة فى مثابرة ودقة . وقد سقط من النافذة شعاع الشمس ، والتمع على شعره المضمخ بكمية ضخمة من الزيت .

ومرة أخرى عاد قاضى التحقيق ، يقول :

ـ اتسمح لى يا سيد دونج أن أتعمق فى هذه النقطة بالذات ..

ورشق فرانسوا بنظرة الاشفاق التى تعنى أنه يقدر مافى الالحاح من ايلام ، ولكن لامندوحة من أداء الواجب فقال فرانسوا باقتضاب .

ـ ليس عندى ما أقوله لك أكثر مما قلت ياسيد جيفر !

ورنت كلمة السيد جيفر هذه على غير انتظار ، فنظر كل منهما الى الاخر بشىء من العجب . فقد جاءت لتنبههما الى أن الموقف بينهما لم يعد موقف قاضى التحقيق من شاهد أو مجنى عليه ، بل هو موقف رجل أمام رجل ، يكتنفهما الحرج .

وتنحنح قاضى التحقيق ثم التفت ناحية كاتب الجلسة كأنه يدعوه الى حذف كلمة السيد جيفر من المحضر ، ولكن الكاتب المدرب لم يكن بحاجة الى ذلك التنبيه .

واستطرد قاضى التحقيق فقال :

ـ الواقع يا سيد دونج أنى متلهف على تقديم هذا الملف الى رئيس النيابة بأسرع وقت ممكن ، حتى نقضى على

Add to Basket

النخرصات والبلبلة التي تنشأ حتمـا بسبب مثل هذه القضية في مدينة صغيرة كهذه

ولم يعلق فرانسوا على ذلك بل سأل القاضي :

ـ هل اختارت زوجتي محاميا ؟

ـ لقد رفضت في البداية ان تتخذ محاميا . فلما الححت عليها اختارت في النهاية محـاميا بارعا من الاسـتاذ بونيفاس .

والاستاذ بونيفاس هو أفضل محام مترافع في الاقليم . وعمره نحو ستين سـنة ، له لحية ، وقور ، وشـهرته العظيمة تجاوزت الاقليم الى جميع المقاطعات المتاخمة

واستانف القاضي الكلام :

ـ وقابل الاستاذ بونيفاس موكلته بعد ظهر أمس . وقد ادركت عندما حضر لمقابلني بعد ذلك انه لم يخرج منهـا بخير مما خرجت به أنا

وقال فرانسوا في نفسه :

ـ أحسن ! فما شأنهما بهذا الموضـوع ؟.وما الذي يريدان اكتشافه على كل حال ؟ ماذا ؟ وما الذي يمكن أن يصنعاه بالحقيقة لو فرضنا المستحيل وعثرا عليهـا ؟ الحقيقة ! ما هي ؟

وبصوت مسموع قال فرانسوا :

ـ اسمع ياسيادة القاضي

ـ اني مصغ !

ولكن فرانسـوا دونج أعتقد أن الوقت لم يحن بعد للكلام ، فقال :

ـ عفوك . لا أدري ماذا كنت أهم بقـوله .. وانت

Add to Basket

تفضلت في أول ؛ جلسة وعلمت لي أنك مستعد بمجرد شعوري بالتعب ..

ولم يكن ذلك صحيحا بالمرة . فذهنه لم يكن في اى وقت أصفى مما هو الان . وقد اجدى عليه الحديث كثيرا ، لانه كان بمثابة تمرينات ذهنية طردت من دماغه الصدأ ونسيج العنكبوت

وأسرع القاضي يقول :

ـ فهمت .. سنتركك الان .. ولكن أرجوك أن تعيد التفكير في المسألة . وأنا واثق أنك ستتبين بعد اعمال فكرك أن من واجبك ومن مصلحة زوجتك ، ومن صالح العدالة نفسها ..

ـ طبعا طبعا يا « سيادة القاضي » ! انك رجل فاضل ، ومواطن نموذجي ، وزوج وأب مثالي ، نزيه ، ولا تخلو من ذكاء . وفي نيتي عندما أغادر المستشفى أن أساعدك في العثور على بيت في المدينة يناسبك . فانا أعلم بهذه المدينة من كل انسان ، ولي نفوذ فيها . ومن ذلك تدرك أني غير حانق عليك ، بل أقدر موقفك . ولكن لا تحاول بحق السماء أن تفهم بيبي دونج ، فذلك موضوع أعوص من طاقتك !

وأخرجه من حديثه الداخلي بينه وبين نفسه قول القاضي :

ـ آسف لاني أتعبتك يا سيد دونج

ـ لم تتعبني اطلاقا .. عفوك

ـ طاب يومك ياسيد دونج

وانحنى قاضي التحقيق في وقار وغادر الحجرة ووراءه الكاتب .

Add to Basket

الفصل العاشر :

مع جاليبر

وما ان خرج قاضى التحقيق وكاتبه حتى جلس فرانسوا على فراشه وجعل يحملق فى المنضدة التى كان يشغلها الكاتب باوراقه ، وحدث نفسه بأن بيبى تصرفت مع المحقق التصرف الذى كان ينبغى عليها بالضبط • والحقيقة أنه لم يشعر في وقت من الاوقات أنه قريب منها ، مثل شعوره الآن ، وجانب لا يستهان به من اجاباتها فى التحقيق كان خليقا ان يكون رده على تلك الاسئلة لو انها وجهت اليه ، حتى لقد شعر أثناء قيام القاضى بتلاوة المحاضر برغبته فى الابتسام ، ابتسامة الرضى والموافقة

فهل تراه كان سعيدا فى تلك اللحظة ؟

انه لم يوجه الى نفسه ذلك السؤال ؛ بيد أنه يشعر بالخفة والارتياح وعلى هذه الحالة وجدته الاخت أدونى عندما دخلت عليه تستشيره فى فتح النافذة ، فقال لها :

ــ هذا تلطف منك يا أختاه •• نعم افتحيها من فضلك • فقد بدأت احب هذا الفناء الظليل واولئك المرضى بمشيتهم البطيئة ••• وبالامس رأيت أحدهم ، وهو رجل مسن ، يتوارى وراء شجرة ليدخن ••

فوضعت الاخت آدونى سبابتها على فمها ، وقالت :

Add to Basket

ـ صه .. ! فانك ان اخبرتنى ساضطر لتوقيع العقاب عليه

فسالها بدهشة :

ـ وما العقوبة التى توقعينها عليه ؟

ـ سأحرمه من منحة الاحد

ـ وما حكاية هذه المنحة ؟

ـ اننا نعطى العجائز المقيمين فى المستشفى بسبب عجزهم عن العمل منحة مالية صغيرة كل يوم احد للترفيه عن انفسهم .

فلمعت عيناه ، وقال لها :

ـ ان حافظة نقودى موجودة فى احد جيوبى المعلقة هناك . فخذى كل ما تجدينه فيها ، مساهمة منى فى منحة الاحد لعجائزك .

فنفذت الاخت آدونى رغبته ، ثم قالت :

ـ اوه ! لقد نسيت فلديك زائر ، ولكن لا ادرى ..

فقاطعها فرانسوا قائلا :

ـ اقسم لك ايتها الأخت انى لست متعبا . فمن هو هذا الزائر ؟.

ـ الدكتور جاليبر .

وبطبيعة الحال كانت الاخت الصالحة قد سمعت ايضا بما تناقلته الألسنة . وكان ذلك واضحا جدا من حيالها المخدوش عند ذكر الاسم .

ـ دعيه يدخل يا أخت .. فلابد انه منزعج جدا .

ـ انه فى الواقع مكث يدرع هذا الدهليز منذ نصف ساعة ، وهو لا يكف طول الوقت عن التدخين .. ولم اجسر على تنبيهه الى مخالفة ذلك للتعليمات ، لانه طبيب.

وادخلت الأخت الطبيب جاليبر ، فدخل مندفعا ، وقد وضع على فمه ابتسامة ثابتة ، وصاح بصوت مرتفع :

Add to Basket

ـ كيف صحتك أيها العجوز ؟ أرجو ألا تكون الحالة سيئة جدا .. لقد أخبرني ليفير أنك تحملت الآلام بشجاعة .

وعندئذ غادرت الاخت آدوني الحجرة وقد ارتسم الانكار على كيانها كله ، واستطرد الدكتور جاليبر :

ـ لقد قابلت قاضي التحقيق منذ قليل وهو خارج . واتفق أنني حضرت للمستشفى كي أعود أحد مرضاي النازلين هنا .. وما كنت لازعجك لو لم يخبروني أنك أصبحت اليوم على ما يرام .. فهل لا يضايقك أن ادخن ؟.

فأومأ فرانسوا برأسه موافقا . وعندئذ أشعل جاليبر سيجارة ، وبدأ يذرع الحجرة . ثم توقف . ثم اتجه نحو النافذة . وكان جاليبر نحيفا سيء التكوين ، قبيح النفس والجسم معا . وأخيرا قال :

ـ أظن أن ذلك المسكين العجوز جيفر حاول أن ينتزع منك ما يريد .

ـ انه على العكس كان لبقا جدا .

فابتسم جاليبر ابتسامة تدل على القلق ، وقال :

ـ هل كان بعيدا عن الفضول والتطفل ؟.

ـ انه يبذل غاية جهده للعثور على الحقيقة ، الحقيقة التي لم أزل شخصيا أجهلها .

فزوى جاليبر ما بين حاجبيه ، وقال بلهجة فجة :

ـ أنت تمزح !.

وشعر فرانسوا بالضيق . لاضطراره من أجل خاطر أولجا جاليبر التي يدللونها باسم لولو ، ومن أجل جسدها المائع الذي يتفجر بالانوثة ورحيق الحياة ، ومن أجل

Add to Basket

أقبالها على الهوى اقبال مشوق مستهام ، تخلع فى غمار لذاته العذار ، ولا تبالى جمحاتها بأى اعتبار . من اجلها يروض فرانسوا نفسه على تحمل هذا الزوج البغيض ، فيصافحه مبتسما فى مودة ، ويلاعبه البريدج ، ويعامله معاملة الصـــديق ! بل ويروض نفسه على مؤاكلته فوق مائدة واحدة ، من اجل مائدة اخرى شهية يصيب منها فرانسوا فى غفلة من صاحبها ولو فى الظاهر .

وتنبه على صوت جاليبر الكريه ، وهو يقول له :

ـ يجب أن تكون عرفت الآن ماذا سيكون دفاع زوجتك .. ويقال انها وكلت عنها بونيفـاس .. ولست ادرى ما الذى يمكن أن يقوله عجوز متعنت متزمت مثل بونيفاس دفاعا عن جريمة كهذه .

فادرك فرانسوا أن زوج عشيقته لابد أن يكون منزعجا جدا . فهو فى انتظار كلمة واحدة تسرى عنه هذا الفزع ، تنطلق من فم فرانسوا ولكن فرانسوا قرر أن يضن عليه بها ليزيد من كربه . وليعرف ماذا يمكن أن يصنع جاليبر ليحمله على الكلام .

واستطرد جاليبر قائلا :

ـ أن بونيفاس بلحيته المربعة وحاجبيـه الكثيفين ، ورداء المحاماة الاسود اللامع يكاد يبـدو للناس صورة مجسمة لقديس ... ومثل هذا الرجل لا يمكن ان يتردد فى سبيل الادلاء بمرافعة طنـانة رنانة عن جلب العـار والشنار على راس اية مجموعة من الناس ، متشـدقا باسم العفة والفضيلة ، فيهز مشاعر الجماهير .

وظل فرانسوا صامتا جامد الوجه ، فاضطر جاليبر أن يستطرد :

ـ ان تكليف محام من طراز بونيفاس بجريمة عاطفية

من شأنه .. وعندئذ قاطعه فرانسوا بصوت ناعم للغاية :
ـ ليس هناك تفكير فى اثارة اية ناحية عاطفية فى القضية !.
فبذل جاليبر جهدا كبيرا حتى لا يقفز فى الهواء من فرط السرور ولكى يبدو معقولا متزنا فى دهشته ، فقد قال :
ـ اذن ما الذى يمكن أن ينبنى على أساسه دفاع زوجتك ؟.
وبنفس الصوت الناعم للغاية قال فرانسوا :
ـ زوجتى لن تتقدم بأى دفاع عن نفسها !.
ـ أتنوى ان تنكر التهمة كلية ؟ ان الصحيفة هذا الصباح تقول ..
ـ ماذا تقول الصحيفة ؟.
ـ انها قد اعترفت بكل شىء ، وان الاعتراف كامل ، ويتضمن الاقرار بأنها دست لك السم مع سبق الاصرار.
ـ وهذا صحيح .
ـ وفى هذه الحالة ؟.
ـ وفى هذه الحالة لا شىء !.
ولم يستطع جاليبر أن يصدق أذنيه ، وهو الرجل الذى ما كان ليتردد فى قتل عشرة من مرضاه ان كان ذلك من شأنه أن يؤدى لتوسيع مستشفاه او شراء سيارة أفضل من سيارته ، ونظر الى فرانسوا بقلق ، وقد خطر له انه يعبث به ، ثم قال فى تردد :
ـ انها على كل حال يجب أن تتقدم بدفاع . ولهذا وكلت عنها محاميا بارعا .. وفى هذه الحالة ستضطر الى المساس بطرف ثالث .
وبالصوت الناعم جدا قال فرانسوا :

Add to Basket

ـ انها لن تتقدم بأى دفاع .

فابتسم جاليبر ابتسامة متهالكة ، وقال :

ـ لقد كانت على الدوام امراة مستعصية على الفهم . لقد كنت اتحدث عنها بالامس .. ولا اذكر الآن مع من .. فقلت عنها .

فقاطعه فرانسوا ، وقال باقتضاب :

ـ ما من أحد عرف ما يدور بخلد بيبى دونج .

ـ ربما كان السبب فى ذلك هو نشأتها فى الاستانة . ويجب أن تعرف بأن امها لا تخلو من غرابة الاطوار .. ولكن ما الدافع الذى تعلل به جريمتها على كل حال ؟.

ـ انها لا تذكر دافعا .. اى دافع !.

ـ هل ستدفع باختلال قواها العقلية ؟ ان هذا الدفع من الوجهة الطبية سائغ للغاية . وفيما يختص بى ستجدنى على أتم استعداد اذا أحتاج الأمر لشهادة أو تقرير .. بل انى تحدثت مع ليقير فى هذا الموضوع ، وهو مستعد لتوقيع الشهادة اللازمة .

فغالب فرانسوا نفسه حتى يبتسم ، وهو ينظر الى ذلك الطبيب المتحمس لعملية تزوير ، واستطرد جاليبر :

ـ انا اعلم أيها الصديق أن اتصالك ببونيفاس فى هذه الظروف لن يكون سليما . ولكنك تستطيع أن توسط فى ذلك صديقا موثوقا به ، كى يبلغه انه اذا راى من اللائق الدفع باضطراب قواها العقلية سيكسب القضية ، وانني من جانبى سأتولى تسوية المسالة مع الاطباء الذين تنتدبهم المحكمة لهذا الغرض .

... وظل فرانسوا ساكتا جامد الأسارير الى أن انتهى جاليبر من كلامه فقال له بهدوئه الكامل :

Add to Basket

ـ ان بيبى ليست مجنونة .. لا تنزعج يا جاليبر .. وسوف ترى ان كل شيء سيكون على ما يرام . والآن ارجو ان تسمح لى فقد حان موعد العلاج .

ومد يده ورن الجرس . ففتحت الاخت آدونى الباب ودخلت من غير ان تنتظر اذنا ، وسألته :

ـ هل ناديتنى ؟.

ـ يمكن البدء فى العلاج فورا يا اخت .

فقد كان متلهفا على الاختلاء بنفسه ، وقد غيروا له ثياب ومفارش سريره . والواقع ان تلهفه كان اكثر للاختلاء بذكرياته مع بيبى دونج .

ولذا تحول بذهنه اليها ، ولم ينتظر خروج جاليبر . ولم يلق باله الى تحيته بل اغلق عينيه واسلم نفسه بغير اكتراث للمسات الممرضة وهى تخلع ثيابه وتقوم بالعلاج ثم تلبسه ثيابه وتقوم بالعلاج ثم تلبسه ثيابا نظيفة . بل انها حين سألته :

ـ هل سببت لك المآ ؟.

لم يجب ، لانه كان بعيدا عنها فى عالم آخر . وليس معنى هذا انه لم يكن متألما . ولكن ذلك الالم لم يكن ذا بال .

Add to Basket

الفصل الحادى عشر :

فى عالم اخر

انه ليس فى حجرة مستشفى . بل فى حجرة فندق ... فندق مصيف ، له شرفات ناصعة البياض ، ومن شرفة الحجرة يبدو المنظر منبسطا متراميا ، يشمل مرفأ باكمله ، وهو يموج باشرعة السفن ، وبالزوارق الطويلة النحيلة تتلامس متجاورة ، ومن ورائه ذلك الخضم الازرق الرائق وقد حفل بالقوارب البخارية ذاهبة مقبلة ترمى من حولها بالزبد .

وكان فليكس وجان قد انعقد اختيارهما على مدينة نابلى لقضاء شهر العسل . لا من أجل مزايا نابلى بالذات، بل محافظة على مظاهر اللياقة والكياسة ، وتحاشيا لما يمكن أن يقوله الناس لو أن الشقيقين تلازما فى شهر العسل أيضا . ومن يدرى ؟ لعل ذلك الافتراق بين الاخوين فى تلك الفترة كان خطأ له ما بعده !.

واستغرقت الرحلة طول الليل فى عربة النوم بالقطار السريع . وعند نزولهما كانت المحطة تموج بالزهر الفواح. وكان مندوب الفندق فى انتظارهما :

— السيد والسيدة دونج ؟ .. من هنا من فضلكما .

وكان فرانسوا يفتر ثغره من أشد ابتساماته سخرية ،

Add to Basket

وقد ظهرت على محياه تلك الامارات التى يتخذها حينما يكون بعيدا عن الرضى عن نفسه ، والحق انه كان فى اعماقه مدحورا ، وشاعرا بسخافته !.

اليس دورا سخيفا للغاية أن تكون عريسا شابا وسط حجرة ملأى بباقات الورود وبالهدايا التى قدمت فى آخر لحظة ، وبالقرب منك فتاة عذراء تنتظر اقدامك عليها ، لتنقلها نقلة حاسمة من طور فى انوثتها الى طور آخر . وهى تعلم أن تلك الساعة قد حانت ، ولعلها ترقبك بمزيج فظيع من اللهفة والارتياع ؟!.

وسمعها تفتح فمها لأول مرة ، وتقول له :

ـ اتدرى يا فرانسوا بماذا تحدثنى نفسى ؟.

فتطلع اليها متسائلا ، فقالت :

ـ اخشى أن ترمينى بالحماقة ... نفسى تحدثنى أن اركب زورقا واجدف ... فان ذلك يذكرنى بالبسفور ... الديك مانع ؟.

واى مانع كان يمكن أن يبديه ؟ ولكن المسألة فى حد ذاتها سخيفة . وازداد الشعور بالسخف والحرج عندما اتضح أن الشاطىء خال من زوارق ذات مجاديف . وعرض بعض أصحاب الزوارق البخارية عليهما النزهة الى جزيرة مرجريت . وكان العرض دائما بلهجة التواطؤ على رحلة شاعرية ، فشعر فرانسوا بسخافة الوضع . ولكن ببى لم تشعر بذلك ، وتعلقت بذراعه وهمست :

ـ ما أحلى هذا !. زورق بخارى صغير ليس فيه سوانا .

فتصامم فرانسوا عن همسها . واخيرا حلت المشكلة

Add to Basket

بالعثور على زورق ذى مجاديف . ولكن الزورق كان ثقيلا . وكانت المجاديف غير مثبتة جيدا فى أعينها بالقارب . فكانت تخرج مع كل حركة . وكان الجو حارا .

وجلست بيبى عند المقدمة تغمر يديها فى الماء ، فكأنها صورة جميلة ملونة مرسومة على بطاقة بريد !. وجعل الصيادون ينظرون اليهما ويبتسمون ابتسامات ذات معنى ، فاغتاظ فرانسوا . ولم يخرجه من غيظه سوى خطر انقلاب الزورق بتأثير يخت ضخم فى طريقه الى المرفأ .

وكأنما قرأت بيبى سخطه المكظوم ، فقالت :

ـ هل أنت ساخط ؟ ... انى كثيرا ما كنت أخرج فى زورق بمفردى فوق مياه البسفور . واترك الزورق للتيار يحمله حيث يشاء ، الى أن يطبق ظلام الليل على .

آه طبعا !. فوق البسفور ...!

وعند العودة أبدى رغبة فى احتساء كأس فى مقصف الفندق . ولكنها تركته لتصعد . وحتى عامل المصعد لم يعفه من ابتسامته ذات المعنى الفاجر . مع ان الساعة كانت العاشرة صباحا .!

وفى الحجرة قالت له :

ـ ألا يفزعك كل هذا الضوء الساطع يا فرانسوا ؟.

ـ يفزعنى ؟ لماذا ؟.

ـ انى أشعر كأن البحر ينظر الينا ، فاستحى !. البحر ينظر اليها ؟ ومع ذلك لا بأس !.

Add to Basket

وارخى فرانسوا المصاريع الخشبية . فصار كل شيء فى الحجرة تتخلله شرائح رفيعة من الضوء . بما فى ذلك جسم بيبى ، وهى نصف عارية ... ولم تكن تعرف كيف تقبل . أو تتلقى القبلة . فظل ثغرها جامدا لا يتحرك. ولعلها كانت تعلم أن التقبيل ضرورى للزواج . ولكنها بغير شك احست انه عادة همجية .!

وظلت طوال الوقت مفتوحة العينين تحملق فى السقف الابيض . وبين الحين والحين يعكر صفاء وجهها الشاحب تقلص خفيف أشبه بأعراض الألم .. فلا يدرى ما الذى قاله لها فى تلك اللحظة الحاسمة بالضبط ... ولكنه كلام من قبيل :

ـ سترين فيما بعد .. بعد أيام قلائل .

فضغطت على يده بأصابعها الندية ، وهمست قائلة :

ـ طبعا طبعا يا فرانسوا ...

بلهجة من يتكلم للتسرية عن شخص حتى لا يثقل عليه أساه .

ولم يدر فرانسوا ماذا يصنع ، أو ماذا ينبغى ان يصنع ، فنهض واتجه نحو الشرفة ، ففتحها ودخل الضوء ثم أشعل السيجار ...

ولو انه ترك نفسه على سجيتها ، ووجد الجسارة فى تلك اللحظة ، لدق الجرس وطلب كأسا من الويسكى أو كوبا من النبيذ .

وجذبت بيبى الأغطية فوق جسدها لتحميه من الضوء. ودفنت وجهها بين الوسائد فلم يعد يرى شعرها الذهبى. وحدثته نفسه أنها تبكى .

ـ أتبكين ؟.

Add to Basket

وكان يفزع من الدموع ، ويفزع من كل ما يعقد امور الحياة البسيطة ، ومن قبيل النزهات الشاعرية السخيفة فى الزوارق ، أو التحديق بعينيها فى السقف ، أو التعقيب على ما هو طبيعى بقطرات من ماء العيون ...

ـ اسمعى يا عزيزتى ... ساتركك الآن لتستريحى. وانزلى بعد ساعة او ساعتين لنتناول الغداء فى الشرفة الكبرى .

فلما نزلت مرتدية ثوبا سمنى اللون اظهر نحافتها واضفى عليها طابع الجد فى حركاتها وخطواتها وملامح وجهها ، وجدته فى مقصف الفندق فقالت :

ـ اانت هنا ؟

فلماذا احس فى هاتين الكلمتين طعم التانيب ؟ ولماذا هذه النظرة العاتبة الى سيجارته ؟.

ـ كنت فى انتظارك .. فهل نمت ؟.

ـ لا ادرى .

وجاء كبير الخدم فانحنى باحترام ، وقال :

ـ هل تحب سيدتى أن تتناول طعام الغداء فى الشمس ام فى الظل ؟.

فقالت على الفور :

ـ فى الشمس .

ثم لم تلبث أن استرجعت ، وقالت بسرعة :

ـ ولكن اذا كنت يا فرانسوا تفضل الظل .

وكان فعلا يفضل الظل بيد انه لم يقل شيئا ، فقالت له :

ـ لقد خيبت املك .

وادرك انها تعنى شيئا غير الطعام ، فقال :

Add to Basket

ـ كلا بالطبع .
ـ انى آسفة .
ـ لماذا تصرين على الكلام فى هذا الموضوع ؟.
ورفع راسه عن الطعام الذى كان يلتهمه بشهية بالغة، فوجدها لا تمد يدها الى الطعام ، وأسرعت تقول :
ـ لست جائعة ... ولكن ذلك لا ينبغى أن يوقفك عن الاكل .. كل رجائى الا ترغمنى على الطعام .
وسكت فلم يقل شيئا . فسألته :
ـ اغاضب انت ؟.
ـ طبعا لست غاضبا !.
ولكن بالرغم من ارادته ظل الغضب فى نبرات صوته. ونبهه صوت المرضة وهى تقول :
ـ انتهينا يا سيد دونج ... ارجو الا تكون قد تألمت كثيرا والآن تستطيع أن تستريح ساعتين أو ثلاث ساعات .. بل لحظة واحدة من فضلك ، الى ان تشرب هذا الدواء .

ومن خلال اهدابه المطبقة لمح بصورة غامضة قلنسوة الراهبة البيضاء التى تعلو وجه الاخت آدونى الصبوح العطوف .

Add to Basket

الفصل الثاني عشر :

وعد

اتم فرانسوا عقدة رباط عنقه من غير ان يستعين بمرآة . لا عن قدرة خارقة ، بل لأن المستشفى خال من المرايا . ولعل السبب فى ذلك رغبتهم فى تجنب ترويع المرضى اذا ما رأوا سحنتهم الصفراء فى مرآة .

وكانت النافذة مفتوحة على سعتها ، والظل الذى تلقيه أشجار الكافور على الارض يبدو منعشا رطبا يدعو الى الاستمتاع به ، على الرغم من أولئك العجائز الناقهين او المقعدين الذين احتلوا كل مكان ظليل .

واجال فرانسوا عينيه فى الحجرة ، وخامره شيء من الحزن لأنه سوف لا يحتل بعد الآن جانبا من هذا الجو . ولاحظ أن الأوراق الخاصة به نزعت هذا الصباح حتى لا يبقى منه فى الغرفة أثر بعد رحيله

واقبل فليكس مرتديا بدلة ذات لون فاتح ، وقد فرغ من مقابلة سكرتير المستشفى ، فسأل بصوت يشيع فيه المرح :

ـ مستعد ؟

فقال فرانسوا بهدوء تام :

ـ مستعد ... فهل فرغت من تسوية جميع المسائل ؟

Add to Basket

ـ طبعا ...
ـ والممرضات ؟ انك لم تنسهن طبعا ؟
ـ تذكرتهن جميعا

فقطب فرانسوا حاجبيه ، وقال :
ـ كان يجب أن أنبهك حتى لا تعطى شيئا للسمراء الحولاء القصيرة . فقد تركتنى ذات مرة طول الليل من غير أن تلبى ندائى

وفى الدهليز ، التقى بالأخت آدونى ، فقال باسما :
ـ الآن سأتركك يا أخت ، واحب أن أسألك عن عدد العجائز المقعدين الذين تحت رعايتك

فابتسمت الأخت آدونى ، وقالت :
ـ نحو عشرين

ـ انتظرى لحظة ... بمعدل عشرة فرنكات كل يوم احدا ... يافليكس ، قدم للأخت آدونى الف فرنك ، وابعث اليها مثل هذا المبلغ كل شهر ... ولكن بشرط ان تغلقى عينيك يا اخت عندما تعشرين على السجائر فى جيوبهم .

واستقل بعد ذلك سيارة فليكس . ثم نفذت الى انفه رائحة الشارع التى بعد عهده بها . وجعل بين لحظة واخرى يختلس نظرة الى اخيه فى المرآة من غير أن يتكلم ... واخيرا قال فليكس :
ـ لقد ذهبت جان وزارتها بالأمس

وادرك فرانسوا من التى يعنيها .. فسأله بهدوء :
ـ وماذا قالت لها ؟.
ـ سألت عن جاك . فلما عرفت ان جان هى التى

تعنى بالصبى شخصيا بالاشتراك مع مارت لم يظهر عليها السرور لذلك النبأ .

ـ وماذا كان تعليقها ؟

ـ قالت : « لقد تركت تعليمات مفصلة بين يدى مارت ، واحب أن تأتى لمقابلتى فى أقرب وقت » . ويظهر انها كانت بالغة الهدوء ، كالمعهد بها دائما . فسألت عن أمها سؤالا عاديا جدا . وقبل أن تنصرف جان قالت لها : « اسمعى يابيبى ... انك تستطيعين أن تصارحينى انا على الأقل ... » فما كان من زوجتك الا أن قالت لها : « انت آخر انسان استطيع أن أصارحه بشىء . ألم تلاحظى انه ليس بيننا أى شىء مشترك ؟ ... قولى لمارت أن تأتى لمقابلتى ، وكفى انت عن رعاية أمور جاك .. »

ـ أهذا كل شىء ؟

ـ هذا كل شىء

ـ وكيف الحالة فى مزرعة البلوط ؟

ـ كل شىء هناك على ما يرام ... وان كانت جان بالطبع غير راضية تمام الرضى ... ولا سيما فيما يختص بجاك ، فكأن زوجتك قد اتهمتها بعدم الكفاءة لتربية الأطفال .

ووصلت السيارة الى رصيف الدباغين ، ولاح البيت الابيض الكبير فى نهايته . ورأى الاحجار غير المستوية حيث كان يلعب البلى وهو صغير . ونزل فرانسوا من السيارة وحده ودخل البناء ، لا من الباب المخصوص المفضى الى البيت ، بل من مدخل المكتب

ـ ظاب صباحك ياسيد فرانسوا

Add to Basket

ـ طاب صباحك يامدام فلامان

وكان فرانسوا قد نسى وجودها تمام النسيان ! أما هى فكانت محتقنة الوجه ، واضعة احدى يديها على قلبها الخافق، وهى تنظر اليه بعينين نديتين بالدمع. ولاشك انها كانت المسئولة عن وجود تلك الورود فوق مكتبه

وبصوت مرتجف خاطبته قائلة :

ـ انك لن تستطيع أن تتصور كيف ارتاع كل انسان عندما وصل النبأ الينا .. اتشعر بضعف شديد ؟

فادار نحوها ظهره ثم هز كتفيه . وملأت انفه رائحة المدبغ النفاذة ، تلك الرائحة التى الفها منذ صغره . واخذ يتطلع الى جدران المكتب . فوقع نظره على اطار به صورة مؤتمر الدباغين بباريس . وفى تلك الصورة وقف والده معقود الذراعين فوق صدره وبعد برهة صمت ، قال لأخيه :

ـ هل دفعت شركة ناشى دينها يا فليكس ؟

ـ لقد اقتضى الأمر منا كفاحا ، ولكنهم دفعوا فى النهاية

وكانت هذه هى الحجرة الوحيدة فى البيت كله التى لم يطرأ عليها تغيير . ففى خارج هذه الحجرة غير الاخوان كل شىء ، تلبية للتطورات العصرية ، أما هذه الحجرة فبقيت على حالها من ايام والدهما . وظلت الجدران مبطنة بورق أصفر من القدم . والمكتب الذى يجلس اليه فرانسوا كان مكتب أبيه من قبل ، وهو مبطن بجلد أخضر داكن انتشرت فوقه بقع من الحبر البنفسجى . وفوق المكتب أرفف مقسمة الى خانات .

Add to Basket

وعلى الجدار المواجه لمكتبه صورة فوتوغرافية مكبرة لوالده بشاربه الطويل وشعره الغزير ، وياقته البيضاء المنشاة ، ورباط عنقه الاسود ، كأنه صانع يرتدى الثياب يوم الأحد .

وكانت هذه الصورة فيما مضى معلقة مع صورة والدته فى حجرة نومه ، الى أن جاءت بيبى لتقيم فى هذا البيت وتحدثت عن أدخال التعديلات العصرية عليه . والآن ها هى امه ايضا وقد علقت صورتها فى حجرة المكتب ، على الجدران الآخر المواجه لمكتب فليكس

ونغمت أنفه رائحة اخرى ألفها فى هذا المكتب . وسمع صوت مدام فلامان .

ـ وضعت خطابا شخصيا فوق مكتبه .

وكانت هذه الرائحة النفاذة هى رائحة مدام فلامان سكرتيرته . وهى امرأة ذات شعر أحمر وعينين لامعتين، وفم كالثمرة الناضجة وجسم بض التكوين ، ولكنه يفرز العرق بسخاء .

أليس بسببها ، فى البداية حدث ...

وعدل عن الاسترسال فى التفكير ، الى النظر فى الخطاب الشخصى . فاذا به يحمل خاتم بريد دوفيل ، وهو بخط أولجا جاليبر ، فلم يجد فى نفسه لهفة لفضه. وفى هذه الاثناء كان فليكس جالسا الى مكتبه يفض بريد المؤسسة .

وفى يوم مثل هذا ، بعد زواجه بشهرين تقريبا ، حضرت بيبى فى ثوب خفيف من الحرير الى المكتب على غير انتظار ، وسألت عند الباب :

ـ هل أستطيع الدخول

Add to Basket

وكان فليكس فى الخارج . ومدام فلامان جالسة الى مكتبها ، فأسرعت بالنهوض كى تنحنى أمامها ، ثم اتجهت نحو الباب . فسألها فرانسوا :

ـ اين انت ذاهبة ؟

فأجابت مدام فلامان متلعثمة

ـ ظننت ...

ـ لاداعى لخروجك ...

والتفت الى زوجته ، وسألها :

ـ ما المسألة ياعزيزتى ؟

ولم يكن لبيبى سابق عهد بالمكتب ، فكانت منصرفة الى دراسة جميع التفاصيل بنظرها ، وقالت :

ـ جئت للتحية فقط ... آه ! هنا اذن وضعت الصورتين ؟

ثم فطن إلى اجفالها عندما مرت بقرب السكرتيرة . وكان ذلك بسبب الرائحة النفاذة بالطبع

وفى الظهر ، حينما جلسا لتناول الغداء حول المائدة المستديرة ، سألته :

ـ هل هذه الفتاة من المحتم بقاؤها فى مكتبك ؟

ـ مدام فلامان امرأة متزوجة ... وهى سكرتيرتى منذ ستة أعوام ... وأصبحت لها خبرة تامة بجميع اشغالنا .

فقالت بيبى بلا تردد :

ـ لا أدرى كيف تستطيع تحمل رائحتها ؟

ولعل اضخم عناصر المشكلة نجم عن اعتقاده الراسخ أن زوجته لا تقول شيئا ، ولا تفعل شيئا ، الا اذا فكرت فيه مليا . فهى تتكلم دائما بهدوء تام ، وتنظر فى عينيه

Add to Basket

نظرات ثابتة مستقيمة ... ولما رآه ساكتا لا يجيب ، اسخطته بقولها :

ــ ولكنك على كل حال أعلم منى بما يصلح لك

فأجابها باقتضاب قائلا :

ــ طبعا !

وانه اذ يعيد التفكير فى ذلك الآن ، يذكر انها حملت فليكس على مصاحبتها كى تشاهد جميع أجزاء المصانع. حتى ألمت بدقائق العمل وكلياته . وبعد ذلك ببضعة أيام ، كان جالسا بمفرده يوم أحد ينجز عملا عاجلا فى مكتبه ، فدخلت مرتدية ثوبا من الحرير المطبوع ، وقالت له :

ــ هل يضايقك وجودى ؟

وراحت تتنقل فى الحجرة . وكان يلمح بين الحين والحين أظافرها البراقة التى تقضى نصف ساعة كل يوم فى تجميلها وطلائها . وفجأة سمعها تقول :

ــ خبرنى يافرانسوا

ــ نعم ؟

ــ الا تظن انى أستطيع أن أساعدك أيضا ؟

فنظر اليها مقطبا ، وسألها :

ــ وأى عمل تريدين أن تقومى به ؟

فقالت بكل هدوء ، وبساطة :

ــ الأعمال المكتبية هنا معك

ــ أتعنين بدلا من مدام فلامان ؟

ولم تطرف عيناها أمام نظرته الثاقبة ، وقالت :

ــ ولم لا ؟

ولما وجدته صامتا لا يجيب استطردت :

Add to Basket

ـ وان كنت غير مطمئن الى درايتى باستعمال الآلة الكاتبة ، ففى استطاعتى أن اتمرن عليها بسرعة فائقة ، فقد كانت عندى فى اسطنبول آلة كاتبة صغيرة من الطراز الذى يحمل فى الاسفار وكنت اكتب عليهـــا جميـــع خطاباتى ...

وخطر بباله انها ستاتى فى كامل زينتها ، باظـافر حمراء ، وثياب فاخرة خفيفة ملونة كانها جناح الفراشة. وطبعا لن يكون ذلك قبل العاشرة او الحادية عشرة ، تتضوع منها عطور الحمام ومستحضرات الزينة الفاخرة. فهى اذن تتقد غيرة من مدام فلامان !

ـ هذا مستحيل ياعزيزتى . وستقضين ســـنوات وسنوات الى أن تتعلمى جميع دخائل المهنة . ثم هـــذا ليس مكانك الطبيعى

وبنفس الهدوء قالت :

ـ انى آسفة ... لن اثير هذا الموضوع مرة اخرى

وكان فى مقدوره أن يقول لها بضع كلمات لطيفة كى يسعدها وتخرج راضية . ولكنه لم يفعل . مع انه هم أن يناديها عندما رآها خارجة وقد تصلبت رقبتهـــا قليلا من الاستياء . الا انه قال لنفسه :

ـ لا ينبغى أن أقابل هـــذه الاعمال الطفيليـــة باللين والهوادة والا استمراتها واصبحت الحياة لا تطاق .

وبعد ربع ساعة سمع خطواتها وهى تسير فى حجرة نومهما متنقلة فى ارجائها . ترى ماذا كانت تصـــنع ؟ لعلها تاخذ مقاييس الحجرة ، فهى مشغولة الذهن بتغيير الاثاث . ومن مراحل هذا التغيير نقل صورتى والديه من حجرة النوم . وكل مساء يجد حولهـــا عينـــات وكتالوجات . وتساله :

ـ ماذا ترى يا فرانسوا فى هذا القماش الاخضر ؟

ـ جميل جدا

ـ ولكنه غالى الثمن جدا ، ومع هذا لم أجد قماشا آخر يصلح للفرض

ـ اشتريه ان شئت . فانت تعلمين انني لا ادقق فى هذه الامور

ـ ولكنى احب ان اعرف رأيك

رأيه ؟ ان رأيه ان يبقى البيت على ما هو عليـــه . فهل تراه اخطأ لأنه لم يقل لها ذلك بصراحة ؟ ولـــكن كان الدافع الى الصمت انه آثر أن يترك لها الحــرية كى تتسلى بهذه الصغائر الطفيلية وتدعه لشأنه فلا تزعجه بأمورها

وكان لا يحب ان يراها منصرفة الى التفكير . اذ كان يصعب عليه فى هذه الحالة أن يلاحظها . ثم انه يكـــره التعقيدات ، وهى مغرمة بتعقيد كل شىء لغير ســـبب ظاهر . فمثلا ، فى الاسبوع الثالث بعد عودتهما من رحلة العسل فى كان ، كان اثاث البيت على ماهو عليه . وكانا ينامان فى فراش والديه الكبير العتيق . والورق الذى يبطن جدران المخدع هو بعينه الورق العتيق الذى كان فى عهد أبويه . وذات صباح استيقظ فرانسوا فى ســـاعة مبكرة جدا على صياح ديك ، واحس احســـاسا غامضـــا بشىء غير عادى . وظل راقدا لا يتحرك برهة ثم فتـــح عينيه ، فاذا به يرى بيبى جالســـة فى الفراش الى جواره ترقبه بانتباه شديد ، فسألها :

ـ ماذا تصنعين ؟

وبهدوء تام أجابته :

ـ لا شىء . . . كنت أصغى الى تنفسك . . . فوجدته

Add to Basket

اعلى وانت راقد على جانبك الأيسر ، مما هو وانت راقد على جانبك الأيمن

ولم يجد فى ذلك ما يشرح صدره ، فقال باقتضاب :

ـ لقد كنت دائما سيء النوم على جانبى الأيسر ...

ـ اتدرى فيم كنت أفكر يافرانسوا ؟

. . . . . .

ـ كنت أفكر فى اننا من الآن فصاعدا سنعيش باستمرار معا . وسنصل الى الشيخوخة معا . وسنموت معا

وكان يبدو عليها الجد التام وهى جالسة على تلك الصورة فى قميص نومها . وكانت الساعة لم تتجاوز الخامسة صباحا ، وبه رغبة شديدة فى استئناف النوم. ولكنها استطردت تقول :

ـ وكنت أفكر ايضا فى أنها خسارة كبرى لى لأنى لم اعرف والدك

فقال فى نفسه :

ـ وهل هى خسارة كبرى حقا ؟ او خسارة على الاطلاق ؟ بل انها نعمة ! فكيف كان دونج الكبير يتقبل زوجة ابن مثل بيبى ؟ الم يخطر ذلك ببالها ؟ الم تدرك ذلك من صور هذا الدباغ بشاربه الكبير وذراعيه القويتين المعقودتين على صدره ، شأنه فى جميع صوره ؟

وحسبته لشروده فى تلك الافكار نائما فسألته :

ـ هل نمت يافرانسوا ؟

ـ كلا

ـ هل يضايقك كلامى ؟

ـ كلا

ـ احب أن اسألك شيئا آخر

Add to Basket

ـ نعم ؟

ـ أريد منك أن تعدني بشيء . ولكن لا تعدني ان لم يكن في نيتك ان تبر بذلك الوعد حرفيا

ـ أي وعد تعنين ؟

ـ عدني ، مهما كانت الظروف ، ان تكون على الدوام صريحا معي كل الصراحة ... عدني أن تخبرني دائما بالحقيقة ، حتى وان أعتقدت انها ستؤلمني ... افهمت ما أريد يافرانسوا ؟ ... ما أقبح أن نعيش حياتنا كلها معا جنبا الى جنب في جو من الغش والخديعة ... فان شعرت أني خيبت آمالك ، فلتصارحني بذلك ، وان أحسست يوما ما انك لم تعد تحبني ، يجب أن تصارحني بذلك ايضا ، فيمضي كل منا في طريقه ... واذا خنتني ، لن أغضب ... ولكني أريد دائما أن أكون على علم ... فهل تعدني يافرانسوا ؟

ـ ان لك لافكارا غريبة هذا الصباح

ـ بل اني ظللت أفكر في هذا مدة طويلة . منذ تزوجنا . فهل تعدني ؟

ـ طبعا

ـ انظر في عيني ؟ حتى اشعر انك جاد صادق

ـ أعدك . والآن نامي

ولعلها لم تستسلم للنوم في الحال . ولكنها حتى العاشرة من ذلك الصباح ظلت نائمة نوما أهدأ وأهنأ من المعتاد

Add to Basket

لا تكذب

ولما وصل فرانسوا وهو جالس على مكتبه لاول مرة بعد خروجه من المستشفى الى ذلك الحد من استعادة ذكرياته : نادى فجاة :

ـ يامدام فلامان !

ـ نعم ياسيد دونج ؟

ـ اتصلى بمدير الادارة ، واطلبى منه أن يضع مكتبك فى الحجرة المجاورة

ـ فى حجرة مخزن ادوات التنظيف ؟

ـ يمكنك نقل ادوات التنظيف الى موضع آخر ، فى حجرة بالحديقة مثلا ، أو فى خزانة تحت السلم

ورأى شفتها السفلى تبرز الى الامام وتهم أن ترتجف ، وكان المفروض أن تخونه اعصابه امام هذه الشفة الناضجة ، ولكنه غض بصره ونظر الى الازهار الموضوعة فوق مكتبه برهة ، وعندما رفع بصره مرة اخرى ، كانت نظرة عينيه اشد برودا من ذى قبل . وبجفاء ثبت عينيه فيها ، فسألته وهى تتشبث بخيط أخير :

ـ الآن ؟ حالا ؟

وبصوت ماض كحد السيف قال :

ـ الآن . حالا !

Add to Basket

فاحتقن وجهها ونبض الالم فى نظراتهـــا ، وهى تسأله :

ـ هل فعلت شيئا اغضبك ؟

فازدادت نظرته جمودا وقسوة ، واحست مـدام فلامان على الفور أنه فى حالة غضب مخيفة ، ولاسيما عندما سمعت صوته هادئا خافتا تقريبا ، وهو يقـول لها :

ـ لم أقل انك فعلت شيئا اغضبنى ، هيا قومى واطلبى من مدير الادارة أن يعجل بنقل مكتبك من هنا

ونهض واقفا فاتجه الى النافذة فوضع جبهته على زجاجها البارد ، واخذ يتطلع الى رصيف النهر بعينى طفولته ، فهنا قضاها لاهيا لاعبا مع الرفاق

وعاد ذهنه الى الوراء ، وحار فى تحديد زمن نشوء تلك الفكرة الجنونية لدى بيبى ، فهناك حديثها اليه فى الفراش وذلك الوعد ، وهناك رائحة مدام فلامان النفاذة ، ثم رغبتها فى أن تعمل سكرتيرة لزوجها بدلا من مـدام فلامان

انه يدرك الآن غيرتها ، لم تكن غيرة من النســـاء فحسب ، بل غيره من العمل أيضا ، ومن كل شىء فى حياته عداها ، هذه هى الحقيقة أخيرا ! فهى متحسره لانها لم تعرف والده ، تكاد تغار من الموت ، وتغار من أبيه ، وتغار من ذكريات صباه كلها

وبعد تلك المحاولة بشهرين على الأقل ، قالت جان شقيقتها انها تنتظر مولودها الاول ، وكانت جان لا تخلو من أسف لان الحمل سيفسد قوامها . ولكن فليكس كان سعيدا غاية السعادة ، فهو رجل بسيط ليس فى

Add to Basket

حياته تعقيدا ، وحمانه تحبه كل الحب ، أما فرانسوا فتنظر اليه نظرة من خاب أملها

وفى احدى أمسيات الخريف كان فرانسوا وبيبى يتمشيان على الرصيف أمام الدار ، وكان الجيران يتنزهون أيضا مثلهما أزواجا أو جماعات بعد غروب الشمس ، فتلك هى عادة سكان ذلك الشارع كل ليلة قبل الأيواء الى مخادعهم

وبعد فترة صمت طويلة وضعت بيبى يدها على ذراع زوجها وتنهدت

ـ هل أنت ساخط على ؟

فادهشه السؤال ، وسألها :

ـ ولماذا أسخط عليك ؟

ـ بسبب ما طلبته منك

فازدادت دهشته ، لأن ذهنه كان خاليا تماما من اى طلب لها وسألها :

ـ وماذا طلبت منى ؟

وخيل اليه انها تريد أن تفتح موضوع مدام فلامان، فكان ذلك كافيا لاشعال غضبه :

ـ الا تذكر ؟ لقد طلبت منك أن تنتظر سنتين أو ثلاثا قبل ...

وتلعثمت وسكتت ، كأنها ارتدت طفلة صغيرة ، وهى التى تتكلم على الدوام بدقة ووضوح ، فأكمل لها عبارتها قائلا :

ـ قبل أن ننجب طفلا ؟ .. أليس كذلك ؟

فبلعت لعابها ، وقالت :

ـ طبعا يا عزيزى ... وأريد أن أوضح لك موقفى ،

Add to Basket

لم يكن طلبى هذا عن انانية او رغبة فى الاستمتاع بتلك السنوات ، بل لأنى خائفة يافرانسوا

ـ ومما تخافين ؟

ـ يخيل الى أن العلاقة بيننا لن تكون فيما بعد ولادة الطفل كما كانت قبل ذلك .... ولكن اذا كنت متلهفا ...

فضغط على اصابعها فى حنان حقيقى ، اذ أدرك انها فريسة وهم وصراع بسبب هذه المسألة ، مع أنه لا يعلق اهمية كبرى عليها ، انه يريد اطفالا ، ولكن ليس بهذه السرعة ، وعادت تقول :

ـ اتمنحنى سنتين اخريين ياعزيزى ؟

يمنحها ؟ وهل هو رب العالمين ؟

طبعا طبعا ياعزيزتى ، سنتين أو أربع سنوات ... وما شئت ولكن ماذا بك ياعزيزتى ؟

ـ اظن ان الجو بدأت تسرى فيه البرودة

ـ انك لا تحملين معك أبدا شيئا تتقين به البرد

ـ آسفة ياعزيزى

وكانت تعلم أن الشاطىء تزداد فيه البرودة بعد الغروب ، وكانت تعلم أيضا انه يحب تلك الساعة من النزهة على الاقدام على رصيف النهر ، فلماذا لبست هذا الثوب الذى يحاكى فى رقته نسيج العنكبوت ، ولم تضع شيئا على كتفيها يبعث فيهما الدفء

وكانت لديها عادة أخرى تثير اعصابه ، انها كلما حضرت الى مكتبه لتطلب نقودا أو لأى سبب آخر ، تصر على طرق الباب قبل ان تدخل ، وقد لاحظت فلامان ذلك المسلك ، فكانت ترمق فرانسوا بنظرة ذات معنى

Add to Basket

ثم حدث فى ليلة من ليالى الشتاء انهما ذهبا لمشاهدة فرقة تمثيلية متجولة على مسرح المدينة ، وكانت مدام دونفيل وفليكس وجان هناك أيضا ، وبعد مشاهدة الرواية قضوا برهة من الوقت فى المقهى المركزى ، ثم ذهب فرانسوا وبيبى الى بيتهما سيرا على الاقدام ، وقرب القنطرة المقامة فوق النهر مرا برجل وامرأة وقد التصقا بالحائط فى عناق عنيف حتى خيل اليهما ان الاثنين جسد واحد . وعندئذ مالت بيبى بثقل جسمها كله على ذراع زوجها ، وبعد مسافة قصيرة ، على بعد مائة خطوة من بيتهما شعر بها تلتصق به التصاقا تاما، واحس بجسمها يختلج ، فاحتضنها وقبلها ، وكم كانت دهشته عندما وجدها تنكمش فجأة وتسرى البرودة فى اطرافها ، فسألها :

ـ ماذا جرى ؟

ـ لاشىء

ـ انك منذ لحظة واحدة ياعزيزتى كنت ...

فتركت ذراعه ومشت بسرعة ثم وقفت عند الباب تنتظره كى يفتح لها ، وما ان فتح الباب حتى اندفعت صاعدة الى حجرتها ، فلحق بها ، وسألها :

ـ الا تريدين أن تقولى لى ماذا جرى ؟

فرشقته بنظرة سريعة حادة ولم تجب

ـ الا تريدين أن تخبرينى ؟

وخلع سترته . وجلس بجوارها على الفراش

ـ أسمع يافرانسوا ... هل تذكر الوعد الذى قطعته على نفسك ذات صباح فى هذا الفراش أن تخبرنى بكل شىء مهما كانت النتائج ؟ .. فهل انت مستعد للبر بهذا الوعد ؟

Add to Basket

وتملكه فجأة شعور عميق بعدم الارتياح ، وقال :
ـ انا لا أفهم ماذا تريدين ان تقولى ؟

ـ لماذا تكذب يافرانسوا ؟ الم نتفق على انه لا محل للاكاذيب والغش فيما بيننا ؟

ولم يكن صوتها مرتفعا بل كانت هادئة متماسكة للغاية وهى تستطرد :

ـ انك حقا كذبت على ، فهل انت لا تدرى لماذا دفعتك بعيدا عنى وانت تقبلنى ؟ اذن تناول سترتك ، وانظر فيها ، شمها ! فانه لم يتسع لك الوقت كى تغيرها بعد عودتك من المكتب .

ولم يخطر بباله فى تلك اللحظة ان حياتهما كلها فى كفة الميزان ، وكان جالسا على حرف الفراش يقلب الامور فى ذهنه ، ويرقب بيبى ويعجب من رباطة جأشها ، ويشعر نحوها باعجاب شديد لهذه القوة .

ـ لقد اخبرتك من بداية الأمر يافرانسوا انى لست غيورا وكل ما هنـاك انى اريد أن اعرف كـل شىء ، وساستمر بعدها زوجة مخلصة كما كنت ، وستعتبرنى صديقة تفضى اليها بجميع شئونك ، كما تفضى بها الى فليكس مثلا ، المهم ان اعرف عنك كل شىء فلا اكون مخدوعة .

واخذ يحملق فى المدفأة الجديدة اللامعة ولا يدرى ماذا سيكون جوابه عندما تلقى سؤالها الحاسم :

ـ هل مدام فلامان عشيقتك منذ زمن طويل ؟

فمر بيده فوق جبينه ، وخلال شعره ، ثم فوق انفه ، ونهض ثم وقف جامدا فى وسط الحجرة .

Add to Basket

ـ اجب !

ـ بيننا علاقة منذ سنوات ، ولكن هذه العلاقة الجسدية ليست بالضبط علاقة عشيق بعشيقة .

وساد الصمت ، وكان ظهره اليها فلم يستطع ان يراها، فدار على عقبيه ليراها ، فوجدها لم تتحرك ولم تهتز ، وواجهت نظرته المتسائلة بابتسامة صغيرة ، وقالت :

ـ ارأيت ؟

ـ ما الذى رأيت ؟

ـ لا شيء .. لقد كنت دائما اعتقد انها من ذلك النوع من النساء اللاتى تميل اليه ..

فأجابها بغلظة :

ـ هذا يتوقف على الغرض الذى اريدها من اجله

ـ بالضبط ، انا اتكلم من هذه الناحية ، وقد شعرت بذلك التآلف الجسدى بينكما من اول الأمر ، ولذا كنت اطرق باب المكتب دائما قبل ان ادخل عليكما

ـ سأتخلص منها ان احببت

ـ ولماذا ؟ الذنب قبل كل شيء ليس ذنبها ، وثانيا ستحتاج الى سكرتيرة اخرى بدلا منها

وكانت بيبى هادئة غاية الهدوء ، واحس فرانسوا انها اطلقت سراحه حين صرحت له باستبقائها

وسألته ، وقد شرعت تستعد للنوم :

ـ وهل فليكس يعلم انك تعاشر مدام فلامان احيانا ؟

ـ لعله يرتاب فى الأمر ، ولكننا لا نتكلم ابدا فى هذه الموضوعات

ـ آه ! وزوجها ؟ الا يعلم ؟

فشعر فرانسوا بعدم الارتياح يعود اليه ، فهذا

الزوج موظف فى شركة التليفون ، وهو رجل طيب قوى له شارب طويل مثل دونج الكبير ، وكان يحضر احيانا لاصلاح التليفون ، فكان ينصرف الى الاصلاح فى حجرة المكتب التى بها زوجته وفرانسوا ، ومتى فرغ يقول :

ـ لقد تم اصلاحه ياسيد دونج ، واظنه سوف لا يعطب هذه المرة !

ثم يمد يده الكبيرة ليصافح فرانسوا ، ويتجنب أن يحيى زوجته باللفظ أو اليد ، ويكتفى بنظرة سريعة

ادار فرانسوا هذه الخواطر فى ذهنه بسرعة ، ثم قال لبيبى :

ـ كلا انه لا يعرف

ـ وانت ؟ الا يزعجك وانت تصافحه انك فى الليل، فى فراش ذلك الرجل نفسه ، تعاشر امراته ؟

ـ ليس الأمر على هذا النحو ، وليست له هذه الاهمية التى تتصورينها ، فلو قلت لك الحقيقة ...

ـ ماذا ؟

ـ لا شىء ، مسألة مضحكة وسخيفة للغاية

ـ يمكنك أن ترويها لى ، مادمنا منذ الآن صديقين

ـ تصورى اننى لم انادها باسمها المجرد ولا مرة واحدة حتى الآن ، فانا فى الواقع لا اعرفها ، ولا اقابلها اطلاقا خارج المكتب ، ولكن احيانا اثناء املاء خطاب تجارى تنتابنى الرغبة فجاه ... وبمجرد انقضاء الأمر لا اترك لها مهلة لاسترداد انفاسها ، واستانف املاء الخطاب من حيث توقفت ، فهى دائما مدام فلامان بالنسبة الى

Add to Basket

وضحكت بيبى . لم ير وجهها وهى تضحك لانهـــا كانت تبحث عن شيء على مائدة الزينة ، ولكنه سـمع ضحكتها فابتسم وخلع حذاءه وقال :

ـ ها أنت ترين ياعزيزتى ان المسألة تافهة للغاية

ـ وخصوصا وأنا لست من ذلك النوع من النسـاء الذى يطيب لك . أعترف بذلك يا فرانسوا !

ـ هذا يتوقف على ما أريده من المرأة . . . ومما لاشك فيه انك لم تكونى ولن تكونى امرأة فراش . . . ولـكن ليس هذا هو المهم فى حياة البشر . . . هل غضبت ؟

ـ ولماذا أغضب ؟ لقد كنت صريحا

ـ ألست انت نفسك اردت ذلك ؟

ـ طبعا

واخذ يتساءل فى تلك اللحظة هل اقترف خطأ ، ولنفرض ذلك ، أليس هذا هو ما ارادته ؟

ولما دخل الفراش سألها :

ـ فيم تفكرين ؟

ـ لا شيء ، أفكر فيما قلت لى

ـ الا تشعرين بخيبة أمل ؟

ـ ولماذا ؟

ـ اذا كان ذلك يضايقك ، فلن افعله مرة اخرى ، ولقى انه قد تمر أيام متوالية ، وأحيانا أسبوع ، من غير أن أمسها

ـ فهمت فهمت !!

ـ لا يمكن أن تفهمى ، فأنت لست رجلا

ونهضت فدخلت الحمام ، ولبثت هناك مدة طويلة ،

Add to Basket

فبدأ يساوره القلق ، وظنها مختلية بنفسها كي تبكى ، وفكر فى الذهاب اليها ، ثم تردد خوفا من انفجار الشجار بينهما اذا اكتشفت دموعها

وخيرا صنع اذ لم يذهب اليها ، فعندما عادت كانت نظراتها هادئة وأساريرها ساكنة

ـ طابت ليلتك يافرانسوا ...

وقبلته فوق جبينه كعادتها كل ليلة ، ثم أطفأت النور

وعندما وصل فرانسوا بذكرياته الى ذلك المدى وهو يطل من النافذة ، سمع حركة خلفه ، فنظر ليرى كبير الخدم يحمل مع مدام فلامان مكتبها وآلتها الكاتبة ، فنظر اليهما كأنه ينظر الى جمادات ، ثم طالعته نظرة تساؤل من فليكس ، فأشاح بوجهه ولم يجب .

Add to Basket

الفصل الرابع عشر :

رسالة

ولم يكن فى استطاعة فرانسوا ان يترك الصمت الثقيل قائما بينه وبين أخيه ، فقطه بسؤال يدارى به الحرج :

ـ ماذا يافليكس عن العقد الذى شرعنا فى المفاوضة فيه مع شركة الفنادق الاوروبية الكبرى ؟

ـ لقد وقعته فى الاسبوع الماضى ... واضطررت أن ادفع عشرة آلاف فرنك للمدير

ـ خمسة آلاف كانت فيها الكفاية

وكانما أراد بهذا الانتقاد ان يصب انتقامه على أحد، ولو كان هذا الأحد هو فليكس ... وبطريقة آلية مزق غلاف رسالة اولجا جاليبر، فوجدها على هذه الصورة :

« عزيزى فرانسوا

« انى أكتب اليك الآن من فندق رويال ، ومن الحجرة رقم ١٣٢ بالذات ... الا يذكرك هذا بشىء ؟. .. ولولا وجود ابنتى جاكلين معى هنا لكنت خففت اليك لالقاك ساعة خروجك من المستشفى »

وكانت لاولجا جاليبر ابنة فى الثالثة عشرة من عمرها، منطوية على نفسها حادة الذكاء ، تنظر الى فرانسوا

Add to Basket

نظرات الكراهية والحقد ، كانها مدركة ماهناك ... ومن يدرى ؟ لعلها مدركة فعلا ، فان أمها لا تكاد تحاول التستر أمامها !

« وعندما سمعت بالكارثة عرفت أن خير ما أصنعه هو الابتعاد عن الميدان فترة من الوقت ، ولما كانت هذه الايام توافق موسم الاجازات ، فقد وافق جاستون على الفور على السفر ... انه لم يقل شيئا صريحا ، بطبيعة الحال ، بيد انى شعرت انه كان قلقا ، وانه ينوى زيارتك ، وقد تلقيت منه الآن خطابا يبلغنى فيه أن صحتك تتحسن بسرعة ، وأن كل شىء يتجه فى الاتجاه الصالح للجميع

« ومع ذلك فانى لا أستطيع ان اتغلب على دهشتى لاقدام بيبى على عمل كهذا ... ولكن تذكر ياعزيزى ما قلته لك عندما أخبرتنى انها تعرف حقيقة علاقتنا ... فانت يارجلى العزيز لا تعرف شيئا عن نفسية النساء ، ولا سيما الفتيات الصغيرات ... وبيبى فى الحقيقة لم تزل فتاة صغيرة

« وعلى كل حال ، فزعت جدا لما حدث ، خوفا عليك ، وخوفا على الجميع ، ففى مدينة صغيرة مثل مدينتنا لا تستطيع أن تتصور مدى انتشار وتضخم أية فضيحة من الفضائح

« وقد أخبرنى جاستون فى رسالته الأخيرة انك ستبارح المستشفى قريبا ، وربما وصل هذا الخطاب الى يدك وقد خرجت بالسلامة فعلا ، ولهذا جعلت العنوان على البيت .

« وأملى أن تجد لديك متسعا من الوقت للحضور

الى كان لنقضى بضعة أيام معا ... وفى هذه الحـــالة اتصل بى تليفونيا قبل قدومك كى ارسل جاكلين لقضاء ايام لدى بعض الاصدقاء

« لدى اشياء كثيرة جدا اريد ان اقولها لك ، فانى افتقدك ، ومن الافضل أن تتصل بى تليفونيا فى اوقات الطعام ، ولا تذكر اسمك لعاملة التليفون بالفنـــدق طبعا ، حتى لا يصيحوا به فى غرفة الطعام وهم ينادوننى

« لا اطيق صبرا عن الارتماء بين ذراعيك ، أعبدك »

حبيبتك اولجا

وما فرغ من قراءة الخطاب حتى صاح :

ـ يافليكس !

وكان فليكس قد عرف بغير شك الخط الذى كتبت به الرسالة التى لم تزل فى يد فرانسوا

ـ ابك حاجة لوجودى معك بعد ظهر اليوم يافليكس؟

وظهر على الفور العتاب فى نظرات فليكس ، ولعلها اول مرة يظهر فيها اعتراضا على مسلك لأخيه الأكبر ، فابتسم فرانسوا ابتسامة كبيرة ، وقال :

ـ انى افكر فى قضاء هذه الليلة بمزرعة البلوط ، لانى لم ازل اشعر بحاجتى الى الراحة ، فهل من رسالة احملها الى زوجتك ؟

ـ لا شىء ذو اهمية ... فاذهب الى هـــناك يوم السبت وابقى حتى صباح الاثنين ... انتظر ! اظنهـا طلبت منى ان احضر زبدا حلوا

ـ سآخذه معى

وفجأة وضـــع فرانسوا يده على عينيه ، فهتف فليكس :

Add to Basket

ـ ماذا بكَ يافرانسوا ؟
وقالَ :
ـ لا شيء ، لا تقلق
وترنح فرانسوا كانه يوشك ان يقع مغشيا عليه :
ـ انك لم تزلْ ضعيفا
ـ نعم ... قليلا ، الى اللقاء غدا
ـ اتذهب قبلَ تناول الغداء ؟
ـ ساجد هناك ما آكله
ـ اتظن انك قادر على قيادة السيارة ؟
ـ لا تقلق ! ... اما بخصوص العشرة آلاف فرنك
ـ انى آسف ، فقد ظننت أن هذا هو القدر اللائق
ـ وانا اظن ذلك ايضا ، لعلكَ كنتَ على حق

وسمع كلاهما صوتا غير مألوف لم يدركا مصدره ؟ واخيرا اتجها نحو باب الحجرة الداخليـــة التى كانت تستخدم مخزنا لادوات النظافة ، وهناك كانت مـدام فلامان تبكى وحدها بنحيب مكتوم منتظم ، وقد عقدت ذراعيها فوق آلتها الكاتبة ودفنت وجهها بينهما

Add to Basket

الفصل الخامس عشر :

ميمى

واندفع فرانسوا يقود سيارته من شـــارع الدباغين الى مزرعة البلوط بسرعة فائقة ، وكأنه يطير الى موعد غرامى ، ولما اقترب رأى أمام باب الحديقة سيارة صغيرة بيضاء ذات سقف متحرك ، فأبطأ على الفور من سرعته

من الذى يمكن أن يكون فى زيارة مزرعة البلوط الان ؟

ووجد البوابة مغلقة ، فتجهم ونزل ليفتحها ، ونظر فى اتجاه البستان ، فرأى تحت المظلة البرتقالية اللون شقيقة زوجته ، مستلقية فى مقعد هزاز كعادتها ، وقبالتها جلست امرأة أخرى على رأسها قبعة ، ولم يعرفها فرانسوا على الفور لبعد المسافة ، ولكنه فى طريقه الى الجراج مر بجوار المظلة، وعنـــدئذ نهض من الارض لينبحه كلب دانمركى أبيض ضخم به نقط سوداء ، فعرف فرانسوا على الفور ان الزائرة هى ميمى لامبير التى قفزت فجأة من مقعدها ، ولابد انهـا قالت لجان :

ـ لا اريد أن اراه !

فلما عاد فرانسوا من الجراج من غير أن يغلق أبوابه ، وسار فى اتجاه المظلة البرتقالية اللون ، رأى شقيقة زوجته

Add to Basket

مستندة الى البوابة البيضاء ، وميمى لامبير جالسة خلف عجلة القيادة فى السيارة المفتوحة ، وقد جثم بجوارها على المقعد الامامى كلبها الدانمركى الضخم

وبنظرة خاطفة لمح فرانسوا على المنضدة الصغيرة كاسين من البلور بهما بقايا شراب مثلج ، وشطائر من الليمون فى القاع ، مما يدل على ان الكوكتيل هو الذى شربته السيدتان فى تلك الجلسة الصباحية

واقبلت جان نحوه ومدت اليه يدها بطريقة عادية جدا ، وقالت :

ـ مرحبا بك يا فرانسوا ، أأنت الآن على مايرام ؟

ـ مرحبا بك يا جان ، وكيف حال الاطفال ؟

ـ بخير

ـ واين هم الان ؟

ـ ارسلتهم مع مارت للنزهة فى الغابة ، وسيعودون بعد قليل

وعادت الى مقعدها الهزاز الطويل ، فمن عادتها وهى المرأة التى تفعل كل شىء بحيوية فائقة أن تستلقى عند الراحة فى وضع أفقى ، شأن جميع الحيوانات التى تتمدد مستلقية بوحى من غريزتها

وقال فرانسوا :

ـ الانسة لامبير لم تشأ أن تقابلنى ، أليس كذلك ؟

ـ لقد هربت « المسكينة » منك ! يبدو انك كنت فظا جدا معها فيما سبق

وجلس فرانسوا ، جلس تقريبا فى نفس الموقع الذى كان جالسا فيه يوم وقوع المأساة ، وصب لنفسه كأسا من

Add to Basket

الكوكتيل داح يرتشـــفها ، وهو يداعب بعينيـه البيت والبستان والمائدة والمظلة ، وفى نظـــراته مزيج من الاناة والعمق والتلذذ ، ولعل هزاله بسبب المرض جعله أشـد حساسية من ذى قبل

انه منذ برهة وجيزة كان يقود ســـيارته بسرعة فائقة متلهفا على الوصـــــول ، كى يملأ عينيه من الدار البيضـاء والسقف الاحمر والحديقة ، حتى ان اصابعه كانت تقبض على عجلة القيادة بعصبية فائقة

وبعد برهة صمت قال لجان :

ـ كنت أحب أن أتحدث الى هذه « الفرس الكبيرة » !

وكان اسم الفرس الكبيرة هو الاسم الذى يطلقه الناس على تلك العانس التى بلغت السادسة والثلاثين من عمرها ، وترتدى ثيابا اقرب الى ثياب الرجال ، بقامتهـا الفارعة ، وبنيانها المتين ، وصوتها الاجش ، وبيتها المسمى الطاحونة العتيقة مقام فوق قنطرة تعترض النهر ، وتربى فى حديقته الكلاب الدانمركية الضخمة وتنتج منها سلالات ممتازة

وكل شىء يتصل بميمى لامبير فيه غرابة وشذوذ ملفت للنظر ، ولذا كانت تعتزل النـــاس ، والنـــــاس كذلك لايالفونها ، وقال فرانسوا :

ـ هل لى ان أسأل ماذا كانت تريد بهذه الزيارة ؟

ـ طبعا .. انها مثل بقية النـــاس ، وانت لا يمكن أن تتصور مبلغ غباوة الخلق ، فاليك مثلا تلك المرأة لامبير التى تتوهم انها مسئولة بطريقة ما عما حـدث .. وقالت كلاما لم افهمه سخطها على نفسها لانها اكترثت بسلوكك ، وقد كان من الواجب فيما زعمت الا تلقى بالا لفظـــاظتك

Add to Basket

وتستمر فى الحضور لزيارة بيبى ... فهل حقيقة كنت فظا جدا معها ؟

وكانت هذه هى الحقيقة فعلا فان ميمى لامبير كانت قد تعلقت ببيبى تعلقا علم به الجميع ، حتى لقد شـــاع على الالسنة أن ما بينهما يتعدى حدود الصداقة البريئة .

ولم يكن فرانسوا غيـورا ، ولكن ما يسخطه حقـا انه اذا ذهب الى البيت فى أية ساعة من ساعات النهار ودخـل حجرة زوجته ، فهو على يقين من وجود الفرس الكبيرة فى داخلها ، وكانت لا تكاد توجه اليه تحية ، بل تتعمـد أن تشعره بأن وجوده معهما غير مرغوب فيه ، وكان يبدو على المرأتين انهما تنتظران خروجه ، فاذا ظهر على فرانســوا التصميم على البقاء ، نهضت الانسـة لامبير وقبلت بيبى فوق جبينها ، وقالت لها :

ـ ســـأنصرف الآن ... الى الغد اذن ياحبيبتى ... وسأحضر ما وعدتك به

فاذا سأل فرانسوا فيما بعد :

ـ ما الذى وعدت باحضاره ؟

كانت بيبى تقول دائما :

ـ لا شىء ذو أهمية

واستمر الحال على ذلك المنوال أربع سـنوات تقريبا ، فكانت رائحة السجائر القوية لا تكاد تفارق حجرة بيبى

وذات يوم ، منذ ستة أشـــهر تقريبـا ، بلغ الغيظ بفرانسوا غاية مبلغه ، وأظهر ذلك بوضوح ، فانفجر فجأة موجل غضبه على طريقته الخاصة به ، اذ التفت الى الانسة لامبير ، وقال لها وهو يحملق فيها بنظرة باردة :

Add to Basket

ـ هل يثقل عليك أن أطلب منك فرصة للانفراد بزوجتى بين حين وآخر ؟

فنهضت وانصرفت من غير أن تنبس ببنت شفة ، ولم يرها بعد ذلك فى بيته أبدا

وكانما لحظت جان شروده بافكاره الى بعيد جدا ، فقالت له :

ـ أؤتم لك حديث ميمى لامبير أم أنت شارد الذهن ؟

ـ بل أرجوك أن تتميه

ـ كنت أقول لك ـ ولكنك لم تكن مصغيا ـ ان ميمى لامبير ليست حقيقة من طراز سيىء ... ولكنى أظنها خيالية عاطفية للغاية ، شأن جميع العوانس المتقدمات فى السن ، وقد جاءت اليوم ـ على حد قولها ـ لتخلص ذمتها وتريح ضميرها ، فصداقتها لبيبى كانت أكثر من عون أدبى لها ، لانها نجحت ـ على حد قولها ـ فى اضفاء معنى على حياة بيبى .. وكان ينبغى عليها ألا تنهزم امام اهانة من رجل وتتخلى عن بيبى ... لماذا تبتسم ؟

ـ أنا لا ابتسم ، استمرى

ـ انها تريد أن ترى بيبى وترفه عنها .. وقد حدثتنى عن رغبتها فى طلب تصريح بالزيارة ، وقد نصحتها أن تترك بيبى وحدها فترة من الزمن ، ومن الغريب ان الناس جميعا يتحدثون بغباوة فائقة عن بيبى ، فبالامس مثلا حضرت مدام لورتى ، الا تعرف لوريت لورتى زوجة صانع البيرة ؟

وكان يعرف جميع الناس فى المدينة بصورة غامضة ، فلم يكن الناس فى نظره سوى صور مبهمة ، والصورة التى لديه عن لوريت لورتى انها امرأة بدينة ذات ذقن متراجعة

Add to Basket

الى الخلف

واستطردت جان قائلة :

ـ كنا قد تقابلنا فى مؤسسة نقطة اللبن ، فزعمت انها تريد أن تجتمع بى لتشاورنى فى شئون تلك المؤسسة ، واذا بها تحضر معها ـ كانما ذلك بطريق الصدفة ـ الآنسة فيلار ، بنت أخت الاستاذ بونيفاس ، وقد استقبلتهما ها هنا فى الحديقة ، وكان من الضرورى طبعا أن أقدم اليهما الشاى ، واعتقد ان بونيفاس أرسل بنت أخته عمدا ليعرف وجهة نظرنا فى القضية ، فاحسست ان هذه الزيارة تخفى نوعا من المؤامرة ... وبصورة شبه طبيعية تطرق الحديث الى « المسكينة بيبى » ، فاذا بالآنسة فيلار تقول : « البعض يزعمون انها عندما كانت فى تركيا ادمنت تعاطى المخدرات، ولما عادت الى فرنسا كانت تتعاطاها حين تختلى بصديقة لها » .

ولمعت عينا جان ، وهى تعلق على ذلك بقولها :

ـ وهذه الصديقة المقصودة هى ميمى لامبير طبعا ، فتصور قولهم ان بيبى أدمنت المخدرات فى سن السادسة عشرة ، لانها كانت فى السادسة عشرة عندما عدنا من تركيا الى فرنسا .. ثم تتم المهزلة فصولا بقولهم انك لابد قد لاحظت ذلك الادمان فمنعت صديقتها من زيارتها وحلت بينها وبين تعاطى المخدرات .

وكان فرانسوا قد كف عن الاصغاء ، وشرد بخواطره الى بعيد ، وران على نفسه الحزن ، وساوره الحنين الى المستشفى وما فيه من هدوء وطمأنينة ، وتذكر رقة الراهبة الاخت آدونى وقد عقدت يديها فوق معدتها وهى واقفة تحدثه ، أو تؤنسه وسوسة مسبحتها وهى تمشى فى

Add to Basket

الدهليز أو فى الحديقة ، انه لم يكد يغادر ذلك المستشفى ولكن ها هو يحن اليه .

والتفت بحركة آلية نحو البوابة ، وقال :

ـ لم يعد الاطفال بعد

ـ ان الوقت غير متأخر

وكان الظهـــر قد حان ، ولو كانت بيبى موجودة لكان الاطفال جالسين الان الى المائدة فعلا ، اما مع جان ، فلابد من حصول التراخى فى كل شىء بالبيت ، ونهض فرانسوا فسألته :

ـ الى اين يا فرانسوا ؟

ـ سأصعد الى الطابق العلوى قليلا

واوشك ان يقول :

ـ سأذهب الى حجرة بيبى

فتلك كانت هى الحقيقة ، لانه بحـــاجته الى تجـديد الصلة بها بعيدا عن هذيان الاشاعات ولغط الاحاديث

وبدأت هذه الصلة بدخوله قاعة المائدة ، فذلك الضـــوء الخافت ، ورائحة الفاكهة الناضجة ، ولمعان الاثاث ، أليس ذلك كله ترتيب بيبى ، ونظـــــام بيبى ، وهدوء بيبى ، يستعيدها من جديد ؟

ان بيبى هى التى نسقت وزينت البيت ، فألوان أوراق الجدران اللطيفة ، والستائر الحريرية التى تسلسل الضوء وتكسر من حدته ، وتلك الزخارف فى كل مكان ، من صنع يدها أو ابتداعها ، فالقاعة كلها ذات جـو أثيرى يحمـــل طابع بيبى ، وترجع هذه الاعمال الى السنوات الثلاث التى قضتها بعد النقلة من البيت القديم متفـــرغة للتعـــديل والتنسيق ، وكان هو فى تلك السنوات منصرفا بكليته الى

Add to Basket

تنمية أعماله ، ويكثر من الاسفار وحده أو مع فليكس ، وكان في حماسته مملوء النفس بالاعتقاد انه مجدود موفق في كل أمر يهم به ، وكان موفقا فعلا في جميع مشروعاته

الم يكن جديرا بيبي أن تكون سعيدة بذلك التوفيق ؟ انه كلما عاد الى البيت كان يجدها مع أمها او أختها ، فيقبلها ، أليست هي التى أرادت أن تكون صديقة زوجها ؟ أجل لم يكن لديه متسع من الوقت للعناية بها ، وكلما وجدها ساهمة أرجع ذلك الى ضعف صحتها

وعندما اشتروا مزرعة البلوط ، وبدأ العمل في اعدادها للاقامة قالت :

ــ أحب أن أطلب اليك شيئا يا فرانسوا ٠٠ هل يضيرك لو أنجبنا طفلا على الفور ؟

وقطب جبينه لاول وهلة ، لانه لم يكن يتوقع طلبا كهذا ، أو على الاقل لم يكن يتوقعه بهذه الصورة المباشرة الرزينة ، كانه مشروع صفقة تجارية

ــ وهل تريدين طفلا ؟

ــ أتمنى ذلك

ــ اذن في هذه الحالة ٠٠

ولما اعاد النظر في الموضوع سره أن تجد بيبي في ذلك الطفل ما يشغل وقتها ، فلا تشعر بالوحدة الكاملة عندما يغيب عنها بضعة أيام

وتراءت بيبي لعينيه كما كانت في تلك المدة ، حبلى ، أشد شحوبا من المعتاد ، تشرف على أعمال البيت ، فظن من واجبه أن يأتيها بالازهار والحلوى ، ولما تم تشييد الحجرات الثلاث واعدادها في فصل الخريف ، أصرت على تمضية فصل الشتاء في مزرعة البلوط

Add to Basket

وأفزعه من خواطره صوت يقول :
ـ مائدة الغداء جاهزة !
وكانت مارت قد فتحت الباب ووجدته جالسا على فراش زوجته
ـ هل عاد جاك ؟
ـ الجميع على المائدة

فنزل ، ولم ينهض ابنه لاستقباله ، بل نظر اليه فى شىء من الاستطلاع ، ثم رفع خده اليه ، ورد على قبلته بقبلة شاردة داعبت اذن أبيه ، وكان طفلا جان هناك أيضا وقد ربطا حول عنقيهما منشفتين ، فقالت لهما أمهما :
ـ ماذا تقولان للعم فرانسوا ؟
ـ أهلا بك ياعم فرانسوا

فاشاح بوجهه كى يخفى مشاعره ، ثم جلس فى مواجهة ابنه ، وكان قد خامره احساس غريب حين انحنى فوق وجه جاك ليقبله فقد خيل اليه برهة انه ينحنى فوق بيبى ، فثمة ذلك البياض الشاحب ، والبشرة الشفافة ، والانفصالية عن كل شىء ، كأنما هناك حياة خاصة بها خارج الحياة

ولماذا ظل سنوات كلما حدثها عن الصبى كان يقول لها دوما ومن غير تفكير :
ـ ابنك .. ؟

ومع ذلك لا يمكنه أن ينكره ، والفضل فى ذلك لانف آل دولج ، ذلك الانف الطويل المدبب الذى يبدو كالنغمة النشاز بين ملامح ذلك الطفل
ولكن لا يسع احدا حين ينظر الى جاك أن يعتقد انه أمام

Add to Basket

ابن رجل ، فالصبى كان ابن امرأة من جميع الوجوه ، فيه رقة الانوثة وضعفها وانطواؤها ورشاقتها

وكان جاك كثيرا ما يتـــأمل والده فى جد كما يتأمل الانسان غريبا عنه ، واحيانا اخرى كان يخرج الى الحديقة أو الجراج ليبحث عنه ولكنه لا يفعل ذلك الا حينما يريد منه تهيئة شص الصيد أو اصلاح لعبة عطبت ، فلم يـكن بينهما ابدا ذلك الافضاء الحميم ، ولا ذلك الحنين الجسدى الذى يوجد بين الطفل وأمه

فهل هذا هو السبب فى أن فرانســـوا كان قليـــل الاهتمام به ؟

ان فرانسوا بطبعه يكره الضـــعفاء ، وان اردنا الدقة التامة قلنا انه يتجاهل وجودهم ، ويلغيهم من غير تفكير ، ولذا كان كثيرا ما يلاعب أولاد أخيه ، ولا يفكر فى ملاعبة ابنه ..

وغمغمت جان من غير حماسة :

ـ كل ياجاك ، فانت تعلم ان ماما لن تكون مسرورة اذا رأتك تأكل بهذه الصورة المتراخية

فرمقها الصبى بنظرة سوداء ، ثم نظر الى أبيه برهة ، وعاد الى الطعام ، ولكن فى شىء من المضض ، وصاحت جان:

ـ الى أين أنت ذاهب يا فرانسوا ؟

وكان فرانسوا قد نهض عن المائدة قبل ختام الطعـــام بفترة طويلة وأخذ يصعد السلالم ، فقد استولت عليه لهفة أليمة جعلت صدره يخفق ويديه ترتجفـــــان ، فلابد من العـــــزلة ، ولابد له من البحث عن بيبى فى كل شىء مما حوله ، لابد ، لابد

Add to Basket

كيف أمكن أن يستعصى عليه فهمها ؟

وأخذ يتمشى فى الحجرة شأن رجل ماتت عنه زوجته ، حتى لقد أوشك أن يفتح دولاب بيبى ليلمس بيديه نعومة أثوابها ، ويقبل بشفتيه هدب وشاح من أوشحتها التى كانت مولعة بها

انه لم يستطع ان يفهم شيئا ! وقد بدأ عجزه عن فهمها من أول يوم ! بدأ ذلك فى رويان ! بدأ ذلك فى كان ! بل بدأ ذلك قبل رويان وكان بزمن طويل ، بدأ بطفولته هو ، حينما كان يرى أمه تطوف أرجاء البيت فى همس كأنها النملة الشغالة ، والتى كانت تقول له دائما بتهيب ظاهر :

ـ احذر ! فها هو والدك قادم !

فهل كان هناك سبب يدعو الى معاملتها بغير ما عوملت به امرأة الدباغ دونج ، لان اسمها يوحى بالاصل النبيل ، ولانها نشأت فى أرقى أحياء اسطنبول ؟

ان الحياة ليست عواطف خيالية كما تتوهمها الفتيات الصغيرات فى أحلامهن ، بل هى وقائع صلدة ، لابد لبيبى ان تروض نفسها على الواقع مثل أى انسان ، وأن تكف عن مراقبة الدنيا بعينى غزال وحشى نافر !

وكان عند زواجه فى ابان عنفوانه وتقدمه نحو النجاح ، فهل كان لديه متسع من الوقت ليعنى نفسه بما يخطر ببال طفلة مثلها ؟

وهل كان من المفروض ، لانها مجردة من كل رغبة جسدية ، أن يقضى البقية الباقية من عمره محروما من رغبات الحب ولذات الحس ؟

فهل فهمت الوضع ؟ كان ذلك خير ما صنعت ! فانها

Add to Basket

على كل حال لم تكن خيالية كما يبدو عليها ، اذ اختارت أن تكون صديقته فحسب !

لقد اعطاها كل شيء رغبت فيه ، هل حجرة نوم والديه في شارع الدباغين ذات طراز عتيق لا يروقها ؟ وهو كذلك يا فتاتي ! غيريها ! فمادمت لاتتدخلين في أعمالي

وصورة الاب دونج وصورة الام دونج على جانبي الفراش ؟

لا بأس ! يمكن ان نجد لهما مكانا على جدران حجرة المكتب

انها بهذه الطريقة لم تحاول ان تعقد الحياة ، الا عندما تعرضت لموضوع مدام فلامان ! ٠٠ وما شأنها هي ؟ وماذا يضيرها من اجتماعه بمدام فلامان بصورة عارضة كلما راق له ذلك ، ما دامت هي شخصيا مجردة من اية فكرة عن اللذات الحسية ، ورغبات البدن ؟

كان يجب أن تتعود ذلك كما تعودته جميع الزوجات الاخريات ! وذلك اجدى عليها في النهاية !

أما عن محاولة الاتصال بالعمل بحجة المعاونة فيه ، فحاشا لله ثم حاشا ! فالمرأة التي تقضي كل صباح ثلاث ساعات امام مائدة الزينة ، وتصنع من زلال البيض معاجين تلطخ بها خديها كل ليلة للاحتفاظ بنضرة بشرتها وبياض لونها ، وتلف يديها بالمناشف المبلولة لتحفظ عليهما بياضهما ، لا يمكن أن تصلح للعمل بأي حال من الاحوال !

وعندما كان يعود من المكتب كان يسألها :

— هل كل شيء على مايرام يا عزيزتي ؟

— على ما يرام

Add to Basket

ـ هل قضيت يوما لطيفا ؟
ـ ليس سيئا !
فلماذا لم تكن تقول اطلاقا انها قضت يوما لطيفا ، ولو لتدخل السرور على قلبه ؟
ثم لماذا كل هذه التعقيدات من قبيل :
ـ هل يضيرك ألا ننجب طفلا مدة سنتين أو ثلاث ؟
ـ الست غاضبا ياعزيزى بسبب ما قلته لك ذلك اليوم؟
ثم فجأة ، تقول له كأنها تتكلم فى صفقة تجارية :
ـ أتمنى أن أنجب طفلا على الفور

أما اختها جان فانجبت طفليها من غير تفكير ، كأنهـــا تأكل الفطائر وهى تثرثر أو وهى شاردة ، ثم ان فليكس لم يجرب تلك النظرات المريبة التى كانت تلقاه بها بيبى كلما عاد الى البيت ، حتى انه كان يظن أحيانا انه عدوها اللدود ، أو على الاقل متطفل ثقيل على حياتها .
واذا اتفق عند دخوله أن كانت تكتب شـــيئا ، كانت ترتب الاوراق بسرعة حتى لا يتمكن من قراءة ماكتبته

ـ ماذا كنت تكتبين ياعزيزتى ؟
ـ لا شىء
ـ هل أنت متضجرة ؟
ـ كلا ... وأنت هل قمت بعمل كثير ؟
ـ نعم ... كثير جدا
ـ هل قابلت اناسا كثيرين ؟
ـ كل من يتحتم على مقابلتهم بحكم العمل

ثم تبتسم ابتسامة عريضة ، بشـــفتيها الرفيعتين ، فكانت تساوره الرغبة أحيانا فى أن يصفعها ، أو أن يغادر البيت قائلا :

Add to Basket

ـ ساعود عندما تتعلمين كيف تستقبلينني

وهناك أيضا ما هو أسوأ من ذلك ، هنـــاك اليوم الذى جعلته يحمر أحمرارا شديدا ، وقد احمر وجهه الآن وهو يذكر ذلك الموقف ، وكان ذلك عندما طلبت منه أن تنجب طفلا ، وإثار غضبه طريقة طلبها ، فشرع بنوع من المكايدة يجيب طلبها ، ولم تعارض ، ولكن سالته بلهجة عادية جدا :

ـ اواثق أنت من خلوك من العوائق الصحية ؟

وهذا طبعا لان له عشيقات ، ولانه يخالط النساء حيثما اتفق ، ويعاشر مدام فلامان بين حين وآخر ، ولا يتحرج من أية معاشرة عارضة تسنح له أثناء أسفاره الكثيرة .

ـ ان حالتى الصحية على خير ما يرام ، فلا تقلقى

فكان جوابها ، بذلك الصـــوت الرتيب الخفيض الذى يثير نفسه :

ـ اذن ، لا بأس !

Add to Basket

هل أنا زوج طيب ؟

ومن هذا الاتصال العملى الفاتر ولد ابنهما الوحيد !

وفى يوم ولادته ساورت فرانسوا الرغبة فى أن يقول لها :

ـ والآن ها هو ابنك الذى طلبته بنفسك ! وعسى أن تصبحى بعد ذلك امرأة سوية !

وفجأة ، وهو فى حجرة النوم الخضراء اللازوردية اللون ضرب الحائط بقبضة يده ضربة كادت تحطم يده ، وهو يصيح بغيظ وغضب :

ـ ابله ! ابله

وكان يرمى بهذه الصفة نفسه ، فمن البلاهة أن يظل الاثنان يعيشان سنوات طويلة جنبا الى جنب ، سنوات تصل الى العشر هى خير سنوات العمر ، معاشرة خاطئة ، وكانما كل منهما مسلط على نفسه وعلى صاحبه ، يتقارضان الاذى صباح مساء ! وانها لبلاهة أن يعيش رجل وامرأة خير سنوات العمر يضمهما فراش واحد ، ويتجبان من اتصال جسديهما غلاما ، ويعجزان عن التفاهم !

Add to Basket

كان عليه ان يعود الى مزرعة البلوط كي يجد الصورة الحقيقية لبيبي ، وحينما وجد تلك الصورة في كل ما حوله ، استولى عليه شعور طاغ بالاستنكار والسخط على نفسه

نعم لماذا ؟ ما الذى حال بينه وبين الوصول الى فهم حقيقتها ؟ هل هو وحش كما تصورته زوجته ولا ريب ؟ هل هو أشد أنانية واشد عماية من كل رجل سواه ؟

اليس رجلا كسائر الرجال ؟

لقد مرت به ايام ، يذكرها الآن تماما ، أبغضها فيها بغضا صريحا وكم من ليلة كان يمكنه ان يعود الى هذه الدار ، فتردد فى اللحظة الاخيرة ، لا ليجتمع بامرأة أخرى، بل ليتجنب نظرتها الباردة التى تحاكمه وتدينه ، وكان يقضى تلك الليالى وحده فى بيت شارع الدباغين ، يطالع الى أن يغلبه النعاس .

وعندما تراه فى اليوم التالى كانت تسأله :

ــ هل كان لديك عمل كثير جدا بالامس ؟.

ــ كثير جدا .

وكانت لا تصدقه ، بل كانت موقنة انه قضى الليلة فى غرام جديد ، وهو واثق الآن انها كانت تتشممه عندما يعود الى البيت ، تتشمم ثيابه ، وتتشمم أنفاسه ، وتحاول أن تعثر على رائحة غريبة فيها .

انه قادم من الخارج ، يحمل معه هواء فيه الحيوية الى ذلك البيت الهادىء المطمئن ، كأنه دير من الأديرة ، حيث تعيش بيبى عاكفة على طفل عليل ، وكان يقول لنفسه دوما :

ــ انها تضيق بحيويتي وتعرض عنها ! بل انها تحسدنى على حيويتى ويسخطها أن تلزم هذا الريف بسبب ضعف

Add to Basket

صحة طفلها ولكن اليس هذا هو مصير ملايين من النساء فى العالم ؟ وامى ؟ هل كان لها غير ذلك المصير ؟ ام لانها سليلة دونفيل ؟.

وما من مرة وجهت اليه كلمة تانيب او عتاب ، فهى اعظم كبرياء من أن تعاتبه ، بل انها على العكس ، كلما ازدادت كراهيتها له ، وكلما ازداد ارتيابها فيه وحقدها عليه ، زادت عنايتها بتهذيب سلوكها نحوه ، ولعلها كانت تريد ان يقال عنها فى المدينة :

ـ ان بيبى دونج هى حقا مثال المراة ، والزوجة ، والأم .

فاذا عاد الى البيت بالسيارة كانت تذهب الى الجراج لتلقائه ، ممسكة جاك من يده ، وتقول له :

ـ قل مرحبا بك يا أبى

فيقول الطفل :

ـ مرحبا بك يا ابى .

فتبتسم ابتسامة سرور فاتر ، وتقول :

ـ هل كان لديك عمل كثير ؟.

ـ كثير جدا .

وبدا يتبين فى كل ما تقوله معنى مزدوجا ، فسألها: « هل كان لديك عمل كثير » معناه الحقيقى :

ـ لقد كنت تستمتع بوقتك ، اما انا ففى وحدتى هنا.

فهل كان ذنبه أن تكوينها ضعيف وان طفلهما نشأ على غرارها طويلا شاحبا مثل النباتات المتسلقة ؟ هل يتحتم عليه ان يتنازل عن الحياة ، وينزل عن مشروعاته الجديدة وممارسة وجوه النشاط التى خلق لها ؟.

اذن كانت غيرى ، غيرى من كل شىء ، من النساء،

Add to Basket

ومن مكتبه ،ومن أعماله ، ومن المقاهى التى يتردد عليها، ومن السيارة التى يقودها ، ومن حريته فى الذهاب حيث يشاء ، ومن الهواء الذى يتنفسه ، ومن قوته وصحته ..

وفى ذات يوم ، وقد استبد به الضيق وهو يقود سيارته عائدا الى المدينة خطر له انها انما تزوجته لانها كانت غيرى من شقيقتها ومن انسجامها مع شقيقه فليكس فى روبان وسيرهما معا ، فلماذا لا يكون لها أيضا زوج تستير معه على ذلك النحو ؟ هل ستبقى وحدها مع امها ؟ وكم عاما ستمضى فى اذيال امها من مصيف الى مشتى ، ومن مرقص الى مقصف ؟.

لقد تزوجته لتظفر بحياة على هواها ، فلماذا لا ينظم حياته على هواه ؟ انها تقضى وقتها لاهية بمستحضرات زينتها كما تلهو الطفلة بالدمية ، وتلهو بطفلها وادارة بيتها وتغير فيه وتبدل باستمرار .

انها فى غاية الكياسة فى سلوكها ، ولكنها لم تتحدث اليه اطلاقا عن نفسها ، فلماذا يحدثها هو عن نفسه ؟ انه يحضر الى مزرعة البلوط فيغير ثيابه ويتمشى فى الحديقة ، ويمهد ملعب التنس وينتظر حضور فليكس ليلعبا معا ، فهل كانت غيرى من فليكس ايضا ؟ البس هو وفليكس آل دونج فى مقابل آل دونفيل ؟.

هناك شخص واحد فهمه على حقيقته وهو اونجا جاليبر ، ولم تكن ذكية ولكنها كانت صادقة الالهام حين قالت له :

ـ من سوء حظك ان لك زوجة ليست امرأة ، بل هى فتاة صغيرة ، وادهى من ذلك انها ستظل فتاة صغيرة على الدوام ، فهى عاجزة عن مسايرتك فى عالم الواقع ، وكل حلمها أن تركب زورقا طول حياتها فى ضوء القمر

Add to Basket

وتهمس بالعبارات العاطفية للرجل الذى يجدف معها !.

اما اولجا فكانت امراة واقعيـة ، تفهم ما الحب ، وتفهم قبل كل شيء ما الرجال ، ولذلك كانت تقدر نجاحه وتدرك قوته وتؤمن بازدهاره فى اعماله ، وذات يوم قالت له ، وقد جلست امامه فى الفراش عارية تدخن سيجارة وتداعب شعره :

ـ لو التقينا فى الوقت المناسب لتزوجتك ، فان زوجى جاستون لا يستطيع أن يعمل شيئا ما لم يوجد شـخص يدفعه دفعا ، اما انت ففيك القوة والاقدام ، وكنا معا خليقين ان نفعل شيئا عظيما .

فهل عرفت بيبى رائحة اولجا جاليبر ؟ هذا محتمل جدا ، ومن المحتمل جدا ايضا انها كانت تتشمم جلده بعد ان ينام ، ولذلك قالت له ذات يوم :

ـ اريد أن اقدم لك نصيحة يا فرانسوا ... لا تظننى غيرى ، ولكن ينبغى أن تكون على حذر مع مدام جاليبر ... قد اكون مخطئة ، ولكنى احس انها تريد أن تورطك بسبب هذه العلاقة .

فهل كانت ذات انف دقيق فى ميدان الاعمال ايضا ؟ ان اولجا فى اليوم السابق لذلك الكلام كانت قد فاتحته فى مشروع المستشفى الخاص الذى يبنيه زوجها ، وتريد أن يكون من اكبر المساهمين فى تمويله !.

وقد قال يومئذ لبيبى ، وهو مبهوت :

ـ لا تنزعجى ... فانا ادرى ماذا اصنع .

وعلى سبيل التحدى قام بتمويل الجانب الاكبر من ذلك المستشفى .

وماذا يمكن أن يعيب عليه الناس ؟ لقد كان يعطى

Add to Basket

زوجته كلّ ما تطلبه وأعماله كانت في غاية الازدهار ، وكان يذهب الى مزرعة البلوط كلما استطاع ، ورغباته الشخصية محدودة ، فلا مقامرة ، ولا ادمان ، ولم تثر اية فضيحة حول علاقاته الغرامية ، وعندما يعود الى مزرعة البلوط كان يصلح ما يصيب الادوات من عطب ، ويستيقظ في السادسة صباحاً ، وتظل ستائر حجرة نوم بيبى مسدلة الى الحادية عشرة ، ولا تهبط الى الحديقة الا وهي في أتم زينتها ورشاقتها ، وعلى شفتيها ابتسامة مرسومة ، فتجده لم يزل في بيجامته يعمل في الحديقة ، فتقول له :

ـ ألم ترتد ثيابك بعد يا فرانسوا ؟ سيكون الافطار جاهزا بعد لحظة .

وسمع صوتا يقولُ له من خلفه :

ـ ماذا تصنع ؟.

فتبين انه واقف في وسط الحجرة ، وكان يذرعها طول الوقت بهمة لا تفتر ، وعادت جان تسأله في شيء من الفزع :

ـ ماذا بك يا فرانسوا ؟.

ونظر في المرآة المثلثة فطالعته سحنته مكفهرة ، ورأى شعره مشعثا من عبثه به ورباط عنقه مفكوكا ، واستطردت جان تقول :

ـ لا أدري هل كان من الحكمة حضورك الى هنا للراحة ، كان من الافضل ان تستريح في البيت مع فليكس ، فانت هنا تكثر من التفكير .

فنظر اليها وابتسم ابتسامة شاحبة ، وقال :

ـ جان ! اريد أن تقولي لي شيئا ، أجيبيني بصراحة ... هل أبدو في نظرك زوجا سوبا ، زوجا طيبا ؟.

Add to Basket

ـ ولكن ...
ـ اجيبى !..
ـ طبعا يا فرانسوا
ـ هل انت مقتنعة بانني زوج طيب حقا ؟.
ـ فيما عدا بعض مغامرات تتناقلها الاشاعات ... ولكن ذلك ليس ذا اهمية ! فانا متأكدة من ان فليكس ايضا له مغامراته ... وما دمت لا اعلم شيئا ، وما دامت المغامرات لا تحدث تحت سقفى ..

ـ انت مخطئة يا جان ! فانا وحش ضار ... ابله ... سفيه ... اتسمعيننى ؟.. انا المسئول عن كل ما حدث ؟.

ـ اهدأ يا فرانسوا من فضلك ! فالاطفال تحتنا مباشرة يتناولون الشاى ، وجاك بالامس فقط سالنى مرة أخرى ما هى الجريمة التى اقترفتها أمه ... فلم أدر بماذا اجيبه .

ـ اتريدين ان تعرفى بماذا تجيبينه ؟.. قولى له ان جريمة أمه الوحيدة انها أحبت أباه أكثر مما ينبغى ؟.

ـ فرانسوا ؟.

ـ لا تخافى ... لست مجنونا ... انا ادرى ماذا اقول ... اذهبى الآن من فضلك ... امهلينى بضع دقائق أخرى ... وبعد قليل سأهبط اليكم ، كامل الهدوء ... ولا تقولى شيئا لجاك ... فيوما ما ساقول له كل شىء بنفسى ... آه لو علمت يا عزيزتى جان الى اى حد من البلاهة يصل البشر فى بعض الاحيان !.

ثم عاد يقول وهو يلوح بقبضته فى الهواء ويهم ان يدق بها الحائط بعنف مرة أخرى :

ـ بلهاء ! بلهاء ! بلهاء !.

Add to Basket

أرخى الليل سدوله وبدا القمر يفضض ذؤابات الاشجار ، والهواء العليل يهب من النافذة المفتوحة ، وسكون الليل لا يعكره ، بعد أن أوى الاطفال الى فراشهم ، سوى اقبال الخادمات على غسل الاوانى التى استخدمت فى العشاء ، ولم يكن ظاهرا للعيان من جان وهى مستلقية فى المقعد الوثير الا شبح باهت غامض ، وطرف سيجارتها المتقد ، ورائحة دخانها تختلط بنسمات الليل .

وقال لها فرانسوا فى الحاح :

ـ حدثينى عن أبويك وكيف كانت حياتهما معكما فى اسطنبول .

ـ هل لابد من ذلك حقا ؟ فليس فى حياتهما شىء يثير اهتمامك ، وانما هما زوجان حاولا جهدهما أن يظفرا بالسعادة ، مثلكما ومثلنا ، ومثل جميع البشر ، والآن مات والدنا كما تعلم ، ونزحنا مع أمنا الى فرنسا ، وقد انتاب الروماتيزم أمنا ، فهى تمشى فى شوارع كان ، من الفندق الى الكازينو ، متوكئة على عصا ، وذلك يضفى عليها مهابة ، فكأنها سيدة عظيمة تعيش فى المنفى ... والحق أن والدتى حينما تكف عن لعب البكاراه ، تبذو من وجوه كثيرة وكأنها ملكة .

وكان فرانسوا جالسا فى مكانه لا يتحرك كأنه التمثال ، لا يدخن ، ولا يخرج من شفتيه أدنى صوت ، وقد ارتدى ثيابا قاتمة فلا يكاد يميز الانسان وجوده لولا وجهه الشاحب .

ـ ألا تظن يا فرانسوا من المستحسن اغلاق النافذة وانت ضعيف ؟

ـ لا أشعر ببرد .

والواقع انه كان متدثرا بغطاء مما يستخدمه المسافرون

Add to Basket

على ظهر عابرات المحيط ، وقد أصرت جان على تذكيره به لأنه أصيب بنوبة اغماء وهو فى الطابق العلوى منذ قليل، ولكن الاغماء لم يطل ، فما كادت ترفع جان السماع لتدعو الدكتور بينو حتى كان قد ثاب الى رشده ، فقال لها :

ــ لا لزوم لمشورته .

فان الدكتور لينير كان قد أعطاه فى المستشفى حبوبا يستخدمها فى مثل هذه الحالة فليس عليه الا أن يتناول حبة منها الآن ، وهو الذى أصر أن يجلس فى هذه الحجرة المظلمة ، ونافذتها مفتوحة لهواء الليل الرطب ، وصرير الجنادب الرتيب ، وضوء القمر الذى يفضض غصون الاشجار من غير أن يبدو قرصه للناظرين .

واستطردت جان تقول :

ــ لو كنت تعرف اسطنبول لاستطعت أن تفهم الأمور فى يسر ، فالجالية الاجنبية بأكملها كانت تعيش فوق ربوة عالية ، فى ضاحية بيرا ، وهذه الضاحية مدينة عصرية بكل معنى الكلمة ، وكان مسكننا فيها جناحا كبيرا فى عمارة ذات سبع طبقات ، بيضاء اللون حديثة البناء ، وكانت شرفاتنا ونوافذنا تشرف على سقوف المدينة الوطنية وعلى القرن الذهبى ... ألم تطلعك بيبى على ما لديها من الصور الشمسية ؟.

ولعلها أطلعته عليها منذ زمن بعيد ، ولكنه على كل حال لم يلق اليها بالا ، وقد جعلته كلمات جان يستطرد فى تفكير عميق ، ألم تقل له بيبى فى بداية عهد زواجهما:

ــ كم كنت أود لو عرفت أباك !.

وها هو ذا بعد عشر سنوات يشعر بتلك الرغبة فى الاستطلاع ، ولم تمهله جان طويلا بل أخذت تروى له ما كان فى أشد الشوق اليه :

Add to Basket

ـ لا اظن الحياة فى تركيا الان مثلما كانت فى أيامنا ، فعندئذ كانت الحياة غاية فى الطلاقة والمرح ، وكانت والدتنا تحفة من تحف الجمال ، فكانت تعتبر أجمل امراة فى حى بيرا الاوروبى كله ، وكان أبى طويل القامة نحيلا ، له هيئة استقراطية ، أو على الاقل هو ما سمعت الناس يقولونه دوما عنه .

ـ وكيف بدأت حياته هناك ؟.

ـ لقد ذهب آلى هناك ليعمل مهندسا عاديا ... آه لو علمت أمى انى افشى لك هذا كله ! لقد كان ترقى والدى سريعا ... ويقال ـ وانا اعتقد ان ذلك الظن صواب ـ ان والدتى هى التى صنعته ... فالسفير الفرنسى فى ذلك الحين كان أعزب ... وكنت تجدنا دائما مدعوين فى السفارة حيث كانت تقام باستمرار مآدب الغداء والعشاء ، وكان السفير يستشير والدتى فى جميع أموره ... حتى صارت فى النهاية المضيفة الحقيقية غير الرسمية للسفارة ... افهمت ما اعنى ؟.

ـ وابوك ؟.

ـ انى اذكر واقعة طريفة ... بمجرد نجاح مساعى والدتى فى تعيينه مديرا للترسانة البحرية ، أجبرته أمى على لبس المنوكل ، وقد أورثته هذه البدعة حركة عصبية فى احدى عينيه ..اتسألنى هل كان يعرف الحقيقة ؟. لست متأكدة من هذا ... فقد كنت صغيرة السن جدا ، وكنت اقضى معظم اوقاتى مع الخدم ، وكان لدينا ثلاثة منهم او اربعة ، والحق أن بيتنا كان بيمارستانا حقيقيا، أمى مشغولة بزينتها وثيابها، تنثر الاوامر على كل من حولها، وهى تذرع المسكن بغير سبب ، والتليفون لا يكف عن الرنين ، والزوار لا ينقطع سيلهم ، وصراخ أمى لا ينقطع

Add to Basket

ايضا لانها لم تعثر على قرطها ، أو لان الكواء لم يحضر الثوب المطلوب في الميعاد ، وبين هذا وذاك ترفع مسماع التليفون ، وتتعقب خطوات أبي ف مكتبه أو ف النادي دقيقة بدقيقة ، لانها كانت شديدة الغيرة الى درجة الجنون ، واختراع التليفون سهل عليها مطاردته أينما ذهب ، وكان والدى المسكين لا يجسر على رفع صوته ، فهو اشبه بتلك الكلاب الضخمة الانيقة الهادئة ، واذا اشتد عليه الضيق ينفس عن استيائه بتلميع المتوكل ، بينما جفنه يرتجف بحركة عصبية ، ولكنه لا ينبس ببنت شفة .

وتوقفت جان عن الكلام قليلا لتسأل فرانسوا :

ــ أواثق أنت انك لا تريد أن أغلق النافذة ؟.

ــ لا .. شكرا لك .

ــ وكانت والدتى تحتم عليه أن يأخذ معه احدانا كلما خرج لغير العمل ، وقد بدأ باصطحابى بصفتى الكبرى بين بنتيه ، فلما كبرت ودخلت القسم الداخلي في مدرسة الراهبات ، اخذ بيبى بدلا منى ... وكنا نشعر أنه مجبر على صحبتنا ، وفي أيام أجازتى المدرسية كان يأخذنا نحن الاثنتين الى النادى أو محل من محال الحلوى الفاخرة ، ثم يقول لنا : « عندى موعد هام ، سأتركما هنا ولكما أن تطلبا ما شئتما من الحلوى بشرط الا تخبرا أمكما انى فارقتكما » وكنا نطيعه ، حتى اذا عدنا الى البيت وجدنا مشقة في مواجهة والدتنا ، لانها كانت تصر على سماع تقرير مفصل عن تحركاتنا ، ومن من الناس قابلنا ؟ وبأى الشوارع مررنا ؟ ثم تستجوب والدنا استجوابا دقيقا عن أوجه نفقاته الخصوصية ، وتدور المناقشات بينهما غالبا وهما يرتديان ثيابهما للتوجه الى

Add to Basket

حفلة عشاء ساهرة ، وقلما كانت تمر ليلة بغير حفلة كهذه في سفارة او قنصلية أو بيت (بنكير) او ثرى من المشارقة، وابقى انا وبيبى فى البيت مع الخدم .

واشعلت جان سيجارة ، وسألت فرانسوا :

ـ الا يضرك أن أدخن ؟.

ـ كلا . وبعد ؟.

ـ والخلاصة ان امى زادت فى غيرتها تطرفا بمرور الزمن ، ولا سيما بعد أن أدخلونى القسم الداخلى بمدرسة الراهبات ، وصارت بيبى وحدها فى البيت ، ولابد ان ابى كان مضطرا طول حياته معها للغش والخداع ، من الصباح الى المساء ، يخفى اشياء ، ويدبر مؤامرات صغيرة ، ويكذب بلا توقف ، ويبحث عن شركاء يساعدونه على التستر ، بما فيهم خدمنا ، فهو لا يكف عن توصية هذا أو تلك الا تخبر السيدة بالحقيقة ... واخيرا مات ، فظن الجميع ان امى ستغدو سفيرة فى اسطنبول ، فتتزوج السفير الاعزب ، ولكن ذلك لم يحدث ، فعدنا الى فرنسا ... ولك ان تتصور بعدها لماذا أصبحت امى تعيش فى هذه البلاد كالروح الحائرة ... ففى اسطنبول كانت تلقب دائما بمدام دونفيل الحسناء ، كانت ملكة ذات سلطان وامر ونهى ... ثم اذا بها فجاة لا شىء سوى امراة بدينة نصف فى مدينة من مدن الارياف ... وفكرت يوما أن اشترى لها كلبا تتسلى بصحبته ... اتدرى ماذا قالت لى ؟.

ـ ماذا قالت ؟.

ـ قالت لى : « طبعا طبعا ! اذن انت تريدين ان ابدو من جميع الوجوه امراة عجوزا ... كلا وشكرا لك

Add to Basket

يا ابنتى !.. عندما أصل الى هذه المرحلة سيكون من الافضل لى ان أموت » .

وسمعا من الطابق العلوى صوت جاك يتقلب فى فراشه ، ولكن ذلك لم يدهشهما ، لانه قلما ينام نوما مستقرا ، واستطردت جان فى عدم اكتراث مصطنع :

ـ وعلى كل حال يا فرانسوا ، كلنا له قصة فى طفولته، لان لكل اسرة اسلوبها فى المعيشة ، واسرتنا كان اسلوبها ان كل فرد فيها يعيش على هواه ... ويتلاقى الافراد بالصدفة داخل نطاقها ... مثل كرة البلياردو التى يرتطم بعضها ببعض صدفة ، فتتجه فى وجهة جديدة ... والحقيقة انه متى كانت الفوضى هى النظام اليومى ، فلن تفطن اليها أو تضيق بها .

وحملق فيها فرانسوا فلم يستطع ان يتبين الا بياض ثوبها ، ومع ذلك خيل اليه انه يرى شقيقة زوجته لاول مرة ، لانه فى الواقع لم يكلف نفسه عناء التفكير فيها قبل ذلك .

وهل كان من عادته ان يلقى باله الى اى شىء لا يمسه شخصيا بصفة مباشرة ؟ لقد كان ينظر اليها دوما على انها فتاة نشطة لطيفة تدخن السجائر ، وتخوض فى الاحاديث من غير تفكير وبصوت لا يخلو من بحة مستحبة.

وبعد لحظة تردد ، سالها :

ـ وهل كانت بيبى كتوما منطوية على نفسها حينئذ ؟.

ـ لقد كانت دائما على هذه الحالة ... والحقيقة انى لم أعرفها اطلاقا معرفة حقيقية ... لانها كانت اصغر منى بكثير ... وكانت تسرق عطورى وأدوات زينتى ، ومنذ طفولتها الاولى وبها ولع شديد بالثياب الجميلة ،

Add to Basket

فحينما كنا نفتقدها ولا ندرى أين هى ، كنا نوقن أنها فى حجرتها ، أمام مرآة تجرب ثيابا وقبعات سرقتها من أمها أو منى ، وهى لا تناسبها حجما ... وفيما عدا هذه اللعبة القريبة لا اذكر انها تلهو ، فلم تكن لديها دمى ... ولم يكن لها رفاق فى اللعب مثلى ... والحق انها لم تعرف فى طفولتها الا الازمات ، لانها عاصرت اسوأ مراحل العلاقات بين امى وابى ... فالمشاحنات لم تكن لتنقطع بينهما فى تلك الفترة ، وبطبيعة الحال كانت تترك دائما وحدها مع الخدم .

ولاحظ فرانسوا أن جان توقفت عن الكلام ، وظهر فى صوتها التردد ، فقال :

ـ ماذا جرى ؟.

ـ اظن انه لا اهمية لشىء الآن وقد شرعت اخبرك بما كان ... ولكنى اتساءل فقط كيف استطاعت هذه الصغيرة أن تكتم ذلك السر تلك المدة الطويلة ؟. على كل حال اليك الموضوع ... منذ خمس سنوات تقريبا ، جاءت بنيبى لزيارتى ومعها جاك وكان قد تعلم المشى حديثا ، فوجدتنى أنسق بعض الصور الفوتوغرافية القديمة ، وبطبيعة الحال اطلعتها عليها واحدة واحدة ، واخذنا نتذكر الاشخاص وتراجع صورهم فى مخيلتنا ومدى الفرق بين ما فى ذاكرتنا وما فى ذاكرة الورق ، الى ان ابرزت لها صورة تمثلها ، وهى فى الثالثة عشرة ، ومعها فى نفس الصورة احدى خدمنا ، وهى فتاة يونانية نسيت اسمها ، قلت لها :

ـ من المضحك أن يفكر الانسان أن هذا كان شكلك يومئذ ، فرأيت وجهها يحمر ثم انتزعت الصورة من يدى ومزقتها بعصبية فائقة .

Add to Basket

ـ ماذا بك يا بيبى ؟. ماذا طرا بعقلك ؟.
ـ لا اريد ان اتذكر هذه الفتاة .
ـ هل كانت قاسية عليك ؟.
ـ آه لو علمت !.

وانى اتمثل بيبى الآن وهى تذرع الحجرة ، وقد ارتسمت المرارة على وجهها ، ثم اخذت تسرد على الحقيقة وهى ترتجف ، والواقع انى لا أدرى ماذا كنت فاعلة لو اننى فى موضعها ، ولكنى اعتقد انى ما كنت اطوى السر فى نفسى ، وكانت يومئذ فى الثانية عشرة ، وقد تركوها كالعادة وحدها بالبيت مع احدى الخادمات ، وهى تلك الفتاة اليونانية المرسومة معها فى الصورة ، ولعل بيبى كانت تلعب لعبة فردية حين اختفت فى ركن من حجرة الغسيل ، وبعد قليل جاءت الفتاة اليونانية ومعها عشيقها ، وهو جندى تركى ضخم الجثة له شارب مخيف ، ولك ان تتصور مشاعر فتاة دقيقة حساسة مثل بيبى وهى ترى ذلك الجندى الضخم يعاشر الفتاة اليونانية بصورة مبتذلة فوق مائدة الكى ، فتسمرت المسكينة فى مكانها لا تجسر على الحراك ، وفجاة قال الرجل :

ـ اظننى سمعت تنفسا .

فاجابته الفتاة الفاجرة :

ـ لا عليك ، ليس فى البيت الا الطفلة ، فان كانت رأتنا فليس فى التستر فائدة ، بل سيغفينا ذلك من الاحتيال للاختفاء عن عينيها كل ليلة !.

ومرضت بيبى وجعلت تتقيأ بضعة أيام من شدة التقزز والارتياع ، ولكنها لم تبح بكلمة واحدة لأمى أو لأى انسان .

وعلى الفور قفزت الى مخيلة فرانسوا صورة زوجته حين اختلى بها لاول مرة فى حجرة فندق رويال بمدينة كان ، وتركها ليدخن سيجارة عند الشرفة وخيل اليه انها تبكى .

وتنهدت جان ، وقالت له :

ـ لا يحضرنى شىء عن اسطنبول غير ذلك ، من الاوفق ان اذهب الآتام .

ـ لا تذهبى الآن !.

وكان صوت فرانسوا حارا ، والحقيقة انه لم يشعر ان شقيقة زوجته قريبة الى نفسه كما هى فى تلك اللحظة، حتى لقد خيل اليه اذا اكتشفها الآن فقط ، فصارت له منذ تلك اللحظة صديقة وسألها :

ـ هل تحدثت اليك عنى ؟.

ـ من اية ناحية ؟.

ـ لا ادرى ... لعلها تكون شكت اليك منى .

ـ هل كنتما تتشاجران احيانا ؟.

ـ اطلاقا .

وكانت جان هذه المرة هى التى استغرقت فى التفكير، ثم قالت :

ـ ما أغرب الحياة ، فهناك مثلا تلك الفروق بين الاخوين ، او بين الاختين ... كنت تبدو انت وبيبى زوجين سعيدين عاقلين لا يميلان لتعقيد الحياة ، أما انا وفليكس فسعيدان حقا ، انا أروح وأغدو ، وهو يروح ويغدو ، نشعر بالسعادة . ونحن معا ، اذا افترقنا لم نشعر بالشقاء ، وما جدوى أن يعذب الناس انفسهم بالتنقيب داخل مشاعرهم ؟ اننا نبذل غاية وسعنا لنسعد ،

Add to Basket

وكذلك فعل آباؤنا ، وكذلك سيفعل ابناؤنا ، والآن هيا، فاظن الوقت قد حان لتاوى الى فراشك .

فقال فرانسوا من غير أن يتحرك :

ـ انت سعدت ، أما بيبى فشقيت كثيرا .

ـ هذا بسبب نظرتها الى الحياة ! فكلنا نصنع بأيدينا سعادتنا او شقوتنا .

ـ او يصنعها لنا الآخرون !.

ـ ماذا تعنى ؟ أتظن انك انت الذى أشقيتها ؟. اتعتقد انها شقيت بسبب أولجا جاليبر ؟. أتظن انها اقدمت على فعلتها عندما اكتشفت علاقتك بهذا ؟.

ـ كلا !.

ـ اذن ماذا ؟. وهل تظننى اسأل فليكس ماذا صنع عندما يأتى الى البيت بعد رحلة من رحلات الاعمال الكثيرة ؟ أنا لا أريد أن أعرف شيئا عن هذه الامور !. وقد قلت له ذات مرة بكل صراحة ، ما دمت لا ارى بعينى ، وما دام ذلك لا يحدث تحت سقفى ، وما دام.

فقاطعها فرانسوا قائلا :

ـ انت تكذبين !.

ـ لست كاذبة !.

ودقت الارض بقدمها فى غضب ، ولكنه لم يعبأ ، وقال لها :

ـ انت تعلمين تمام العلم انك كاذبة !.

ـ وماذا تريدنى أن أصنع ؟. هل قضيت حياتك انت وبيبى فى استجوابات ونبش للدفائن على هذه الصورة ؟.

ـ كلا ، وهذا هو سبب البلاء !.

ـ سبب البلاء ؟ ماذا تعنى ؟.

Add to Basket

ـ أعنى أن بيبى عاشت طول الوقت فى عزلة عاطفية وعقلية .

ـ أليس كل انسان يعيش بمعزل وحده ؟.. قم الآن ... انهض ... والا أغمى عليك مرة أخرى .

واتجهت الى النافذة فأغلقتها فى حزم ، ثم أضاءت الأنوار ، وفى الضوء المفاجىء تحاشى كل منهما أن ينظر الى الآخر ، وساد الصمت الثقيل برهة ، ثم قالت له :

ـ ألا ينبغى أن تأخذ حبة منومة ؟.

ـ لا أدرى .

ـ أوالق أنت أن شرابا ساخنا لا يمكن أن ينفعك ؟.

فهز راسه سلبا ، فقالت :

ـ كما تشاء ، هذه آخر فرصة لأن الخدم سيذهبون الآن الى الفراش ...

وجعلت تتحرك فى مرح مفتعل كأنها تريد أن تستعيد سجيتها المعتادة ، ثم تناولت يده ، وقالت له :

ـ هيا قم يا فرانسوا ... وفى الغد متسع للتفكير ! ترى لماذا سخر من بيبى ، عندما كانت حديثة العهد جدا بداره فى شارع الدباغين ، ورفعت عينيها الى صورة دونج الكبير بشاربيه المعقوفين ، ثم قالت فى وداعة ، أو على الاقل فى خجل :

ـ ليتنى عرفت أباك !.

انها لم تكن عبارة فضولية من قبيل حشو الكلام ، فبيبى على خلاف شقيقتها لم يكن من عادتها اطلاقا ان تبدى ملاحظات لا معنى لها ، ولم تكن أيضا تقصد مجرد المجاملة الجوفاء .

كلا ، بل شعرت بيبى بالواقع ، وهو أنها جاءت من بعيد جدا ، وأنها جلبت معها ، فى دخيلة نفسها ، شيئا

Add to Basket

من طباع أبيها ، ذلك الاب الذى كان مضطرا الى طلب معاونة الخدم وتواطئهم ، وجلبت معها ، وفى دخيلتها ايضا ، شيئا من امها ، وقصر نظرها ، وحبها للأبهة والسمت ، وشيئا من ضاحية بيرا باسطنبول ، وما ترفل فيه من احتفالات وترف .

لقد عاشت ثمانية عشر عاما وذهنها الصغير يعمل وحده بمعزل عن الناس ، وبمعزل عن الناس ايضا حاولت أن تمحو من نفسها تلك الذكرى القبيحة ، ذكرى الفتاة اليونانية والجندى التركى وما كانت تشاهده منهما فوق مائدة الكى فى حجرة الغسيل .

ولهذا السبب استطاعت فى رويان أن ترفع عنه الحرج وترده الى سجيته ، لانها فهمت على الفور الدور الذى تقوم به الراقصة الصغيرة ، وصارحته بذلك .

ولم يكن ما تنشده هو الزوج كما تصور بوحى من انانيته ، فقد كان أمامها نموذج واضح للزواج بين ابيها وامها ، ولم يكن بالنموذج الشائق لها ، ولم يكن ما هفت اليه نفسها هو المعاشرة الجنسية ، وهى التى بوحى تجربتها العاثرة الحظ ، كانت ولم تزل تنفر من ذلك الاتصال ويكفهر لونها .

وانما هى دخلت بيت شارع الدباغين لتلتمس رفيقا لحياتها ، يؤنس وحشتها التى طالت ثمانية عشر عاما ، ولذا تطلعت الى الجدران وحاولت أن تشعر بحقيقة الجو ، وأمام صورة الاب ، قالت باخلاص :

ـ ليتنى عرفت اباك !.

فلعلها عندئذ كانت تجد التفاهم فيما بينهما أيسر واوضح ، ونزلت الى مكتبه فنظرت برفق وحنان الى المكان الذى يجلس فيه فرانسوا كل يوم وسألته :

Add to Basket

ــ الا تحب ان اساعدك فى عملك ؟.

ولكنه لم يفهم ! اليس مكان المرأة هو البيت ؟. فلتنصرف الى تنسيق البيت على الوجه الذي يروقها !. ولتقم بواجبات الزوجة وتدبير المنزل ، ولتتفق مع النقاشين وصناع الاثاث ، ولتصدر الاوامر الى «الطباخة» لتعد الطعام ، ولتحاول ان تنشيء العلاقات بينها وبين اهل المدينة الصغيرة وقد اوصاها بذلك فعلا ، وقال لها :

ــ متى صارت لك صديقات ــ ولابد أن يحدث ذلك فى وقت قريب ــ سوف لا تشعرين بالملل بعد ذلك .

ــ لا اشعر بالملل !!.

كان ذلك يدور براسه وهو يصعد الى مخدعه ، وفى أمومة حانية أضاءت جان مصباح فراشه ، وتأكدت من وجود ماء فى دورقه .

ــ عدنى أن تنام على الفور ، أأستطيع أن أتركك وأنا مطمئنة يافرانسوا ؟.

فراودته نفسه أن يعانقها لما وجده فيها من رقة لم يكن يظنها خليقة بها .

ــ لا تكثر من التفكير يا فرانسوا ... طابت ليلتك .

وذهبت الى حجرة جاك لتتأكد من انه نائم ، وان الاغطية محكمة حوله ، ثم ذهبت الى حجرة طفليها ، وأخيرا سمعها وهى تغير ثيابها فى حجرتها وتلقى بنفسها فى الفراش ، حيث كان من عادتها أن تدخن سيجارة اخيرة قبل أن تستغرق فى النوم .

والآن هل يعود الى موضوع مدام فلامان مثلا ؟. أن مجرد تفكيره فى مدام فلامان جعل العرق يتصبب من

Add to Basket

جبينه ، انه يتصور تلك المسألة الآن فيجدها فظيعة مخجلة ، وانه ليعجب كيف أن رغبة جسدية عابرة كانت تملى عليه مثل ذلك السلوك !.

وها هى أفكاره تعود به الى كان ، حيث كان يجدف فى الزورق الصغير ، وهو يشعر بالحرج تحت نظرات الملاحين والنوتية فى الزوارق الاخرى واليخوت .

ومع هذا كانت تلك الرحلة ذات طابع انسانى ، ولا سيما بعد حفلة الزواج وما فيها من مراسم ، وما أعقبها من مأدبة تقليدية ، ولكنه كان مستغرقا فى فكرة واحدة من رواسب التقاليد الموروثة ، هى فكرة الاختلاء بزوجته على الفور .

ولم يستطع أن ينام ، فجعل يتقلب فى فراشه وهو يشعر أن جان ترهف أذنيها لكل صوت ، خوفا من أن يعاوده الاغماء ، ولكن اغماءه بعد الظهر كان بسبب الغضب والغيظ والحنق على نفسه ، أما الآن فهو ليس غاضبا ، وانما هو يحاول أن يفهم ، وأن يفهم بجد ، وبصورة شبه علوية ، فهو يبغض الغموض وانصاف الحلول ، وقد اشتهر طول عمره بأنه رجل عملى ، أنه لا يفكر الآن فى ببيى ، لان ببيى لم تعد هى المشكلة بل هو الآن موضوع المشكلة .

لماذا عاش معها طيلة تلك السنوات من غير أن يفهمها ؟ كيف أساء فهمها الى حد كراهيتها ؟ .

اليس قولها :

ـ ليتنى عرفت اباك ؟.

هو فى حد ذاته دليل على انها قد بذلت من جانبها مجهودا كبيرا ؟. لقد اكتشف الآن الف دليل لم يستطع فى حينها أن يفهم مغزاها ...

تلك الليلة مثلا عندما وجدها جالسة بجواره وهو نائم لتكتشف أنه يتنفس بصعوبة وهو راقد على جنبه الايسر ... كانت تشعر أنه رجلها ، ورفيق حياتها على المدى ، وها هو ذا نائم جسده لصق جسدها مغمض العينين ، لعله يحلم وهى لا تدرى عن احلامه شيئا ، وحين يفتح عينيه هل تستطيع أن تتغلغل الى سريرته وتعرف افكاره ؟.

كثيرا ما قالت له :

ـ كنت افكر فى اننا سنعيش معا بقية حياتنا .

وقد رات بعينيها أمها وأباها يعيشان معا فى جو من الخديعة والاكاذيب ، ولذا قالت له :

ـ عدنى انه مهما حدث ستخبرنى دائما بالحقيقة .

ولكن هل كان اسلوب جان فى معاشرة فليكس هو الاصح ، وهل جان شقية بحياتها مع فليكس لانها لا تعرف دقائق تفكيره واحساسه وسلوكه ؟ وهل فليكس شقى بذلك ؟ الا ينمو طفلاهما بصورة طبيعية كما تنمو النباتات؟ أليست بيبى هى المخطئة لانها تعلقت بالمستحيل ؟ .

وبحركة لا ارادية مد ذراعه وهو راقد ، وكان مستعدا للتنازل عن اى شىء فى تلك اللحظة كى يشعر بجسد زوجته النحيل بجواره ، ذلك الجسد الذى خيب آماله بسلبيته ، وخيل اليه أنها لو كانت هنا الآن ، وتسنى له أن يحتويها ويضمها بشدة بين ذراعيه ، لنعما معا ، كلاهما ، بعناق لا يعرفه الناس الا فى الأحلام ، لأن الارواح فيه تتخلص من المادة ولواحقها .

وتقصد عرقا ، وكان يعرق عرقا غزيرا منذ وقوع الحادثة ، وكانت لعرقه رائحة قوية ، وجعل يتساءل : هل يستطيع الرجل أن يقوم بمشاق العمل وانشاء

Add to Basket

المصانع والمزارع ، وفى الوقت نفسه يشغل نفسه بامراته فيؤنسها ويأخذ بيدها ويدمجها فى حياته كلها ؟.

وتمثلت امامه جميع الحجج التى تؤيد وجهة نظره ، ولكنه يشعر الآن انه كان مخطئا على طول الخط !. فليس من حق رجل أن يأخذ مخلوقا رقيقا ، فتاة صغيرة بريئة تتنزه على شاطىء رويان ، ويأتى بها الى بيته الموحش ثم يتركها هناك بمفردها لتعيش فى عزلة كاملة .

وليتها كانت عزلتها التى ألفتها ، بل هى عزلة فى جو غريب ، يوشك أن يكون جوا عدائيا !.

فكيف خطر بباله لحظة أن كونها زوجته يمكن أن يكفى لامتلاء حياتها ؟.

وخطرت له ذكريات غابت عنه طويلا ، عندما كانت فى المستشفى لتضع طفلها ، فقد حدثت أمور تلقى ضوءا لا على عقلية بيبى بل على عقليته هو ، فقد ظن أن من واجبه أن يجلس معها على الاقل فى ساعات المخاض الاولى ، وكان الكرسى غير مريح ، فلم يستطع أن يركز ذهنه ويمنعه من الشرود فى أمور خارجية ، وبين موجتين من امواج الالم سألته بلهجة التوسل :

ـ انت تحبنى قليلا ، اليس كذلك يا فرانسوا ؟.

فأجابها بغير تردد وهو واثق من صدقه عندئذ :

ـ لو لم اكن أحبك اطلاقا لما تزوجتك

فأشاحت برأسها ، ثم تقلص وجهها بموجة الم جديدة، ولما فتحت عينيها بعد بضع ساعات ، وهى لم تزل تحت تأثير المخدر ، أروها طفلها ، فكانت أول كلماتها ونظرها لم يزل مشوشا :

ـ الا يشبهك ؟.

Add to Basket

فاندفعت الدموع من عينيه ، وعندما غادر المستشفى بعد عشر دقائق كانت الغصة تعترض حلقه من فرط التاثر ، ولكنه أخرج المفتاح من جيبه وادار محرك سيارته ، واندفع الى الشارع المغمور باشعة الشمس وضجة الناس ، وبعد دقيقة واحدة انتهى هذا الاحساس الرقيق وعاد سيرته الاولى : فرانسوا دونج الرجل العملى الصلب الذى يعيش فى الواقع ولا يعرف الخيال العاطفى.

كم من الوقت ظلت تناضل فى سبيل انشاء صلة حميمة بينهما بغير طائل ؟.

لقد ذكرته فى ذلك الكفاح اليائس بذبابة شاهدها ذات مساء فى مزرعة البلوط ، وقد سقطت فى جدول الماء ، ففى البداية لم تصدق الذبابة انها تواجه مصيرها المحتوم، فجعلت تحرك ارجلها فى عنف ، وترف بجناحيها ، كانما ذلك الجهد يمكن أن يعيدها الى الهواء الذى هو قوام حياتها ، ولكن حركاتها جعلتها تدور فى دائرة ، وكانت هناك ورقة بلوط كانها جزيرة عائمة ، فظن فرانسوا ان الذبابة ستنجح فى التعلق بها وتنجو من الغرق .

ومرت بضع لحظات من السكون ، لعله الاعياء ؟. لعله الحذر ؟. لعله الاقتصاد فى المجهود كى تبقى منه بقية مدخرة للمجهول ؟. ثم نشطت للكفاح فى مجهود يائس ، فانتشرت الدوائر كالحلقات المتداخلة فوق وجه الماء ، بيد أن الاجنحة كانت قد ابتلت بالماء ، فاى ظلام اطبق عندئذ على عينى الذبابة وهى تغوص فى الماء المثلوج ؟.

وكان فرانسوا واقفا يدخن سيجارة ، ويرقب كفاح الذبابة ، ويتساءل : هل تعرف أن ورقة البلوط ليها نجاتها ؟. انها على كل حال لا تكف عن تحريك ارجلها

Add to Basket

الصغيرة ، وفكر فرانسوا ان يتناول عودا يدفع به ورقة الشجرة نحو الذبابة ولكنه فضل ان يرقب المعركة الى نهايتها من بعيد ، الا انه نودى للعشاء فترك الذبابة لمصيرها .

وبيبى ؟ الم تحاول مائة مرة ، بل الف مرة ، او ليس ما ظنه عدم اكتراث منها او تحفظا انما هو فى الواقع كجمود الذبابة لاستجماع قواها امام المصير اليائس ؟.

لقد رضيت بوضع مدام فلامان ... وكان واثقا انها فى كل ليلة عندما يقبلها بطريقة آلية فوق جبينها او خدها ، كانت تتشممه وتحاول ان تعرف ان كان فى ذلك اليوم بالذات قد ...

وكان هو طول الوقت مرحا مسرورا جم النشـــــاط والحيوية ، لانه موفق فى عمله ، ومؤسســـاته تزدهر بسرعة ، واســـم آل دونج ينتشر فى كل مكان ، ومئات العمال يتعيشون من العمل لدى آل دونج

وعندما كان يخبرها فى ابتهاج بصفقة جديدة ، أو نجاح جديد أحرزه أو عقد جديد للانتاج والتوريد ، كانت تبتسم ابتسامة مهذبة ، وكان يضايقه انها لا تشاركه حماسته، فيسألها :

ـ الا يسرك هذا ؟

فتقول بغير حماسة :

ـ طبعا طبعا .. هل ستخرج هذا المساء ؟

ـ يجب أن أقابل المحامى لكتابة عقد هام

ـ كنت أريد أن أريك الســـتائر التى اخترتها لحجرة الاستقبال الصغيرة

فيرد عليها باشارة غامضة من يده ، فهذا شانها وشانها

Add to Basket

وحدها ، فليس مستعدا أن يشغل ذهنه بستائر حجرة الاستقبال أيضا ! والستائر القديمة التى ترجع الى أيام والديه ، أليست فيها الكفاية ؟

ـ سوف أتأخر ٠٠ فلا تسهرى فى انتظارى

وكان دائما يعود اليها وفى كسرات ثيابه ومسام جلده هواء العالم الخارجى التى كانت معزولة عنه تماما فى بيتها

ـ هل أنت نائمة ؟

ولا تجيبه ، وكان يعلم انها ليست نائمة ، فيغيظه ذلك ، مع انها تتصنع النوم حتى لا يعلم انها ظلت ساهرة تنتظره ، ترهف أذنيها لايسر الاصوات وهى وحيدة

ـ ولم يفهم شيئا من ذلك كله !

وانفتح الباب وابصر شبح جان تقول له مؤنبة :

ـ اسمع يا فرانسوا ، يجب ان تأخذ منوما ، فلك ساعة وانت تتقلب وتزفر فى فراشك ، سأعطيك عشرين نقطة هيا اشرب !

Add to Basket

من أدراها ؟ !

ـ اجلس ياسيد دونج

وعلى حسب خطة الاستاذ بونيفاس فى المحـــاكم ترك الصمت يسود لحظة ، ليتناول قليلا من النشوق فى حركات غير مكترثة ، وهو يحملق فى فرانسوا مثلما يحملق المحقق فى وجه من يستجوبه ، وبعد قليل قال لفرانسوا :

ـ أظننا تقابلنا من قبل فى بيت شقيقة زوجتى

ـ لقد كان ذلك أخى فليكس

وكان الاستاذ بونيفاس قد تعود الامتناع عن التـدخين فى المحاكم وفضل تعاطى النشوق ، وكان يفعل ذلك فى غير أناقة ، فتتناثر ذرات الطباق المســـحوق على لحيته البيضاء وقميصه ، وكان مشهورا بأن ثوب المحـاماة الذى يرتديه هو أشد الاثواب لمعانا فى المحـــكمة كلها بسبب قدمه ، أما أظافره فسوداء من القذارة ، وكان يكاد يباهى بقذارته ويعرضها على الناس فى تحد كعلامة خارجية على تكامله

وكانت الخادمة التى فتحت الباب لفرانســـوا أقبح الخادمات فى المدينة ، ودخل بهوا واسعا طلى بلون العـاج

Add to Basket

القديم ، وكانت للبيت كله رائحة أشبه بالماء الآسن فكانه دار مهجورة

وكان الاستاذ بونيفـــاس مترملا اذ ماتت عنه زوجته وتركت له ابنة وحيدة ، وهذه الابنة الوحيدة كانت جذباء، فكان يميل للكآبة ، ولا شك انه خشى أن يبدو مكتبه مرحا بهيجا رغم دكنة لون اثاثه ، فحرص على أن يكون زجاج نوافذ حجرة المكتب ملونا بلون معتم

ـ غنى عن البيان ياسيد فرانسوا انك لو كنت تقدمت بشكوى أو اتهام ضد زوجتـــك ، أو كانت النيـــابة قد استدعتك بين شهود الاثبات ، لما كنت طلبت اليك القـدوم لمقابلتى فى مكتبى

وشعر فرانسوا بالخجل والضياع ، كما شعر بهما فى أول يوم ذهب فيه الى المدرسة ، فلم يستطع أن يجيب جوابا مناسبا ، وبأناة وهدوء فتح الاستاذ بونيفاس منديلا ضخما دفن فيه أنفه ثم نفخ أربع مرات أو خمســـا ، ثم نظر فى النتيجة نظرة فاحصة وطوى المنديل بعناية وحرص !

ولم يسبق لفرانسوا ان ذهب لزيارة الاستاذ بونيفاس لا لاستشارة قانونية ، ولا ليمثله فى قضية من قضـــاياه المدنية الكثيرة التى يضطر اليها بحـــكم عمله ، بل كان يستشير دائما محاميا شابا من الطـــراز الحـديث الذى يحتقره الاستاذ بونيفاس ، لذا شعر فرانســـوا بالحرج والتأثم كمن ينبغى عليه أن يعتذر ، فتلك جريمة لا كفارة لها ، لان الاستاذ بونيفاس هو المحامى الوحيد فى المدينة ، بمعنى انه المحامى الوحيد الجدير بهذا الاسم ، فهو محـامى جميع العائلات ذات الشأن ، وكان يعرف أسرارها أكثر مما يعرفها كاهن الاعتراف

Add to Basket

ـ حماتك من آل شارتييه فيما أعتقد ؟ .. والعجيب في الامر انى عرفتها معرفة سطحية عندما كنت شابا صغير السن ، فقد كان لها أخ اسمه فرناند ، كان ملازما فى سلاح الفرسان فى سومور ، فى نفس الوقت الذى كان فيه ابن عم لى ضابطا هناك ، وابن عمى هذا ورث ضيعة صغيرة على بعد كيلو مترات قليلة من بيت آل شارتييه ، وكان شارتييه الكبير أمين خزانة المقاطعة .. واذكر جيدا انه كان يعانى من مرض النقرس .. أما ابنه فرناند شارتييه أخو حماتك فانزلق الى قضية قذرة تتعلق بالغش فى لعب الورق فى مونت كارلو ، ومات صغيرا فى المستعمرات ... هل كنت تعلم هذه الامور ياسيد فرانسوا ؟

ـ بصورة غامضة

وكان فوق المكتب أمام الاستاذ بونيفاس ، تحت يده الكبيرة الغزيرة الشعر ملف سمنى اللون مكتوب عليه بحروف مستديرة : « قضية دونج »

ـ أما دونفيل الذى تزوجته حماتك ، فكان ـ ما لم أكن مخطئا ـ من الشمال ، من مدينة ليل .. وهو مهندس ، التحق بعد زواجه مباشرة بوظيفة فى تركيا ... وكانت اوجينى شارتييه فى ذلك الوقت فتاة من أجمل فتيات المنطقة كلها ..

وظل الاستاذ بونيفاس يفتح الملف ويغلقه طول الوقت ، وفرانسوا يتساءل : متى يدخل الاستاذ بونيفاس أخيرا فى الموضوع ، وفجأة وبلا مقدمات :

ـ أنت ترى ياسيد دونج ان قضيتك يكتنفها سوء الحظ ، واسوأ ما فيها هو نوع السلاح الذى اختارته

Add to Basket

موكلتى ، فالمحلفون يغتفرون أحيانا طلقة مسدس أو طعنة سكين ، مع العلم بأن محلفى الاقاليم أقسى على العموم من المحلفين فى باريس ، فالمحلفـــون فى الارياف لا يظهرون اطلاقا أى تسامح نحو النساء السجينات ، وفى رأيى انهم فى ذلك على حق ، فمن المستحيل تقريبا ان تدافع عن قضية قتل بالسم على اعتبارها جريمة عاطفية أملتهـــا الغيرة ، فتحت تأثير الانفعال العنيف قد يطلق الانســـان النار بالمسدس أو يتناول فأسا ويضرب بهـــا ضربة مفاجئة ، ولكن من الصعب أن تتصور انفعالا حادا كهذا يستمر مدة طويلة فى عنفوانه ، ريثما يحصـــل على السم ، ويتربص الفرصة المواتية ، ويقـــوم بجميع ما يلزم من التفاصـــيل لاتمام فعلته

وتناول الاستاذ بونيفاس دفعة أخرى من النشوق ، من غير أن يحول عينيه الثاقبتين عن وجه فرانســوا الذى لم يشعر فى حياته بالحرج وعدم الارتياح كما شـــعر بهما الآن ، ولا شك انهـــا كانت المرة الاولى التى يفقد فيهـــا فرانسوا دونج سيطرته على نفسه تماما وأحس بالضـــياع والحيرة ، فهو لا يعرف نفسه ، ولا يفهم المأساة ، ولا بيبى دونج ، على الصورة التى بدت بها هذه الامور والاشخاص جميعا فى الملف الذى تحت قبضة يد هذا المحامى الثقيلة

ـ وقد كانت موكلتى متسرعة حينما اعترفت فى طيش بانها حصلت على السم قبل الجريمة بثلاثة أشهر ، فهـل تعرف رئيس نيابتنا ؟ انى استطيع أن أتوقع سلفا الآثار التى سوف يستخرجها من هذا الاعتراف ، والآن هل لى أن أسالك ياسيد دونج عن الشروط الواردة فى عقد زواجك ؟

فأجاب فرانسوا بصـــوت وديع خال من التعبير كأنه

Add to Basket

تلميذ مهذب فى المدرسة يجيب عن سؤال وجهه اليه معلم الحساب :

ـ ليست هناك نصوص خاصة فى عقد زواجى

ـ آه ! معنى ذلك ان أملاككما تعتبر شركة بينكما على الشيوع ·· وهذا مما يزيد مهمتى صعوبة ·· بكم تقدر قيمة ممتلكاتك ؟

ـ من الصعب التكهن بقيمتها الحقيقية

ـ على وجه التقريب ؟

ـ اذا بيعت المدبغة بيعا جبريا قد لا تساوى شيئا كثيرا ولكن معمـــل الجبن والاراضى والابنية والمواد الاولية تساوى أكثر من مائتى ألف فرنك ، أما ··

فقاطعه الاستاذ بونيفاس قائلا :

ـ ما هو دخلك السنوى منها كلها اجمالا ؟

ـ نحو مليون فرنك مناصفة بينى وبين أخى سنويا

ـ اذن انت وشقيقك شريكان ·· فلنقدر حصـتك فى رأس المال بثلاثة ملايين على الاقل ·· وان كان رئيس النيابة سيقول انها تساوى أربعة ملايين أو خمسة

فقال فرانسوا على استحياء :

ـ لست أرى أدنى صلة بين ··

ولم يدعه الاستاذ بونيفاس يتم كلامه بل قاطعه قائلا :

ـ تعنى الصلة بين هذه الارقام وبين الفعل الذى أقدمت عليه موكلتى ؟ انك تجهل هذه الصلة ياسـيد دونج لانك لا تعلم ان تسعة أعشار حوادث القتـــل بالسم ، أو ٩٥٪ منها تقترف طمعـــا فى الربح المادى ·· وفى الحـوادث الخمسة الباقية تكون الفاعلة امرأة تريد التخلص من زوج بغيض كى تتزوج من عشـــيقها ·· وذلك ما يحدث فى

Add to Basket

الغالب عندما تقع الجريمة فى ضيعة من الضياع ، فنجد الفلاحة تريد الزواج من الاجير الشاب ، فتدس صم الفيران لبعلها كى تترمل وتقدم ميراثها من زوجها المزارع بائنة للاجير الشاب

وانفتح المنديل الكبير مرة أخرى ، ثم دوى النفير جملة مرات ، وأطلق الاستاذ بونيفاس بعدها زفرة ارتياح وسكت قليلا وهو يحملق فى زائره :

ـ يهمنى أن أبادر فأقول لك اننى لا أعتقد اننا أمام جريمة من هذا النوع ، ولكن بما اننا لا نعرف على أى أساس ستتقدم النيابة القضية ، لذا يجب أن نقدر سلفا كل شىء حتى نكون على استعداد ، وانى أذكر قضية مشهورة هى قضية مارتينو وكلت فيها المتهمة زميلا من ألمع الزملاء فى باريس ، فدرس ملف القضية بعناية فائقة محيطة بجميع التفاصيل ، ولكن ممثل النيابة قدم القضية فى الجلسة من زاوية مختلفة جدا

وأخذ فرانسوا يتصبب عرقا ، ولعلنا لو سألناه فجأة أين هو لوجد عناء شديدا فى الجواب ، فهو يشعر انه تائه ، ليس له موضع معين فى الزمان ولا فى المكان ، واستمر صوت المحامى الملتحى القذر يصل اليه واضحا قويا قاطعا لا يعرف الشفقة أو الرحمة

ـ ثلاثة ملايين ، هذا مبلغ لا يستهان به ياسيد دونج ، ولما كان المحلفون فى كل قضية جنائية يختارون بالقرعة ، فمن المستحيل التكهن بطينة هؤلاء المحلفين فى قضيتنا ، فمنهم قطعا تجار صغار يقلقهم تسديد فواتير ببضع مئات من الفرنكات ، ومنهم كتبة وموظفون أهليون يعيشون على دخل متواضع جدا ، ومتى سمع هؤلاء رقم الملايين الثلاثة

Add to Basket

فى المحكمة سرى الطمع والحسد فى أوصالهم .. وهنـاك نقطة أخرى لعلها لم تخطر ببالك .. فأى دليل لدينا على ان ذلك الاحد العشرين من أغسطس هو أول يوم تنـاولت فيه الزرنيخ فى فنجان القهوة ؟

ـ ولكن

ـ دعنى أتم كلامى ! ان موكلتى قد اعترفت انها أخذت الزرنيخ من معملك الكيمـــاوى قبل يوم الحادث بثـلاثة أشهر ... والآن ، ننتقل الى مسألة يعرفها جميع الناس ولو من قراءة ما ترويه الصـــحف عن أخبار الجنـايات والمحاكم ، واعنى ان الموت بالزرنيخ يمكن أن يبدو طبيعيا اذا تعاطى المجنى عليه جرعات ضئيلة جدا فى البـداية ، تأخذ فى التزايد تدريجيا ، فما دليلنا على انك لم تتناول مثل هذه الجرعات الضئيلة فى مدى الاشهر الثلاثة ، من غير أن تفطن الى ذلك ؟

وفتح فرانسوا فمه ، ولكن المحامى لم يمنحه فرصـــة للكلام ، بل أومأ اليه باشارة من يده ذات الاظافر القـذرة قطعت عليه الطريق :

ـ والآن هيا بنا نزن الوقائع بهدوء ، كما هو الواجب ، سوف ننسى الدوافع الحقيقية مؤقتا ، فما نعـلمه أن هذه الدوافع أيا كان شأنها كانت موجـــودة لدى موكلتى منذ ثلاثة أشهر على وجه اليقين ، بدليـــل ان موكلتى فى ذلك الحين جازفت بأن تضبط وهى تأخـــذ قنينة الزرنيخ من معملك الكيماوى الخاص ، وخلال تلك الاشهر الثلاثة كنت تذهب بانتظام الى مزرعة البلوط مقرك الريفى حيث تقيم زوجتك باستمرار

ووقع اسم مزرعة الباوباب على مسمعى فرانسوا وقد مر من شفتى الاستاذ بونيفاس وقعا غريبا ، فمن المستحيل الربط بين ذلك البيت الذى يعرفه بهيجا مشرقا مرتبا أنيقا وبين الاسم الذى نطق به هذا الدب

ـ ... وكنت تنام هناك ، وكنت تأكل هناك ، وكنت تشرب القهوة هناك .. وفى كثير من المرات كنتم جميعا ، بما فيكم حماتك وأخوك وشقيقة زوجتك مجتمعين فى الحديقة حيث وقعت المأساة ... وبعبارة أخرى انه فى خلال هذه الاشهر الثلاثة كانت نفس الظروف متوافرة إذن ، ولنقل انها هى الظروف المواتية للقيام بالعمل موضوع القضية ... مع توافر نفس الدوافع .. فما الذى يمكن أن يدعو موكلتى الى الانتظار طيلة تلك المدة ؟ دعنى أتم كلامى ياسيد دونج ! .. ان واجبى هو تقدير كل فرض ممكن ، وينبغى أن تصدقنى حين أؤكد لك ان السيد روى رئيس النيابة سوف لا يفوته أن يستغل هذه الناحية

وسكت المحامى لحظة ، ثم سأله :

ـ هل أتتك زوجتك ببائنة عندما تزوجتك ؟

ولو أن فرانسوا وجد نفسه فجأة عريانا فى مكتب الأستاذ بونيفاس ، لما كان شعوره بالحرج أقسى من ذلك

ـ كلا ، ذلك انى رفضت ..

ـ وهل قدمت زوجة أخيك التى تزوجته فى يوم زواجك بأختها ، هل قدمت لاخيك بائنة ؟

ـ واخى أيضا كان موقفه كموقفى

ـ كلا ياسيد دونج ! .. آسف لاننى مضطر بحكم العمل أن أتدخل فى شئونك الخاصة ، ولكن العواطف لا يمكن

Add to Basket

ان يحسب لها حساب في مثل هذه الامور .. ان الآنستين دونج لم يكن في وسع اية واحدة منهما أن تقدم اليك أو الى اخيك بائنة ، لسبب بسيط جدا هو أن أمهما ليست مفلسة فحسب ، بل وليس لها أي مورد للمعاش ... ولولا وقوع الانقلاب التركي واعلان الجمهورية لكانت لمدام دونفيل ايرادات أكثر من محترمة ... ولكن من سوء حظها أن احداثا سياسية كثيرة وقعت في تركيا بعد عودتها الى فرنسا ، قضت على معاشها وعلى أوجه الاستغلال المالي لما تركه لها زوجها هناك .. وبلغ بها الافلاس انها رهنت بيت أبويها في موفران

وفجأة تذكر فرانسوا تلك الذبابة التي كانت تكافح فوق وجه الماء ، بيد انه في هذه المرة لم يكن يفكر في بيبي ، بل كان يفكر في نفسه ، فهو يتصبب عرقا ، ويريد أن يطلب منه فتح النافذة كي يستنشق هواء حقيقيا ، ويرى اشخاصا عاديين يسيرون في الشارع ، ويسمع أصواتا اخرى الى جانب الصوت الاجش الذي ينطلق من حنجرة هذا المحامي

ـ وقصارى القول انك ظللت انت وأخوك تعولان مدام دونفيل مدى هذه السنوات العشر !

ترى لماذا لم يستطع أن يصرخ في وجهه قائلا :

ـ الى الجحيم انت وثرثرتك وشائعاتك كلها ! كل هذا لا علاقة له ببيبي ، ولا علاقة له بنا ، ولا علاقة له بمزرعة البلوط

وأخذت يداه ترتجفان ، وجفت حنجرته ، ولما رأى أصابع المحامي تدفع النشوق الى داخل خياشيمه وقد أطلت

Add to Basket

منها شعرات داكنة ، أحس بأعراض الغثيان في معدته

ـ انك تدرك طبعا ياسيد دونج أن كل قضية ، صغرت أو كبرت ، يجب ان تدرس من جميع نواحيها

ـ ولكن زوجتي لم تكن مفتقرة الى المال

ـ انك كنت تعطيها كل ما تحتاج اليه ، أليس كذلك ؟

ـ بلى ، بلا حساب أو مناقشة

ـ ولكن هل انت واثق ان مجرد وجودك ، مجرد كونك على قيد الحياة لم يكن يمنعها من انفاق المال على النحو الذى تشاء ؟ هل انت واثق ان الحياة التى كانت تحياها معك هى الحياة التى كانت تتمناها ؟

وابتسم المحامى ابتسامة كالحة ، فهو لا يهتم بالناس ، ولا يرى الا الوقائع ونتائج تلك الوقائع

ـ أنا أعرف مدام دونفيل ، وأعلم أنها كانت على الدوام تحب غشيان المجتمعات الراقية ·· وقد ربت بنتيها بتلك الروح ··· ومن المشهور عنها انها كانت تشكو على الدوام من جو مدينتنا المغلق على حد قولها ·· وكانت ثياب زوجتك تثير التعليقات بأناقتها المفرطة ، وكذلك عدم مبالاتها بمجتمعنا الصغير ·· وأنت رجل أعمال ياسيد دونج

ـ أستطيع أن أؤكد ··

ـ تش تش تش !

وذهل فرانسوا لخروج هذه الاصوات من ذلك الفم فسكت

ـ يجب أن تتعلم فى هذه الامور الا تؤكد شيئا ، وكما ترى ، قد أثبت ان ارتكاب الجريمة بقصد المنفعة المادية أمر غير مستبعد عقلا ·· وقد ناقشنا الارقام ·· والآن هيا

Add to Basket

بنا لنعود الى الوقـائع ، ولا شيء غير الوقائع ·· فى ذلك اليوم المعين لم يقع شيء غير عادى ·· فلم تتلق زوجتـك خطابات مجهولة ·· وفى الليلة السابقة لم يحدث بينكما شجار ···

ووجد فرانسوا الشجاعة على أن يعترض قائلا :

ـ ومن أين لك ان تعلم ذلك ؟

فربت المحامى على الملف بيده الضخمة القذرة ، وقال :

ـ كل شيء موجود هاهنا ، فلدينا الاعترافات القـاطعة من موكلتى ··· وبنفس الطريقة نعلم انها لم ترك فى ذلك الصباح الاعند موعد الغداء ··· ومن ذلك أستنتج انه لم يكن لديها سبب لقتلك بالسم فى ذلك اليوم المعين ، أكثر من أى يوم آخر

ولم يستطع فرانسوا أن يحتمـل أكثر من ذلك فقفز واقفا على قدميه ، ولكن الاستاذ بونيفاس أشار اليه اشارة آمرة ، فجلس

ـ سأسمع اعتراضاتك فيما بعد ·· أما الآن فسأذهب الى أكثر مما ذهبت اليه ·· سأقول ان فى ذلك اليوم المعين كان هناك على الاقل ثلاثة شـهود ··· ومن بين هـؤلاء الشهود الثلاثة الشاهد الذى كان ينبغى أن تخشاه زوجتك أشد الخشية ، وهو شقيقك الذى يعرف الناس جميعـا مبلغ تعلقه بك

وتناول بونيفاس مفكرته ، وتابع حديثه :

ـ وزوجتك تعلم انك كيمائى ياسـيد دونج ، وان لم يكن شقيقك حاملا لدبلوم الكيميـاء مثلك ، فهو يعرف السموم بحكم اشتغاله معك يوميا فى معملك الخاص وفى

Add to Basket

المصنع ، ومن المستحيل وضع الزرنيخ بكمية قاتلة لشخص من غير أن يثير ذلك أعراضا يعرفهـــا الجميع ، فما بالك بالكيمائيين

ولم يبتسم وهو يحدق فى محـــدثه راضيا عن نفسه يجذب شعر لحيته

ـ فلماذا قامت زوجتك الذكية بوضـــع هذه الجـرعة الكبيرة ، فى ذلك اليوم ، وفى ذلك اليوم بالذات ؟ ساخبرك أنا بالسبب ... واذا شئت فاعتبر انى أتكلم بلســـان المدعى العام .. أن زوجتك فى ذلك اليـــوم المعين ارتكبت خطأ .. ففى المرات السابقة كانت حريصـة دائما على أن تضع جرعات صغيرة فى القهوة ، تكفى فحسب لتـــدمير صحتك شيئا فشيئا ، تمهيـــدا للاذهان كى تتـــوقع نبأ موتك .. ولكن شدة لمعان الشمس فى الحديقة ، ووجود هذا العدد من الناس عن كثب منها ، جعل يدها ترتعد

ـ اقسم لك ان ذلك كله ..

ـ من فضلك ياسيد دونج .. اننا ننظـر فى الوقائع ، وفى الوقائع فحسب، فليس الذنب ذنبى اذا كانت الفروض المنطقية المستخلصة من هذه الوقائع بهذا الشكل .. وهذه الفروض المنطقية سوف لا تعرض على أناس أذكياء ، بل على جماعة من صغار التجار والدهماء ، الذين لا يعرفون شيئا عنك أو عن موكلتى سوى ماسيسمعونه فى قاعة الجلسة

وعندئذ فعل فرانسوا ما فعلته الذبابة التى سقطت فى مجرى الماء المثلوج ، جمد فى مكانه ولم يتحرك ، لانه شعر بافتقاره الى القوة

الكافية للكفاح فى تلك المعترك ، فهل ترى ظل مصغيا ؟

Add to Basket

ان كلمات الاستاذ يونيفاس كانت تصل اليه من بعيد جدا ، ولكن بوضوح تام ، وان كانت فجة :

ـ لقد تم التحقيق وأقفل بالأمس ، واليوم سيعاد الملف الى مكتب النيابة ، وللأسف الشديد ان زوجتك ادلت باقوالها على مسئوليتها غير مستعينة بى وبمشورتى ولعلنا كنا مستطيعين أن ندفع بانها جريمة عاطفية ، من غير أن تورط معنا طرفا ثالثا ... فسلوك الشخصى يساعدنا على ذكر علاقات مشهورة يمكن الاشارة اليهـا مع التستر الكافى

وقد ذكر المحامى تلك العبارات الأخيرة بلهجـة سريعة ، فهو رجل بحكم ظروفه كلها مناهض لأى خروج على الفضيلة والآداب المرعية

ـ وأما عن السيد جيفر قاضى التحقيق ، فهـذه اول قضية هامة تقع منذ توليه منصبه فى مدينتنـا ، وقد وجه التحقيق بكثير من الحذر والحصافة لا يسعنى الا التنويه بهما ... واذا سمحت لى فانى سأتلو عليك جانبا من أجابات موكلتى عن أسئلته

فهل حقا آن له أن يتمثل ببيى فى ذلك المكتب ، ولو بصورة مشوهة بتأثير قاضى التحقيق راكب الدراجة، وذلك المحامى الفظيع !

هاهو ذا الملف يفتح اخيرا وتظهر منه أوراق مكتوبة على الآلة الكاتبة

س : قررت بالأمس انك لم تكونى تشـعرين بالغيرة على زوجك ، وانك بعد اشهر قلائل من زواجكما قد منحته الحرية الكاملة فيما يتعلق بالنساء

ج : بشرط الا يخفى شيئا من ذلك كله عنى ...

Add to Basket

وأغلق فرانسوا عينيه برهة ، وخيل اليه انه يرى ببى وهى تجيب عن ذلك السؤال بصوت واضح ، وقد جلست منتصبة القامة جدا ، ورشقه الاستاذ بونيفاس بنظرة سريعة ثم استانف القراءة :

س : وهل ظل هذا الاتفاق مرعى الجانب منذ ذلك الحين ، ومن الطرفين ؟.

ج : دائما

س : هل كنت تحبين زوجك ؟

ج : لا أدرى

س : سنضع السؤال فى صيغة اخرى اكثر وضوحا، هل كنت تعيشين معه معيشة الازواج ، أم ان ماذكرته آنفا جعل العلاقة بينكما علاقة صداقة خالية من المعاشرة الزوجية ؟

ج : بل فى حدود التعايش بين زوجين

ونظر الاستاذ بونيفاس فى هذه المرة نظرة تفيض بالدهشة الى فرانسوا الذى ظل جامدا فى مكانه تماما ، وبطبيعة الحال لم يستطع الاستاذ بونيفاس أن يفهم كيف يعيش اثنان على تلك الصورة

س : الا يبدو لك هذان المسلكان متعارضين تماما ؟

ج : لم أكن أراهما متعارضين

س : والآن ما رأيك ؟

ج : لا أدرى

س : أتصرين على ان محاولتك القضاء على حيـــاة زوجك لم تكن نتيجة ثورة مفاجئة من ثورات الغيرة ؟

ج : أصر على ذلك

س : سأوجه اليك سؤالا أدق من سابقه ... أن

Add to Basket

لم تكن الغيرة هى الدافع بك على إرتكاب جريمتك ، فهل لى ان استنتج ان الدافع هو الكراهية او الحب ؟

ج : بل الكراهية

س : ولكنك قررت من قبل انك كنت تحبين زوجك ... فمنذ متى اذن بدأت الكراهية تحل لديك محل الحب ؟

ج : لا استطيع ان اخبرك بالضبط

س : منذ بضع سنوات ؟

ج : لا اظن ذلك

س : منذ سنة ؟

ج : لا ادرى ...

س : منذ ستة اشهر ؟

ج : ربما اكثر من هذا

س : ولكن فكرة الاقدام على قتله لم تخطر ببالك الا عندما اخذت السم من معمله الكيماوى ؟

ج : لم تكن عندى وقتئذ اية نية فى قتله

س : اذن ماذا كان قصدك من اخذ السم وقتئذ ؟

ج : لا ادرى ... الحقيقة ان الأمور لم يكن من الممكن أن تمضى على ذلك النحو ... كان لابد لأحدنا ان يذهب ، اما انا واما هو ... ولم تكن عندى الشجاعة الكافية لقتل نفسى ، ربما بسبب جاك ... فالطفل يحتاج الى امه اكثر من حاجته الى أبيه

س : اذن انت ناقشت مسألة ايكما يستحسن ان يقتل ؟

ج : نعم

س : وهل ظلت هذه المداولة بينك وبين نفسك مدة طويلة ؟

Add to Basket

ج : بضعة اشهر
س : واين كنت تحتفظين بالزرنيخ طول هذه الفترة؟
ج : فى درج مائدة زينتى ، فى قاع صندوق الدرور (البودرة)

س : وهل معنى ذلك انه كلما حضر زوجك الى البيت الريفى ، كنت تنظرين اليه وتاكلين معه ، وتنامين فى حجرة واحدة معه ايضا ، وانت تعلمين مقدما انك فى يوم من الايام ستقدمين على قتله ؟
ج : لم اكن قد عقدت العزم بعد ، ولكنى كنت اناقش المسالة
س : هل تستطيعين تحديد اسباب حفيظتك عليه ؟
ج : كلا

س : هل رفض فى اى وقت ان يعطيك ما تحتاجين اليه من نقود ؟ هل كان صارما معك ؟ هل كان يكثر من تانيبك ؟ هل كان يضربك ؟ هل كان غيورا شكاكا ؟
ج : لم يكن يشغل ذهنه بى على الاطلاق
س : هل شجعك اى انسان على تصرفك هذا ؟
ج : لا احد

س : كيف كانت العلاقات بين والدتك وزوجك ؟
ج : العلاقات العادية بين حماة وزوج ابنتها فيما اعتقد ، لان فرانسوا كان يتحملها بقدر ضيق ويعطيها نقودا

س : وهل كنت تعطين امك اكثر مما كان يعطيها لو كان المال مالك الخاص ؟
ج : ربما
س : انت تقرين اذن انك اعتديت على حياة زوجك

Add to Basket

لانك تكرهينه ، ولكنك لا تستطيعين تفسير أسباب تلك الكراهية

ج : كنت اتعذب عذابا فظيعا جدا

س : ان القانون الامريكى يعترف بمبرر الطلاق لا تعترف به القوانين الفرنسية ... وهذا المبرر هو القسوة العقلية ، فهل تتهمين زوجك بالقسوة العقلية ؟

ج : لا جواب

س : فى يوم الاحد ٢٠ اغسطس أعددت بكل هدوء جريمة لقتل زوجك ، فقد كانت الورقة التى بها مسحوق الزرنيخ فى يدك عندما نزلت من الطابق العلوى ... فهل تعرفين آثار السم بالزرنيخ ؟

ج : كنت اعلم انه يقتل

س : الم تفكرى فى نتائج ذلك العمل بالنسبة لك ؟

ج : كلا ، كل همى كان منحصرا فى انهاء هذا الموقف

س : اى موقف ؟

ج : لا ادرى ، هذا امر يطول بيانه جدا

س : حاولى

ج : لا يمكن ان تفهم ما سأقول

س : هل كانت ورقة الزرنيخ فى يدك عندما كنت تضعين السكر فى القهوة ؟

ج : كانت فى يدى طول الوقت وانا فى الحديقة ، خبأتها فى منديلى

س : الم تشعرى بادنى تردد ؟

ج : كلا

س : متى قررت بصفة نهائية التنفيذ ؟

ج : ذلك الصباح عندما استيقظت ، كان زوجى يمهد

Add to Basket

ملعب التنس وهو مرتد البيجاما ، والخف

س : الم تشعرى بأى ندم عندما رايته يشرب القهوة المسمومة ؟

ج : كلا

س : ماذا كان شعورك وقتئذ ؟

ج : كنت أتساءل هل لاحظ فى طعمها شيئا ؟

س : الم يلاحظ شيئا ؟

ج : اظنه اعتقد أن البن ليس من صنف جيد ، ولكنه لم يتكلم ، لأن فرانسوا ليس من الصنف المتذمر من الرجال

ونظر المحامى بدهشة وهو لا يدرى ماذا حرك مشاعر زائره فجأة ، وكان المسئول عن ذلك هو لفظ فرانسوا حين ورد بهذه الصورة الحميمة المألوفة فى مجرى كلامها

س : وفيم كنت تفكرين بعدئذ ؟

ج : لم أفكر فى شىء ، كنت اقول لنفسى فقط ان المهمة قد انتهت اخيرا

س : اى انك شعرت بالانعتاق والخلاص ؟

ج : لا أدرى

س : الم تشعرى بالتحرر من حياة ثقيلة ومعاشرة بغيضة ؟ الم تشعرى انك ستستطيعين اخيرا أن تعيشى كما يحلو لك ؟

ج : لم يكن ذلك شعورى على الاطلاق

س : وعندما رايته ينهض وقد استولت عليه الآلام الاولى فينطلق مترنحا نحو البيت ، ماذا كان شعورك ؟

ج : تمنيت أن تكون النهاية سريعة

س : الم تشعرى بالخوف من افتضاح جريمتك ؟

Add to Basket

ج : لم افكر فى ذلك .
س : ولو انه مات ماذا كنت ستفعلين ؟
ج : لا شيء ، كنت ساستانف الحياة مع ابنى
س : فى مزرعة البلوط ؟

ج : كلا ، لا اظن ذلك ، لا ادرى ... لم افكر فى تلك التفاصيل ... كل مافكرت فيه هو ان احدنا يجب ان يمضى ... لانى لم اعد اطيق تلك الحياة

ورفع الاستاذ بونيفاس نظره الى فرانسوا ، فادهشه ان يجده ينظر اليه نظرة المنتصر ، اما فرانسوا فدهش لما بدا فى نظرة المحامى من قسوة وصرامة ، وصـــاح به :

ـ ها انت قد رايت !

ـ ماذا رايت ؟ اننا فيما ارى امام قضية لم اجد لها مثيلا فى مدة اشتغالى بالمحاماة ، وكنت اتمنى عند قراءة الملف ان اجد ما اتعلل به للدفع باختلال قوى المتهمة المعقلية ، ولكن الكشف الطبى الذى اجراه ثلاثة من الاطباء الشرعيين عليها جاء قاطعا بمسئوليتها الكاملة عن افعالها

وشرد فرانسوا بافكاره بعيدا عن ثرثرة ذلك المحامى الذى لا يفهم ولا يمكن ان يفهم بيبى دونج ، انه هو المسئول عن يأس زوجته ، وعندما حدث التلاف نفسى بينها وبين ميمى لامبير ثار ضـــدها وطردها ، لماذا ؟ انه لا يدرى بالضبط ، او لم يكن يدرى وقتئذ ، اما الآن فهو يعلم السبب ... السبب انه اصر دائما على ان يكون السيد، فى حياته وفى بيته ، فيجب ان يكون وحده محور حياتها، حتى وان اهملها ونأى عنها بقلبه وعقله وجسمه !
ان جان نجت من ذلك المصير لانها لم تحب فليكس

Add to Basket

حبا تاما ، فشغلت حياتها باللجان والمؤسسات الخيرية والنشاط الاجتماعى ، مما حفظ عليها توازنها الوجدانى ، ولكن مصيبة يبيى انها لم تكن كجان !

ان يبيى أحبته ، وأحبته الى درجة اليأس القاتل ، ولكنه كان أعمى فلم يفطن ولم يبصر !

ونبهه صوت الاستاذ بونيفاس يقول له :

ـ مادمت قد صفحت عن زوجتك ياسيد دونج ، وترغب فى تبرئتها ، فسابذل جهدى فى ذلك السبيل ، ولا أستطيع أن اخبرك الآن كيف ساوجه دفاعى ، فذلك يتوقف على تكوين المحلفين فى القضية ، وعلى تكوين النيابة لها ... ولكنى أصارحك ان مهمتى ثقيلة

ولا يذكر فرانسوا كيف استطاع اخيرا أن يخرج من ذلك الفخ ، ولابد ان الاستاذ بونيفاس فتح له الباب ، فلما أبصر ضوء النهار فى الخارج ملأ صدره بالهواء الطلق واندفع ناجيا بنفسه ، ولعله نسى أن يلقى الى المحامى بتحية المجاملة المألوفة !

وفى الطريق جعلت كلمة « القسوة العقلية » ترن فى اذنه ... وركب سيارته واخذ يدير المحرك من غير أن يضع مفتاح الاتصال .. فقد قالت يبيى :

ـ كان ينبغى أن يموت أحدنا ... واعتقدت ان الطفل أحوج الى أمه منه الى أبيه

واندفع بالسيارة فى طريقه على غير هدى ، وقد نسى أن اليوم يوم السوق الاسبوعية ، فكان عليه أن يستخدم النفير بغير انقطاع ، ودخل فى شارع ممنوع على السيارات أن تمر فيه فى ذلك اليوم المزدحم ، ثم اضطر للرجوع الى الخلف

Add to Basket

المحاكمة

ـ سيدى ! .. سيدى ! .. انها الساعة الثامنة الآن

وجعلت آنجين الخادم العجوز فى بيت شارع الدباغين تروح وتغدو فى الحجرة بنشاط واهتمام فى عاجلين

ـ أية بدلة اخرجها لك ؟ من المستحسن ان تدخل الحمام .... ما أشد تشعث هذا الفراش ! كل شىء فيه مقلوب راسا على عقب .... لابد انك ظللت تتقلب طول الليل

ـ كيف الجو اليوم ؟

ـ ممطر

ـ لا لزوم لهذه البدلة السوداء .... ارتداء السواد قد يبدو نوعا من المبالاة اليوم .... اخرجى بدلة رمادية

ثم انه لم يكن واثقا من ظهوره امام المحكمة ، فالاستاذ قد رجاه ان يلزم البيت ولا يذهب الى المحكمة:

ـ ان النيابة لم تطلبك للشهادة ، والدفاع لم يطلبك شخصيا للادلاء بشهادته فانا افضل جدا ان أستخدم اقوالك فى التحقيق واقراراتك المكتوبة اذا اقتضت الحاجة اليها ، من غير أن تظهر بشخصك .... واذا اراد القاضى ان يستعمل حقه فى سماع شهادتك ، ففى استطاعتى ان أطلبك تليفونيا ، فامكث فى البيت ولا تبرحه

Add to Basket

وكان اليوم شبيها الى حد كبير بأيام المآتم ، فالبيت يضج بحركة حزينة غير عادية ، والخادم العجوز تبكي وتنتحب وتكلمه كما لو كان قد اصيب بفقد عزيز لديه :

ـ يجب ان تاكل شيئا ... كي يقيم اودك

وهو من جانبه منح ذلك اليوم اجازة لجميع الموظفين في المكتب ، فكان الفراغ محسوسا في المكاتب ، وافتقدت اذنه ضجة آلات الدباغة المألوفة فشعر لذلك باستيحاش.

ثم حضر فليكس في سيارته مع جان ، وكان الانزعاج والجد باديين على فليكس ، وبعد أن رمق فرانسوا بنظرة قلقة ، قبله على وجنتيه ، ولاحظ فرانسوا انه ارتدى ثيابه بعناية اكثر من المعتاد ، وكذلك جان ، وقد حرصت على ارتداء السواد، فكلاهما مدعو للشهادة، وهما في طريقهما الآن الى دار المحكمة

وقالت جان لفرانسوا :

ـ يجب ان تحتفظ بهدوئك كاملا يافرانسوا ... وانا واثقة ان كل شيء سينتهي على خير مايرام ... وبهذه المناسبة اذكر لك انى تلقيت برقية من امي ... هاك هي

وقدمت اليه البرقية ، فقرأ فيها :

ـ نوبة عنيفة من الروماتيزم ، السفر مستحيل ، ارسلت الى بونيفاس شهادة مرضية وبعثت له باقوالي كتابة ، ابرقوا الي بالنتيجة

ونظرت جان وفليكس الى الساعة الكبيرة وكان عقرباها يشيران الى التاسعة الا عشر دقائق ، والمحاكمة لابد ان تبدأ في التاسعة تماما

فقال فرانسوا :

Add to Basket

.. كلمنى تليفونيا بمجرد الانتهاء من شـــهادتك يافليكس

وفى هذه اللحظة وصـــلت مارت قادمة من مزرعة البلوط بالاوتوبيس ، فقد دعيت هى ايضا للشـهادة ، اما جاك فبقى فى البيت الريفى مع الطباخة كلو .

ـ سنراك بعد قليل يافرانسوا

وحاول الجميع أن يبتسموا ، ولكن محاولتهم باءت بالفشل ، وكان الرذاذ يتساقط ، ولم تعد عالقة بفروع الاشجار الا بضع أوراق صفراء تقاوم الشتاء بلا جدوى ، وامام البيت مباشرة جلس صياد وقد أدلى بشصه فى الماء ، وتحدب ظهره وشبث عينيه فى الفلينة التى تنداح حولها الدوائر

وقالت له انجيل :

ـ ينبغى أن يشغل سيدى نفســـه بأى شىء حتى لايبدو له الوقت أطول من حقيقته

وكان قد نام نوما نذرا ، وحلم احلاما كثيرة غامضة ، فاحس براسه فارغا وبشفتيه محمومتين ، وظل يغـدو ويروح امام آلة التليفون ، على أمل أن يسمع رنينها ، ولو ليقولوا له كى يسرع بالتوجه الى دار المحكمة

وكان الاستاذ بونيفاس قد قال له :

ـ ستكفى جلستان على الاكثر لنظر القضية . لان موكلتى اعترفت اعترافا كاملا ، مما حدا بالنيـــابة الى الاستغناء عن شهادة معظم شهود الاثبات ، وانا من جانبى وجدت ان شهادة معظم شهود النفى ستكون بلا جدوى

واقترح عليه فرانسوا الانتظار فى مقهى صغير بالقرب من دار المحكمة ، فقال له :

Add to Basket

ـ ولكنك معروف جدا فى المدينة ، وسيعتبر هذا العمل غاضا من كرامتك حين يتناقله الناس

وكان الاستاذ بونيفاس قد جعله يكتب فى تقريره للمحكمة عبارات غريبة أعترض عليها ، بيد أن المحامى أصر عليها لأنها خليقة أن تؤثر فى قلوب المحلفين :

ـ انني أعلن بكل قلبى وروحى ، أمام الله والناس انى صفحت عن زوجتى وغفرت لها الأذى الذى الحقته بى وجميع ما حاولت أن تنزله بشخصى من أضرار

ـ ولكنى ياأستاذ بونيفاس لا أجد محـــلا للمغفرة والصفح ، لأنى أعتقد فى قرارة نفسى أن الخطأ خطئى انا

ـ اسمع ياسيد دونج ! هل تريد أن تساعد الدفاع عن زوجتك أو لا تريد ؟

ـ طبعا

ـ أكمل اذن ... وانى واثق ان العزلة الموحشـــة التى تركت فيها شابة مرفهة صغيرة السن تعودت الحياة النشطة الحافلة بالتسلية والمسرات قد دفعت بها الى الضيق بتلك المعيشة

ورن جرس التليفون فانقض عليه فاذا به عميـــل يريد أن يطلب صفقة من الجلود ، فصرخ فيه :

ـ مستحيل ! المكتب اليوم مغلق ، اتصـــل بنـــا غدا

ونظر وهو لم يزل ممسكا بالسماع الى ساعة الحائط ، انها العاشرة الا ربعا ، ومعنى ذلك أن النيابة فرغت من قراءة عريضة الدعوى ... وتصور ازدحـــام القاعة بالسيدات ، وظهور بيبى شاحبة الوجه منتصبة القامة

Add to Basket

فى شمم ووقار ، كانها ذاهبة الى الكنيسة . . . ولابد ايضا ان جميع الحاضرات ارتدين افضل الوابهن

ـ قلت لسيدى ان يشغل نفسه بشىء حتى لا يطول عليه الانتظار . . .

وتجاوزت الساعة منتصف الحادية عشرة ، فنزل الى مكتبه ثم صعد ، ونزل ثانية ففتح باب الشارع ، فظننته الخادم العجوز يفكر فى مغادرة البيت واسرعت تصرخ فى أعقابه وهى تلهث :

ـ سيدى يعلم جيدا انه يجب الا يغادر البيت

ولكن المسكين لم يكن يطمع فى أكثر من استنشاق قليل من الهواء البارد على ضفة النهر ، وكان صياد السمك لم يزل جالسا فى موضعه

واخيرا ، فى الساعة الواحدة الا ربعا وقفت سيارة عند المنحنى ، وكانت سيارة فليكس الذى كان يقودها عارى الراس

ـ حسنا ؟

ـ لا شىء . . . مر كل شىء بهدوء . . . ويبدو أن المحلفين لا بأس بهم ، فيما عدا الصيدلى الشيوعى . . . وللأسف انه رئيس المحلفين

ـ وبيبى ؟

ـ بخير حال ، لم يتغير فيها شىء . . . بل يبدو ان وزنها زاد قليلا . . . وعندما دخلت قاعة المحكمة حبس الجميع انفاسهم

ـ وماذا كانت ترتدى ؟

ـ تايرا كحلى اللون وقبعة صغيرة داكنة ، بدت فيهما كانها تدخل صالونا فى حفلة استقبال رسمية . . .

Add to Basket

وجلست بالزان كامل ، ثم جالت فى أرجاء القاعة بعينيها كأنها تبحث من أحد

وجف حلق فليكس فجأة

ــ وممثل النيابة ؟

ــ كان صارما ، ولكنه كان اقل تحاملا من المنتظر ... وكادت الاجراءات تكون روتينا محفوظا ، فلا النيابة ولا الدفاع وجها اسئلة ذات شأن الى الشهود ، حتى لقد بلغت خيبة الامل على كثيرين ممن طمعوا فى التمتع بمفاجآت

وبعد قليل اقبلت جان فى سيارة تاكسى

ــ كيف حالك الآن يافرانسوا ؟ لا أظن انه كان هناك ما يمنع من حضورك ، فكل شىء جرى ببساطة لايتصورها العقل ، وعندما جلست فى مقعد الشهود أومات الى بيبى بحركة صغيرة من يدها لم يتبينها أحد ، هكذا ... رفعت اصبعين فقط كما كنا نفعل ونحن صغيرتان على المائدة عندما نريد أن نتفاهم على سر فيما بيننا لا يعرفه والدانا ... واقسم انها كانت تبتسم ... هيا بنا ناكل ياأولاد! فان فليكس ينبغى ان يعود الى دار المحكمة فى منتصف الساعة الثانية حيث ستعود الجلسة للانعقاد

وكانت أصوات السكاكين والشوك ترن فى الصمت المخيم ، كأنه طعام الحداد فى يوم مأتم

ــ هل من المنتظر حقا ان يفرغوا من القضية اليوم ؟

ــ هذا يتوقف على ممثل النيابة ... فان الاستاذ بونيفاس يؤكد ان مرافعته سوف لا تستغرق اكثر من ساعة ، ولكنه وعد أن لا يتمسك بتحقيقه فى معظم قضاياه ، فاذا احتاج الأمر استغرق ساعتين أو ثلاثا على حسب استعداد المحلفين للاستماع اليه

وانصرف فليكس بعد الغداء ، وبقيت جان فقالت :

ـ خبرني يافرانسوا ... الوقت قد حان للنظر في بعض المسائل .... فاذا شاء الله ان تبرىء المحكمة ساحتها ، سترغب طبعا في أن ترى جاك فورا ... الا ترى انه من المستحسن الا نذهب بها الى البيت الريفي، حتى لا تصدمها الذكريات الأليمة ؟ .. اتدري ماذا افكر فيه ؟ نركب السيارة ونذهب الى مزرعة البلوط فنحضر جاك وكل ما يحتاج اليه لقضاء الليلة هنا ، ولا مانع من احضار كلو أيضا ، وفي مدى ساعة تكون قد عدنا الى هنا ، ولاشك في ان الاستاذ بونيفاس سوف لا يحتاج اليك قبل ذلك الوقت .

وكانت الساعة لم تبلغ الثالثة بعد ، فوافق فرانسوا على ذلك الاقتراح ، وتوجها توا الى البيت الريفي وتولت جان قيادة السيارة لأن أعصاب فرانسوا كانت مضطربة للغاية

واسرعت كلو الى البوابة البيضاء وقد خطر لها أن البشرى قد جاءت ، او لعل السيدة نفسها حضرت الى بيتها ، وامرتها جان أن تجهز ثياب جاك ، واقبل جاك يجري ويسأل خالته :

ـ اين امي ؟

ـ ستراها الليلة

ـ الم يحكموا عليها ؟ قيل لي انها لابد أن تسجن

واكفر وجه فرانسوا ، فقالت له جان :

ـ اشرب كاسا من الويسكي يافرانسوا

وبسرعة عادت الأسرة الى شارع الدباغين ، وعلى الاثر اقبلت مارت من المحكمة تقطر ثيابها ماء ، لأنهـا

نسيت مظلتها فى حجرة الشهود ، فقالت وهى ترتجف :

ـ ان الاستاذ بونيفاس يتكلم الآن ... وقد ابكى الكثيرين من الحاضرين ... وارسلنى السيد فليكس لاخبركم أن كل شىء يسير على ما يرام

وعندئذ لم يطق فرانسوا الانتظار ، فارتدى معطفه ولم يصغ لتوسلات جان ، وجعل يبحث عن قبعته فى حركات محمومة ، وكان الظلام قد ارخى سدوله ، فلما وصل بسيارته الى ميدان المحكمة وجد جمعا كبيرا امام المبنى ، كالذى يكون أمام دار للسينما فى فترة الاستراحة ، فتوارى بسيارته عند المنعطف وبقى جالسا أمام عجلة القيادة ، لانه ادرك أن المحلفين خلوا للمداولة ، وميز بين الجموع فليكس عارى الرأس وبغير معطف خارجا من دكان السجائر ، وعرف فليكس السيارة فاقبل عليه بلهفة ، وقال له :

ـ لقد كلمتك بالتليفون فى المبيت فلم أجدك ، سنعرف كل شىء بعد بضع دقائق ، والاستاذ بونيفاس متفائل ، فقد ترافع مرافعة رائعة مؤثرة ، ابق فى السيارة يافرانسوا ... اتريد أن أحضر لك شرابا ؟

ـ كلا ... ويبى ما اخبارها ؟

ـ كما هى ، لا تكترث لشىء ، هل قالت لك مارت أن الاستاذ بونيفاس رسم صورة مفصلة لحياتها فى استنبول وحياة اسرتها ، فابكى جميع الحاضرات ؟

وتقلصت اصابع فرانسوا على ذراع فليكس ، لأن الناس كانوا يتسابقون للعودة الى داخل المحكمة ، ورن صوت جرس اشبه بأجراس المسارح عند انتهاء الاستراحة ، واقبلت جان فى سيارتها لأن القلق استبد بها

Add to Basket

ايضا فلم تستطع البقاء فى البيت ... وتحرك لاستبقائه، فقاده الى باب جانبى فى حارة مظلمة يستخدمه الموظفون، واخترق الدهاليز الى حيث كانت الضجة تنبعث من القاعة فاذا الناس مكدسون عند الباب ، وفجأة ساد الصمت وارتفع صوت قوى واضح

ـ اجمع المحلفون على ان المتهمة كانت تقصد قتل المجنى عليه ، وأنها اقترفت جريمتها مع سبق الاصرار ، ولا يرى المحلفون اخذها بالرأفة ...

وتحسست يد جان طريقها فى الظلام الى اصابع فرانسوا فضغطت عليها ، وقالت :

ـ تمالك نفسك يافرانسوا

ولكنها بدأت تبكى بكاء مكتوما ... وارتفع صوت القاضى على الاثر :

ـ ... معاقبة المتهمة بالسجن خمس سنوات مع الشغل ...

وارتفعت بين الجماهير همهمة عالية ولغط ، فأسرعت جان تجذب فرانسوا من يده قبل ان تراه أعين الفضوليين ثم فتحت باب حجرة ليس فيها شىء من الاثاث سوى مقعد طويل من الخشب ، أما الجدران فكانت من الصخر العارى ، وفتح باب مقابل لباب هذه الحجرة خرج منه القضاة ، وظهرت على الاثر بيبى يتبعها حارسان والاستاذ بونيفاس ... ودخلت بيبى الحجرة فى هدوء تام ، ولم تظهر عليها الدهشة عندما رأتهما بل سألت جان :

ـ هل كنت هناك ؟ ... واين جاك ؟

ـ فى البيت

أما هو فلم يستطع ان يتكلم ؟ لان الالفاظ صارت

Add to Basket

فى حلقه الجاف كالحجارة ، وبسط يديه نحـــو يدى زوجته البيضاوين ، وقال لها أخيرا :

ـ سامحينى يابيبى

ولم تتحمل جان الموقف فالقت بنفسها على صدر بيبى وأخذت تبكى ، فقبلتها بيبى بهدوء ، وقالت :

ـ لا ينبغى أن تبكى ... قولى لمارت أن تأتى لزيارتى ... ولكنها بالتأكيد ستأتى من تلقاء نفسها غدا ... فقد استفسرت وعلمت انى سابقى اسبوعا على الأقل قبل أن يرحلونى الى الليمان .

وكان فرانسوا يصغى لما تقول ، وهو كالمذهول ، ولم يبال بوجود الاستاذ بونيفاس أو وجود الحارسين ، فالكبرياء لم يعد لها موضع فى هذا المقام :

ـ سامحينى يابيبى ... لقد فهمت كل شىء أخيرا ... وكنت اتمنى أن يصدر الحكم بالبراءة لكى ...

وتطلع الى عينيها فاذا بهما هادئتان جادتان ، وهزت رأسها برزانة ، وقالت :

ـ كلا يافرانسوا ، وما كان ذلك ليغير من حقيقة الأمر شيئا ... لقد جاء فهمك متأخرا بعد أن انقطـــع الحبل ، ولم أدرك أنا شخصيا انه انقطع انقطاعا تاما الا عندما وجدت نفسى ارقبك ، وانت تشرب فنجـــان القهوة من غير أن يتحرك فى أعماقى شىء ، وجدت انى ارقبك باستطلاع مجرد من كل عاطفة ... فعلمت انه لم يبق لك وجود بالنسبة لى حتى قبل أن أضع حدا لوجودك

ـ انقطع الحبل اذن يابيبى ؟

ـ وبما كان لا ينبغى أن أخبرك حتى لا تتألم ، ولكن

Add to Basket

هذا افضل ، وكل ما ارجوه منك الآن ان تحتفظ بمارت فى خدمتك من أجل جـــاك .... فهى تعلم ما يلزم له بالضبط ... وانت يا أستاذ بونيفاس احب أن أتوجه اليك بالشكر ... لانك فعلت كل ما هو مستطاع ... وانا واثقة اننى لو كنت اخذت بنصحك منذ البداية ... ولكنى لم اكن اريد البراءة ... ومن الخير يا فرانسوا ان تطلب الطلاق ، وتبدأ حياتك من جديد ... فلا معنى للابقاء على صلة لم يعد لها وجود حقيقى ... وانت شديد الحيوية .

واوما الحارسان اليها فخرجت معهما بهدوء ، ولم تتجلد جان فارتمت على صدر فرانسوا تبكى .

ـ هذا مستحيل ! لا تدعها تذهب يا فرانسوا !. بيبى فى الليمان ؟. لماذا لا تقول شيئا ؟ لماذا تتركهم يأخذونها ؟.

واضطر فرانسوا أن يجرها الى الخارج جرا حيث كان فليكس ينتظر أمام السيارة وكان اول ما فكر فيـه فرانسوا :

ـ ما كان ينبغى أن نحضر جاك فلنعد الليلة الى البيت الريفى .

وصار الناس بعدها اذا تحدثوا عن فرانسوا دونج يقولون :

ـ انه لم يعد كما كان من قبل ، منذ سجنت زوجته ... انه لا يكترث بعمله ، ولا يصرف شئونه ، الافضل ان تتصل بالسيد فليكس ، فهو الآن كل شىء .

وصار لفرانسوا شاغل واحد ، هو جاك ، كيف يكسبه بعد أن نشأ غريبا عنه ، والاستاذ بونيفاس يقدر أن الافراج

قد يتم قبل مضى ثلاث سنوات ، اذا قدم فرانسوا عريضة الى رئيس الجمهورية للتخفيف عنها ، ولا سيما ان سلوكها فى السجن سيكون مثاليا .

ان فرانسوا يحصى الايام ، ويفكر احيانا فى ان بيبى التى ستعود ستكون غير بيبى التى رحلت .

ـ ولكن لا بأس ... حسبه انها ستكون هنا .

لقد كانت أمينة كالعهد بها فبصرته بحقيقة شعورها ... ولكن من يدرى ؟.

ويدفن فرانسوا وساوسه وحسراته وندمه وآماله المتضاربة ومخاوفه فى كئوس الشراب واحلام الشرود الكئيبة .

ـ انه لم يعد كما كان ... لقد اصبح رجلا آخر تماما ... ومن المستحسن أن يلجأ فى الامور الجدية الى شقيقه فليكس ... فهو الآن الرجل ... وهو كل شىء .

فهرس

الموضوع	صفحة
قبل ان تقرأ	٧
الفصل الأول : يوم الأحد	٦٥
الفصل الثاني : لا أدرى	٧٥
الفصل الثالث : إلهام	٨٥
الفصل الرابع : لماذا لايكون صحيحا	٩٦
الفلص الخامس : بدء التحقيق	١٠٤
الفصل السادس : القبض على الزوجة	١١٠
الفصل السابع : ليس لى إسم	١١٩
الفصل الثامن : وراء العذارى	١٢٦
الفصل التاسع : قاضى التحقيق	١٣٣
الفصل العاشر : مع جاليير	١٤٩
الفصل الحادى عشر : فى عالم آخر	١٥٦
الفصل الثاني عشر : وعد	١٦٢
الفصل الثالث عشر : لا تكذب	١٧٣
الفصل الرابع عشر : رسالة	١٨٣
الفصل الخامس عشر : ميمى	١٨٧
الفصل السادس عشر : هل أنا زوج طيب !	٢٠١
الفصل السابع عشر : من أدرانا ؟ !	٢٢٧
الفصل الثامن عشر : المحاكمة	٢٤٧

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية اثنا عشر جنيها ، وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عاليه عند الطلب .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣ .
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

رقم الايداع : ٧٨٢٥ / ٨٩
الترقيم الدولى : ٢ - ٤٥١ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

هذا الكتاب

قبل شهرين مات جورج سيمنون .. أحد أهم كتاب الرواية البوليسية فى القرن العشرين .

وسيمنون ظاهرة خاصة فى عالم الأدب . فإلى جانب إبداعاته الغزيرة المتميزة ، فقد عاش حياة حافلة بالمغامرات والحكايات .

ولم يكن يمكن أن نفوت فرصة وفاة سيمنون دون أن نقدم للقارىء العربى إحدى رواياته الهامة .. مع مقدمة متميزة عن حياة الكاتب وإبداعه .. كتبها الدكتور الطاهر مكى ..

واخترنا رواية « هذه المرأة لى » .. وكتب لها المقدمة باحث جاد قدم العديد للمكتبة العربية ..

والآن .. أمامك ظاهرة ثقافية كاملة عن الرواية البوليسية ، وعن أبرز كتابها .. وأهم ملامحها .. ونموذجا حيا وجادا لهذا النوع من الأدب ..

هذه المرأة لى...

حدث فريد .. يواكب به كتاب الهلال ما يحدث فى العالم .. اليوم وغدا ..